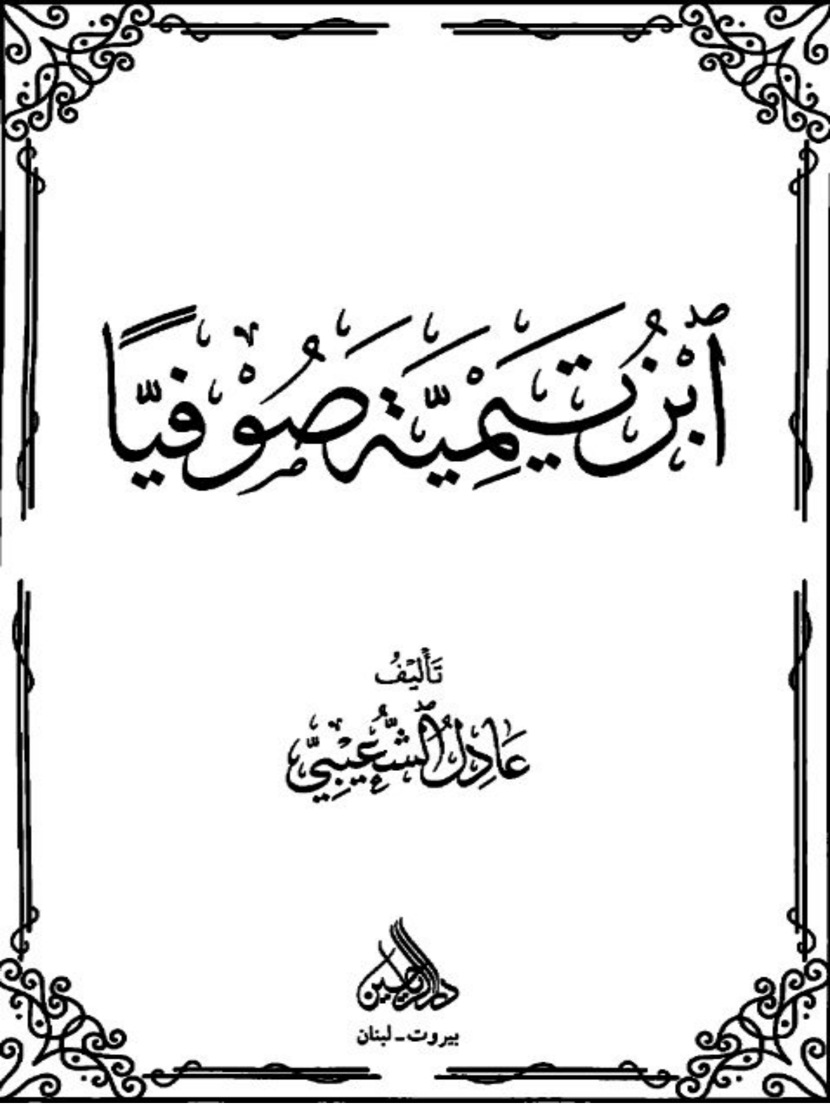
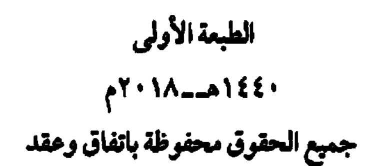


ابن تيمية صوفياً

تأليف

عادل الشعيبي

بيروت ـ لبنان



الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ-٢٠١٨م

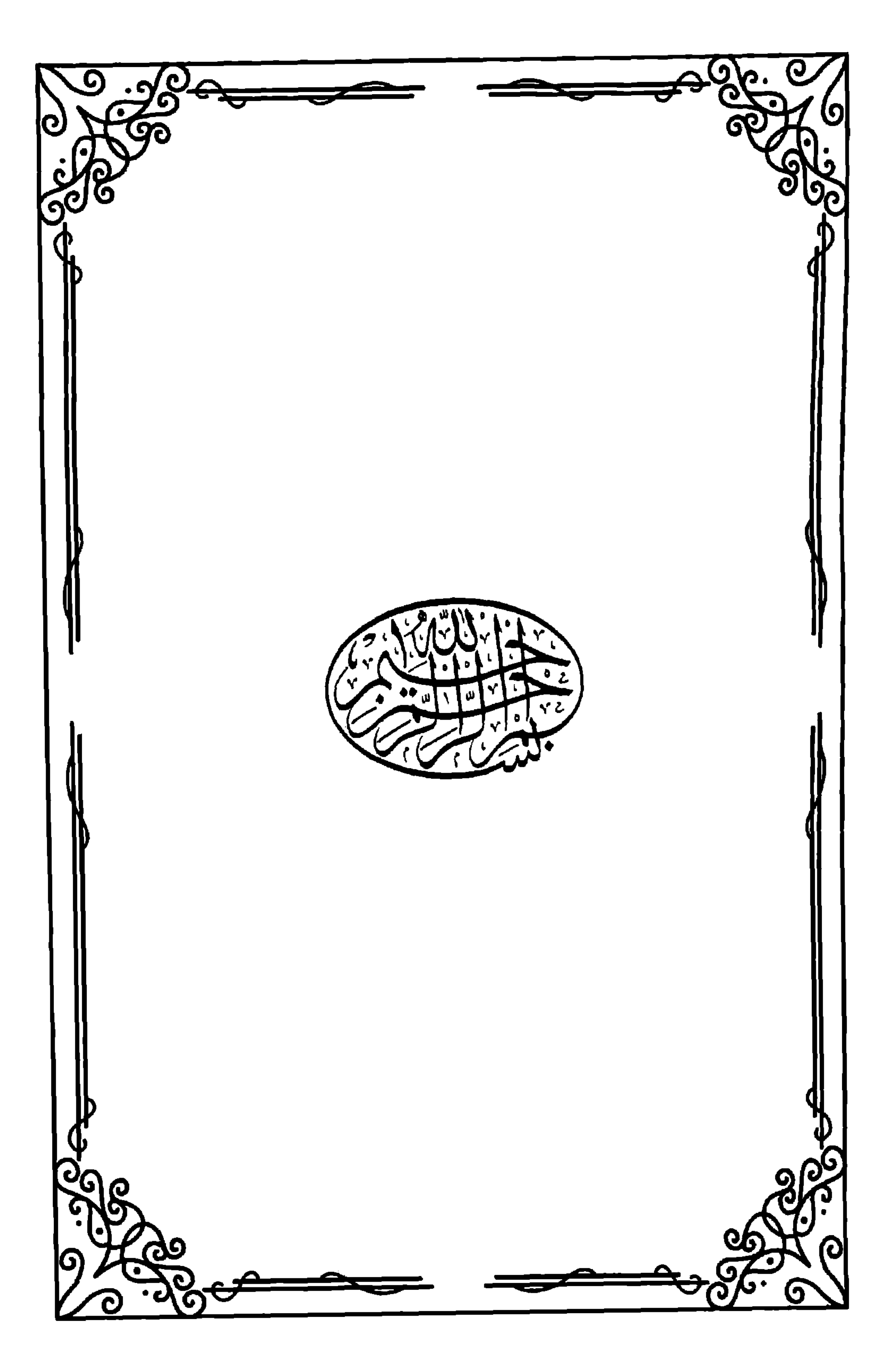


بيروت - لبنان

هاتف وفاكس: ٠٠٩٦١١٦٦٠١٦٢

جوال: ٠٠٩٦١٧١٥٨٧٣٥٣

البريد الإلكتروني: Dar.alrayaheen@gmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم



أحمد الله العلي العظيم، وأصلي وأسلم على نبيه الكريم، وعلى آله وأصحابه أهل النهج القويم.

وبعد:

فقد كثرت الدراسات والمؤلفات عن الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله، وذلك للأثر الكبير البالغ الذي أحدثته آراؤه الفقهية والكلامية ومواقفه المثيرة، إضافة إلى ما منحه الحق تبارك وتعالى من علم غزير شهد له به القريب والبعيد، وأقر كل من رآه بتفوقه العلمي وتبحره وسعة دائرته.

تعرض ابن تيمية ـ بسبب تلك الآراء ـ لمحن شديدة واجهها بحزم وعزم وصدق وتعلق كبير بالله، نازل فيها جل الطوائف والمذاهب والتيارات الإسلامية في عصره.

ونتيجة لتعدد مواهبه وسعة علومه ومعارفه فقد تعددت المعارك التي خاضها، والميادين التي نازل فيها، والخصوم الذين واجههم، ولم يدع أحداً يمر به دون أن يأخذ بتلابيبه ليحجزه عن خطأ رآه أو زلة وقع فيها، أو معتقد خطير يتبناه، حسب ما كان يرى، حتى أنه عارض النحاة في علومهم ونازعهم نزاع العارف الخبير، وسجَّل عليهم العديد من المآخذ والملاحظات، إلى أن تعرض لإمامهم المطلق

الذي يصدر الجميع عن رأيه الإمام سيبويه في قصة مشهورة حدثت بسببها خصومة شديدة بينه وبين أبي حيان الأندلسي النحوي المعروف.

ولهذا كثر خصومه ومعارضوه، وانقسم فيه الناس، وتباينت فيه مواقفهم، بين معظمين له مغالين فيه، وآخرين ناقمين مبالغين في الحط عليه، وتوسط فيه آخرون، فعرفوا له حقه ومنزلته العلمية والروحية، وتجنبوا شذوذاته وأخطاءه المحدودة بمقابل معارفه وتبحره في العلوم النظرية والعقلية والنقلية.

وفي ظل هذا التجاذب غابت ملامح من شخصية هذا العالم الكبير، وذلك لغلبة نزاعاته الفقهية والكلامية، فأخطأ فيه طرفا نقيضٍ فيما يتعلق بالجوانب الروحية وهو ما يسميه علماء الإسلام بـ «التصوف».

فظنه الطرفان خصماً للصوفية عدواً لها، رافضاً للتصوف كعلم وسلوك.

فصوفية زماننا أو كثير منهم ينقمون عليه حطه على الصوفية ووقيعته في العديد من أئمتهم السابقين والمتأخرين، فتصوروه جسداً خالياً من الروح.

والمتعصبون له هم الآخرون لا يشكون في رفضه للصوفية والتصوف، لكنهم يعدون هذا الموقف المتوهم من أبرز مناقبه، باعتبار أن التصوف ليس إلا ركاماً من الخرافات والوثنيات ـ كما يظنون ـ فنشبت بين الطرفين معركة الإفراط والتفريط.

والحق أن ابن تيمية رحمه الله كان إماماً في التصوف، كما كان إماماً في الفقه، والحديث، والتفسير، والكلام، والأصول، والتاريخ، وغيرها من العلوم الشرعية والإنسانية.

ونحن هنا نود أن نسلط الضوء على «الوجه الآخر» لابن تيمية ونصحح خطأ شائعاً لدى الفريقين، ونثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنه كان عالي الكعب في

التصوف، عالماً فيه، معظماً للصوفية، بل وواحداً من أجل وأعظم علماء التصوف.

أدرك جيداً أن هذه الدعوى قد تقابل بالرفض، وربما بالسخرية من الطرفين الذين اعتادا على اعتبار ما تلقنوه من القناعات مسلمات لا تقبل النقض، ولا البحث وإعادة النظر، ولهذا جزمت بهذه الحقيقة وسميت الكتاب بـ «ابن تيمية صوفياً».

وهي حقيقة جلية لمن فتش ونظر وقرأ في التراث الضخم الذي تركه لنا الشيخ تقي الدين.

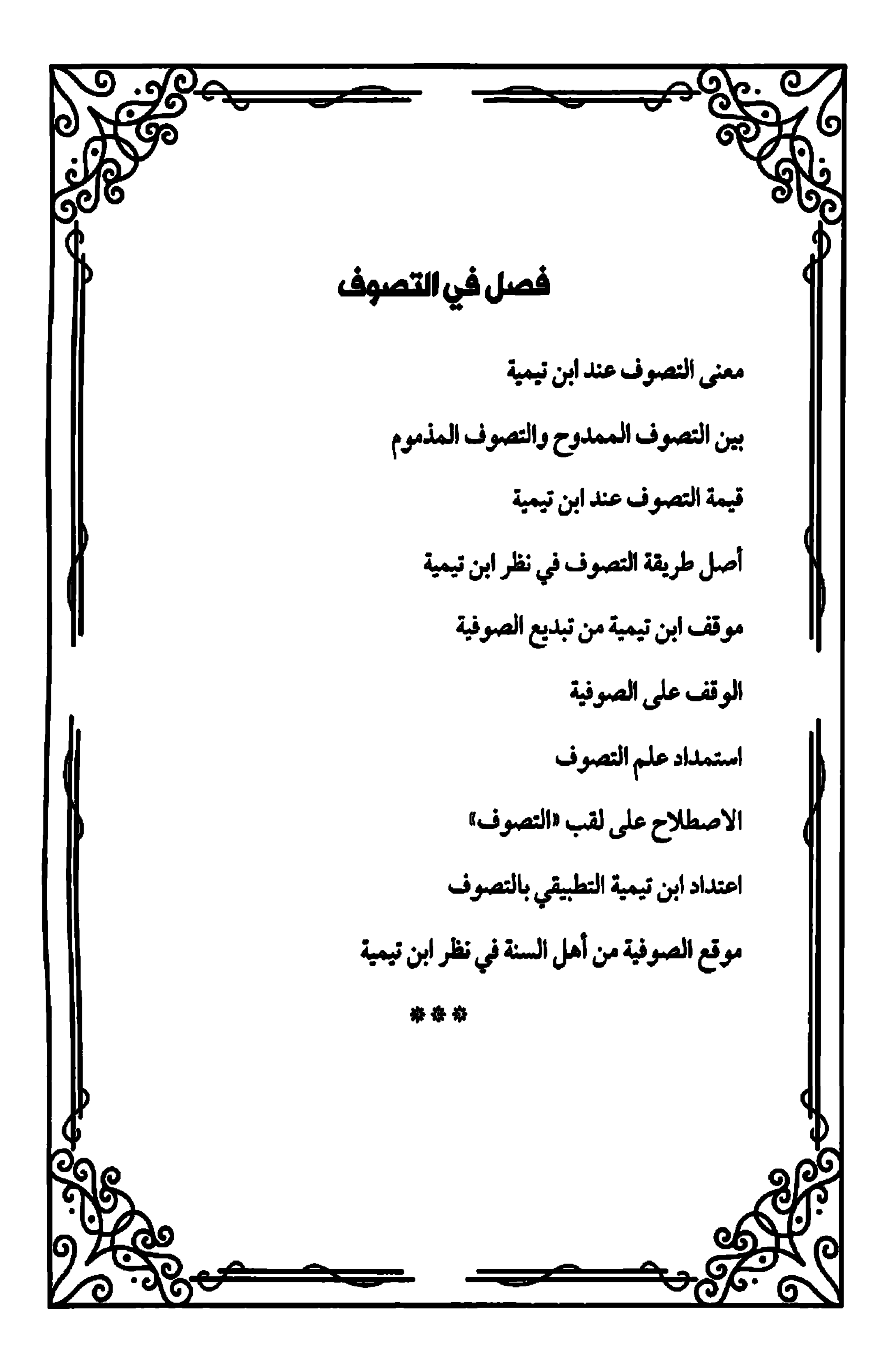
بل إنني أستغرب كيف توهم الواهمون أن ابن تيمية خصم للتصوف مع كثرة كلامه المنتشر في تقرير مسائله والاعتداد به وبشيوخه.

إن الجانب الصوفي من أبرز الجوانب اللامعة في حياة ابن تيمية، ومع ذلك استطاعت مؤسسات وهيئات وجهات أن تقلب الحقيقة ليتسنى لها الانقضاض على علم من أجل علوم الشريعة، العلم الذي يشكل الروح العامرة لبقية العلوم الإسلامية.

لا أريد أن أخوض في أسباب هذا الانقلاب في التصور، وكل ما أسعى إليه هو إثبات هذه القضية، ثم يبقى المجال مفتوحاً ليدلي كل واحد منا بدلوه في البحث عن سبب هذا التصور المعكوس الخاطئ.

سائلا المولى العزيز الحكيم أن يلهمني رشدي وأن يسدد قلبي وعقلي وأن يجعل هذا الكتاب نوراً لي ولوالديَّ ولشيوخي ولكل من له حق وفضل عليَّ، والله من وراء القصد.

* * *



فصل في التصوف

معنى التصوف عند ابن تيمية

بين التصوف الممدوح والتصوف المذموم

قيمة التصوف عند ابن تيمية

أصل طريقة التصوف في نظر ابن تيمية

موقف ابن تيمية من تبديع الصوفية

الوقف على الصوفية

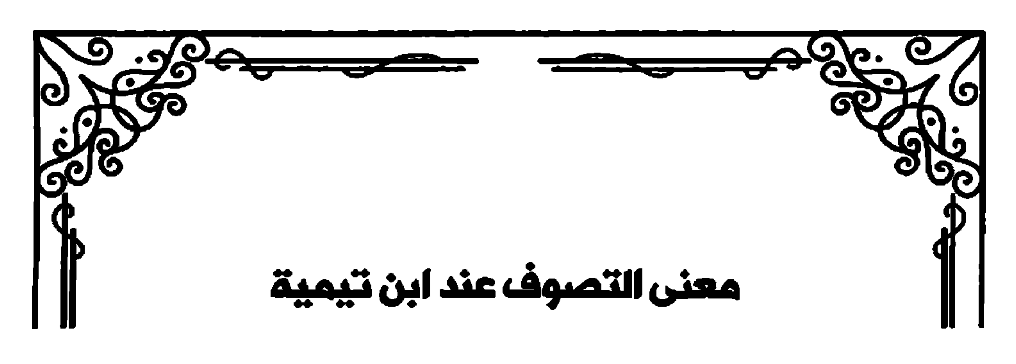
استمداد علم التصوف

الاصطلاح على لقب «التصوف»

اعتداد ابن تيمية التطبيقي بالتصوف

موقع الصوفية من أهل السنة في نظر ابن تيمية

* * *



معنى التصوف عند ابن تيمية

تناولت طائفة من المعاصرين معنى التصوف بشكل غريب لا يمت إلى العلم والتحقيق بصلة، فقد نشأت لديهم عقدة كبيرة منه نتيجة التعبئة الخاطئة والمبالغة في الخصومة، فقاموا بتحديد معان لا علاقة لها بالواقع ولا بالعلم، وأحدثوا في ذلك بدعة قبيحة لم يعرفها أحد من أئمة الإسلام على الإطلاق.

حيث يرى هؤلاء أن التصوف عبارة عن سلوك يجمع مخلفات الأفكار المنحطة، والخرافة، ويقتات على الأوهام والدجل، ويجتهد أصحابه في تعميق البدع والمحدثات، ابتداءً من بدع الأذكار ـ كما يرون ـ وانتهاء بالشرك بالله والمروق من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية!

وهو تصور بالغ الخطأ لا يلتقي مع الحقيقة إطلاقاً، بل هو خطيئة يتحمل وزرها بعض من لبسوا لبوس العلماء، فأخذوا يضلون ويضللون، وينشرون المفاهيم الخاطئة والتصورات المغلوطة، ويعتدون على العلم، ويفسدون في ميادين الفكر الثقافة الإسلامية، وهم يظنون أنهم مصابيح تهدي سواء السبيل!

ونحن ندرك أن هؤلاء الذين انتحلوا العلم، وادعوا امتلاك الحق المطلق لن يصدهم عن سلوك طرائقهم المعوجة علماء الدنيا كلهم ولو جمعناهم في صعيد واحد، طالما أن العلماء سيبددون تلك التصورات المشوهة.

وقد أكثروا من الادعاء أنهم على طريقة ابن تيمية الذي غالوا فيه، وجعلوه لسان الميزان، ومعيار الحق الأوحد، وهم لا يعرفون عنه سوى ما تلقنوه من أساتذتهم الذين لم يحيطوا بفكره وآرائه ومعتقداته، فظنوه أسود القلب، جاف الطبع، عدواً للصوفية والتصوف.

ونحن وإن كنا متيقنين أن المسافة بين هؤلاء وبين ابن تيمية لا تختلف كثيراً عن المسافة بينهم وبين العلماء الذين يتوجسون منهم لتصوفهم، إلا أننا سنسلط الضوء على معنى التصوف عند ابن تيمية، لنثبت أن معناه عنده لا يختلف عن معناه لدى سائر علماء الإسلام، وفي مقدمتهم علماء الصوفية الأجلاء.

وقد تنوعت تعريفات العلماء للتصوف، حتى أوصلها بعضهم إلى أكثر من ألف تعريف، وكلها تدور حول معنى واحد، وهو «تحقيق العبودية لله، وحسن التوجه إليه».

ولأن تعريفات التصوف كثيرة ومتنوعة، اقتصر ابن تيمية على الإشارة إلى بعضها، ثم انطلق يبحث في معناه، بعلمه المعهود، وسعة اطلاعه، وخياله الواسع.

وقد ربط هذا العلم ببعض المعاني الجليلة التي وردت في القرآن، مما يدل على قدم راسخة فيه، حتى أننا قد لا نجد من العلماء المتخصصين في التصوف من ينبه على المعاني الدقيقة والعميقة التي يشير إليها.

يقول: «ثم التصوف عندهم له حقائق وأحوال معروفة، قد تكلموا في حدوده، وسيرته، وأخلاقه، كقول بعضهم: الصوفي من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، واستوى عنده الذهب والحجر. التصوف كتمان المعاني، وترك الدعاوى. وأشباه ذلك».[1]

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٦)

وهذا التعريف للإمام الصوفي الكبير سهل بن عبد الله التستري، نقله عنه الكلاباذي في «التعرف لمذهب أهل التصوف».[1]

وقوله: «وأشباه ذلك»، إشارة إلى التعريفات المتعددة التي أشرنا إليها.

ونص في موضع آخر على أن الصوفي يراد به مجموعة من المعارف والأحوال والأخلاق.[2]

ويرى أن الصوفية يسيرون بالصوفي إلى معنى الصديق، وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون، كما قال الله تعالى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ ولهذا لا يوجد عند الصوفية بعد الأنبياء ـ كما يرى ـ أفضل من الصوفي، وبهذا الاعتبار يأتي في مقدمة الصوفية الخلفاء الأربعة، وفضلاء الصحابة والتابعين، حسبما ذكره الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في «حلية الأولياء»، وغيره من العلماء الذين صنفوا في طبقات الصوفية.

يقول ابن تيمية: «لكن هو في الحقيقة نوع من الصديقين، فهو الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة، على الوجه الذي اجتهدوا فيه، فكان الصديق من أهل هذه الطريق كما يقال صديقو العلماء، وصديقو الأمراء، فهو أخص من الصديق المطلق، ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم».[3]

ولما كان التصوف ـ في نظر ابن تيمية ـ هو الزهد والتعبد والانقطاع إلى الله

---

(١) «التعرف لمذهب أهل التصوف» (ص١٩)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٦، ٢٢)

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٦ ـ ١٧)

أطلق على هذه الطائفة العلية ألقاب «المتصوفة، والمتفقرة، والمتألهة». [1]

وقال: «وكان للزهاد عدة أسماء، يسمون بالشام الجوعية، ويسمون بالبصرة، الفقرية، والفكرية، ويسمون بخراسان المغاربة، ويسمون أيضاً الصوفية والفقراء». [2]

ويسميهم «النساك، والصوفية، والعباد»، و«المتنسكة»، و«المتعبدة»، «والمتزهدة» [3]

ويسميهم «أهل الإرادة، والسلوك، والتأله، والتصوف، والفقر». [4]

و «العبادة، والزهد، والإرادة، والمحبة، والتصوف». [5]

وقال: «النسبة في الصوفية إلى الصوف، لأنه غالب لباس الزهاد». [6]

هذا المعنى الذي تحدث عنه يتطابق مع كل ما قرره علماء الصوفية في حديثهم المنتشر عن تعريف الصوفي أو التصوف.

وقد رأيت أنه يستمد معارفه هنا من أئمة الصوفية، باعتبارهم أهل هذا الفن الذي يتحدث عنه، كما يستمد معارفه في الفقه والحديث والتفسير من أهلها.

فمعنى التصوف عند ابن تيمية هو معناه عند سائر علماء الصوفية، كما ستره في «الرسالة» للقشيري، و«التعرف» للكلاباذي، وغيرهما.

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٩٨)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٦٨ ٣٦٨)

(٣) مجموع الفتاوى» (٨/ ٥٩)

(٤) انظر «مجموع الفتاوى» (٨/ ٩٨، ٣٦٩)

(٥) «النبوات» (١/ ٣٣٥)

(٦) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٦٩)

قال أبو إسماعيل الهروي: «اجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم أن التصوف هو الخُلُق، وجماع الكلام فيه يدور على قطب واحد، وهو بذل المعروف، وكف الأذى». [1]

وقال الإمام العارف أبو الحسن الشاذلي: «التصوف تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية». [2]

وسئل الجنيد عن التصوف، فقال: «العلو إلى كل خلق شريف، والعدول عن كل خلق دنيء». [3]

وسئل مرة عن التصوف، فقال: «تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع الرسول ﷺ في الشريعة». [4]

وسئل أيضاً عن التصوف فقال: «اسم جامع لعشرة معاني: التقلل من كل شيء من الدنيا عن التكاثر فيها، والثاني: اعتماد القلب على الله عز وجل من السكون إلى الأسباب، والثالث: الرغبة في الطاعات من التطوع في وجود العوافي، والرابع: الصبر عن فقد الدنيا عن الخروج إلى المسألة والشكوى، والخامس: التمييز في الأخذ عند وجود الشيء، والسادس: الشغل بالله عز وجل عن سائر الأشغال، والسابع: الذكر الخفي عن جميع الأذكار، والثامن: تحقيق الإخلاص في دخول

---

(١) «منازل السائرين» (ص٥٩)

(٢) «الطبقات الكبرى»(٢/ ٨)

(٣) «طبقات الصوفية»(ص٣٢٨)

(٤) «التعرف لمذهب أهل التصوف» (ص١٩)

الوسوسة، والتاسع: اليقين في دخول الشك، والعاشر: السكون إلى الله عز وجل من الاضطراب والوحشة، فإذا استجمع هذه الخصال استحق بها الاسم وإلا فهو كاذب». [1]

وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي: «التصوف عبارة عن تجرد القلب لله تعالى واستحقار ما سوى الله». [2]

يعني احتقاره بالنسبة إلى عظمة الله، كما نبَّه عليه شيخ الإسلام زكريا الأنصاري. [3]

قال الإمام أحمد زروق: «وقد حد التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ الألفين، مرجعها كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى».

وتابع قائلا: «الاختلاف في الحقيقة الواحدة إن كثر دل على بعد إدراك جملتها، ثم هو إن رجع لأصل واحد يتضمن جملة ما قيل فيها، كانت العبارة عنه بحسب ما فهم منه، وجملة الأقوال واقعة على تفاصيله، واعتبار كل واحد له على حسب مثاله منه، علماً، أو عملاً، أو حالاً، أو ذوقاً، أو غير ذلك، والاختلاف في التصوف من ذلك، فمن ثم ألحق الحافظ أبو نعيم رحمه الله بغالب أهل حليته عند تحليته كل شخص قولاً من أقوالهم يناسب حاله، قائلاً: وقيل التصوف كذا، فأشعر أن من له نصيب من صدق التوجه له نصيب من التصوف، وأن تصوف كل أحد صدق توجهه، فافهم». [4]

---

(١) «حلية الأولياء» (١/ ٢١)

(٢) «إحياء علوم الدين»(٢/ ٢٥٠)

(٣) انظر «غاية الوصول» (ص١٧٣)

(٤) «قواعد التصوف» (ص٢١)

وتحديد التصوف كما شرحه ابن تيمية وغيره من علماء الشريعة له أهمية بالغة، فإن الكثير من خصوم التصوف لا يفهمون من التصوف سوى الخرافة والبدع، لا سيما بدع القبور والموتى.

وهذا تصور خاطئ، باتفاق العلماء.

بل التصوف كما يشرحه ابن تيمية ـ وسائر العلماء ـ هو علم أو سلوك يهدف إلى تزكية النفس، وتجريد القلب من سوى الله، ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة بعضها إلى بعض، باعتبار أنه علم من علوم الشريعة.

ولا أساس لأي توهم يقول إن التصوف يعني الطواف حول القبور وصرف العبادة لها، مما جعل الكثير من الغالطين لا يتورعون عن وصف الصوفية بالشرك المخرج من الملة.

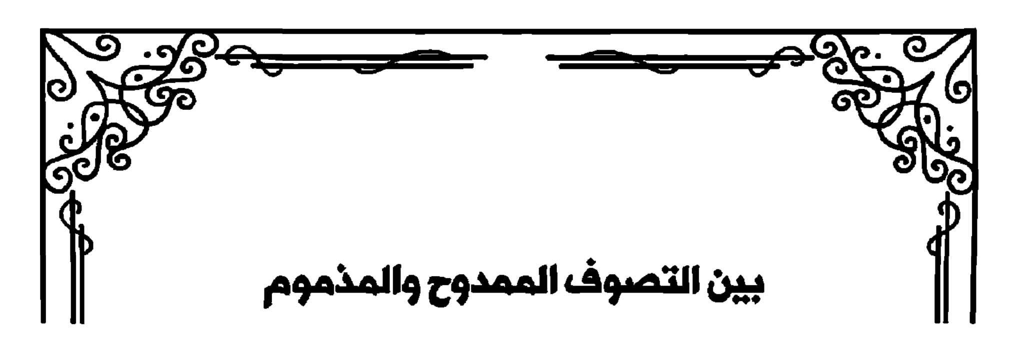
وبعضهم حمله الشيطان إلى اعتبار التصوف ديناً آخر لا علاقة له بالإسلام.

وهي طامة فكرية وسقوط في الفهم.

فبينما يعتبر هؤلاء التصوف شركاً ووثنية يؤكد ابن تيمية ـ وهم يزعمون أنهم على طريقته ـ أن التصوف طوق النجاة في الآخرة، والحادي الذي يسوق السالكين إلى المقامات العلية وإلى السعادة الأبدية.

وسيأتي المزيد، والمزيد، فترقب.

* * *



بين التصوف الممدوح والمذموم

لربما يمعن متعصب في العناد فيقول: إن التصوف قد يطلق على الزهد والاجتهاد في العبادة ومراقبة القلب، وهو تصوف السلف، وهذا هو الذي امتدحه ابن تيمية، ونوه بمكانته وقيمته، أما تصوف القبورية والبدع والتعلق بالأموات، وهو تصوف الخلف، فقد كان ابن تيمية من أشد خصومه، إن لم يكن أشدهم.

وقد لجأ البعض إلى هذا التفصيل عندما فوجئ ببعض نصوص ابن تيمية وغيره التي تشيد بالتصوف وتعده من أجل العلوم.

وجوابه من عدة أوجه:

الوجه الأول: أن هذا التفصيل محدث، ليس من العلم في شيء، ولم يقل به أحد من علماء المسلمين المعتبرين، ولم يطلق أحد من العلماء اسم التصوف على شيء من البدع والمحدثات.

وقد أكثر ابن تيمية من الحديث عن التصوف، ولم يسجل قلمه شيئاً من هذا التكايس البارد.

وكلامه رحمه الله عن التصوف منصب في اتجاهين:

الأول: الإشادة بالتصوف والاستشهاد بأهله والتنويه بما لهم من قيمة فكرية وروحية.

والثاني: الذب عن التصوف ورد ما أدخل فيه من الأفكار والمعتقدات الفاسدة.

الوجه الثاني: أن التصوف عند عامة العلماء معنى واحد، وليس له معنيان.

والعلماء مجمعون على أنه علم من علوم الشريعة، مثله مثل علم الكلام، والفقه، والحديث، والتفسير، وكما أنه لا يوجد فقه محمود وفقه مذموم، أو فقه خلف وفقه سلف، فكذلك لا يوجد تصوف محمود وتصوف مذموم.

الوجه الثالث: حيث أحسنًا الظن فإن سبب التفصيل المذكور هو فشو البدع في كثير من الناس المنتسبين إلى التصوف، وربما وجدت بعض الطرق الصوفية الموغلة في البدع.

لكن هذا الواقع لا يعطي قيمة لهذا التفصيل الميت، والتصوف بريء من تلك البدع ومن أربابها، وإن انتسبوا إليه، كما رأيت في كلام ابن تيمية سابقاً، وكما سيأتي التأكيد عليه لاحقاً.

ولو كان هذا النوع من البحث موضوعياً لاطرد في سائر العلوم، فالفقه انتسب إليه كثير من المتفقهة الذين فرَّعوا كثيراً من الفروع التي لا قيمة لها لدى الفقهاء، واستحسنوا كثيراً من البدع والمحدثات، فهل يسري هذا التفصيل في الفقه كما سرى في التصوف.؟!

لا شك أنه يلزمهم ذلك.

لكن إخواننا هؤلاء كالوا بمكيالين، وتعاملوا في الموضعين المتماثلين بانتقائية لا مبرر لها إلا اتباع الهوى.

الوجه الرابع: أن هذا التفصيل ليس قناعة علمية لدى هؤلاء، ولكنه مجرد

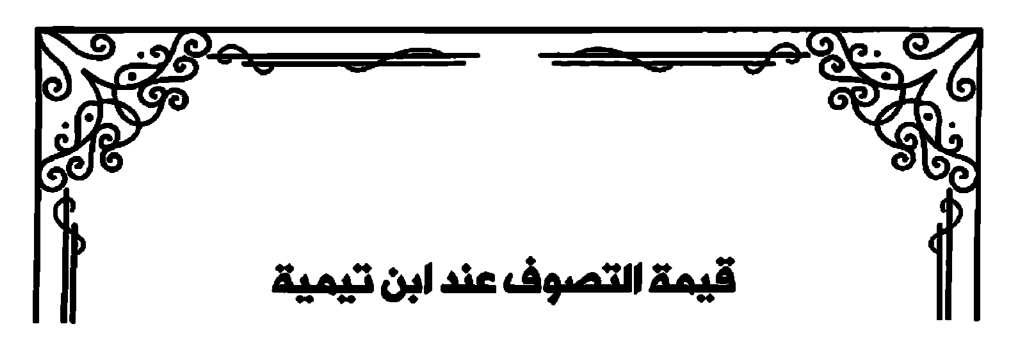
جواب يدفعون به الإحراج حين يواجَهون بنصوص الأئمة التي تبالغ في الثناء على الصوفية والتصوف.

ولو كان تأصيلاً علمياً لما قاموا بذم الصوفية على الإطلاق، لأن الشيء الذي ينقسم إلى قبيح وحسن لا يجوز ذمه بالإطلاق، بل يجب استصحاب التفصيل فيه على الدوام، سواء عند المدح أو الذم.

والواقع أن هؤلاء لا يذكرون التصوف إلا بالذم والتضليل والوصف بالشرك والوثنية والخرافة، بل تجرأ بعض كبرائهم فعده ديناً وثنياً لا علاقة له بالإسلام.

فإذا قوبلوا بنصوص الأئمة التي تمتدح الصوفية وتشيد بهم حاصوا حيصة حُمُر الوحش وتعللوا بهذا التفصيل، ولو كان الحق غايتهم لاستصحبوه في كل موضع يتحدثون فيه عن الصوفية والتصوف.

* * *



قيمة التصوف عند ابن تيمية

تتجلى قيمة التصوف عند ابن تيمية من خلال تعريفه له كما تقدم، وتأكيده بأنه يعني الاجتهاد في العبادة والانقطاع إلى الله والزهد في الدنيا والاجتهاد في طريق الوصول إلى الله حتى يصل به السالك إلى مرتبة الصديقية، كما رأيت في كلامه.

وهذا يعني أن منزلة التصوف عنده هي منزلة الزهد والمراقبة، ومنزلة العبودية عموماً.

ولا غرو بعد هذا أن ينص على أن التصوف هو طريق النجاة في الآخرة والسعادة في الحياة الدنيا.

ومما قاله رحمه الله: «فمن سلك مسلك الجنيد من أهل التصوف والمعرفة كان قد اهتدى، ونجا، وسعد».[1]

والعلم الذي تحصل به السعادة والنجاة لا يمكن أن يفضله علم أو سلوك أو فلسفة.

وهذا النص وحده يعني أن التصوف في ـ رأي ابن تيمية ـ علم النجاة، ويعني أنه أعظم وأجل من الفقه وسائر علوم الشريعة، وإن كانت مكملة وخادمة لهذا العلم الشريف.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٥٥)

وهذه القضية التي نص عليها ابن تيمية هي نتيجة حتمية لكل من يريد بعلومه النجاة والفوز برضا الرب، إنها النتيجة التي أدركها الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي بعد خوضه بحار الفقه وعلومه والفلسفة والكلام، فلم يجدها سبيلاً يسلك به إلى غاية كل المريدين والسالكين.

يحكي هذا عن نفسه، فيقول: «ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله». [1]

ويقول: «علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى، خاصة وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يُستضاء به». [2]

ويواصل قائلاً: «وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريقة، طهارتها ـ وهي أول شروطها ـ تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة، استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله؟!». [3]

---

(١) «المنقذ من الضلال»(ص١٧٠)

(٢) «المنقذ من الضلال»(ص١٧٧ ـ ١٧٨)

(٣) «المنقذ من الضلال»(ص١٧٧ ـ ١٧٨)

إنها العين نفسها التي يستقي منها ابن تيمية، وهي المشكاة التي يستضيء بها الرجلان، فكلاهما أيقن أن العلوم كلها لا تفي بالنجاة، وأن التصوف هو العلم الوحيد الذي وضعه الله لهذه المهمة.

وبهذا يكون التصوف علماً جامعاً لكل الفضائل التي يصل بها السالك إلى الفوز الكبير والغاية التي لا غاية بعدها.

يشير إلى هذا ابن تيمية فيقول: «والمقصود هنا الفرق بين ما هو مشروع، سواء كان واجباً أو مستحباً، وما ليس بمشروع، فالمشروع هو الذي يتقرب به إلى الله تعالى، وهو سبيل الله، وهو البر، والطاعة، والحسنات، والخير، والمعروف، وهو طريق السالكين، ومنهاج القاصدين، والعابدين، وهو الذي يسلكه كل من أراد الله هدايته، وسلك طريق الزهد، والعبادة، وما يسمى بالفقر والتصوف، ونحو ذلك».(١)

ولو لم يكن لابن تيمية إلا هذا النص لكان كافياً في بيان منزلة التصوف عنده، وهو نص يفند جميع الدعاوى التي تقول إن ابن تيمية عاش ومات وهو خصم للصوفية والتصوف.

هذا إذا كان نصاً واحداً، فكيف وبين أيدينا عشرات النصوص ـ وربما مئات ـ التي ينوه فيها بالصوفية والتصوف باعتباره علماً من العلوم الشرعية وجزءاً من الثقافة الإسلامية الأصيلة.

ومما قاله: «العبادة والتأله والمحبة ونحو ذلك مما يتكلم فيه شيوخ المعرفة والتصوف أمر معظم في القلوب، والرسل إنما بعثوا بدعاء الخلق إلى

---

(١) مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٩٠ ـ ٣٩١)

أن يعرفوا الله، ويكون أحب إليهم من كل ما سواه، فيعبدوه ويألهوه، ولا يكون لهم معبود مألوه غيره». [1]

وفي أحد ردوده على الغزالي أشار ابن تيمية إلى أن جحد علم التصوف تهمة أو جناية، وعد الاعتداد به اعترافاً بسموه، لكونه في الحقيقة مبدأ دين الرسل.

يقول: «وقد اعترف الغزالي بأن طريق الصوفية هو الغاية، لأنهم يطهرون قلوبهم مما سوى الله، ويملئونها بذكر الله، وهذا مبدأ دعوة الرسول». [2]

وهذا أمر مقرر في عشرات النصوص التي يعيد ويكرر فيها هذا المعني، وهو أن التصوف روح الدين، وطريق الفوز والنجاة.

ولهذا يرى أن الصوفي بتصوفه قد يصل إلى مرتبة أولياء الله الصالحين.

يقول: «وأولياء الله هم المؤمنون المتقون، سواء سمي أحدهم فقيراً، أو صوفياً، أو فقيهاً، أو عالماً، أو تاجراً، أو جندياً، أو صانعاً، أو أميراً، أو حاكماً، أو غير ذلك». [3]

إلى أن يصل ابن تيمية إلى التأكيد على ضرورة تلقي التربية الصوفية والسلوك على يد شيخ من شيوخ التصوف، أو طريقة من الطرق المعروفة، فيقول رحمه الله: «وأما انتساب الطائفة إلى شيخ معين فلا ريب أن الناس يحتاجون من يتلقون عنه الإيمان والقرآن، كما تلقى الصحابة ذلك عن النبي ﷺ، وتلقاه عنهم التابعون،

---

(١) «النبوات» (١/ ٢٨٤)

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٤)

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٢)

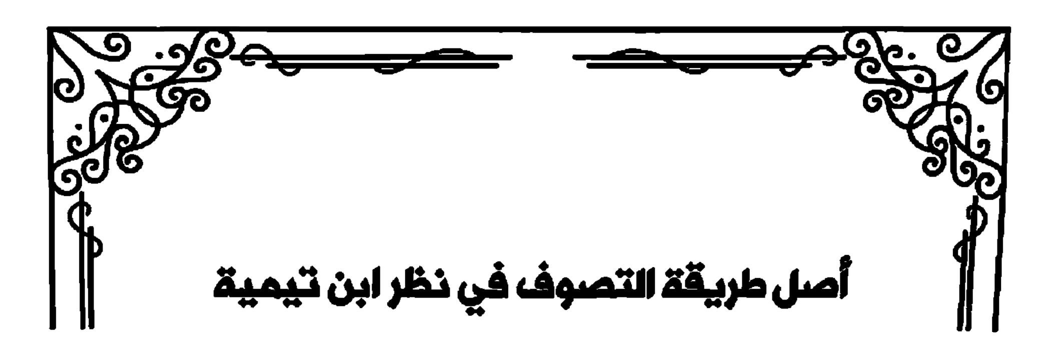
وبذلك يحصل اتباع السابقين الأولين بإحسان، فكما أن المرء له من يعلمه القرآن ونحوه، فكذلك له من يعلمه الدين الباطن والظاهر». [1]

والدين الباطن هو التصوف.

وتتجلى قيمة التصوف عنده في تعظيمه وتبجيله لأئمة التصوف، واعتداده بأقوالهم، وتعزيزه لآرائه بآرائهم، ودفاعه المستميت عنهم، وتبرأتهم من الأقوال والمعتقدات المشينة التي نقلت عنهم، وسأبسط الكلام في هذا لاحقاً.

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٥١١ ـ ٥١٢)



أصل طريقة التصوف في نظر ابن تيمية

لا شك أن شرف العلم يُعرف من أصله الذي بني عليه، وبحسبه تكون قيمته ومنزلته بين العلوم والمعارف.

وقد شهد ابن تيمية بأن أصل التصوف الذي بُنبي عليه هو أشرف مقامات القلوب وأصلها وأساسها، وهو المحبة.

يقول: «أما الصوفية فهم يثبتون المحبة، بل هذا أظهر عندهم من جميع الأمور، وأصل طريقتهم إنما هي الإرادة والمحبة، وإثبات محبة الله مشهور في كلام أوليهم وآخريهم، كما هو ثابت بالكتاب والسنة واتفاق السلف».[1]

وفي تعليقه على كلمة نقلها القشيري عن الجنيد، يقول: «وذكر (يعني الجنيد) أصلين: التصديق، والانقياد، لأن الإيمان قول وعمل، فذكر معرفة الصانع، وذكر الذل لدعوته، والاعتراف بوجوب طاعته».

ثم قال: «وهذا من أصول أهل السنة وأئمة المشايخ، خصوصاً مشايخ الصوفية، فإن أصل طريقهم الإرادة التي هي أساس العمل، فهم في الإرادات والعبادات والأعمال والأخلاق أعظم رسوخاً منهم في المقالات والعلوم، وهم بذلك أعظم اهتماماً وأكثر

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٥٧)

عناية، بل من لم يدخل في ذلك لم يكن من أهل الطريق بحال، وهذا حق».[1]

ويا لها من شهادة فاخرة، لم يمنحها ابن تيمية الفقهاء ولا المحدثين، ولا غيرهم من أرباب علوم الشريعة، لكنه منحها للصوفية والتصوف، وأناشدك أيها القارئ بإعادة قراءتها مراراً.

إن منزلة المحبة التي بنى عليها الصوفيون طريقهم لا تضاهيها منزلة، فهي أساس العمل ومحركه الأقوى.

يقول ابن تيمية: «محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة، المحبة، والخوف، والرجاء، وأقواها المحبة».[2]

وقال: «محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأجل قواعده، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، كما أن التصديق به أصل كل قول من أقوال الإيمان والدين، فإن كل حركة في الوجود إنما تصدر عن محبة، فجميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة».[3]

وقد تحدث في موضع آخر عن أصل التصوف، وحاول تصحيح المفاهيم المغلوطة، فأكد أن أصل التصوف هو الاجتهاد في طاعة الله، ثم تطورت الصوفية ـ كما هو شأن سائر أرباب العلوم ـ فقال بعد أن ذكر أصل التصوف المشار إليه: «فهذا أصل التصوف، ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع وصارت الصوفية ثلاثة أصناف: صوفية الحقائق، وصوفية الأرزاق، وصوفية الرسم».[4]

---

(١) «الاستقامة» (ص٨٤)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٩٥)

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٨ ـ ٤٩)

(٤) «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٩)

وسنعود لهذه الجزئية فيما بعد.

وفي هذا كله رد مباشر على الواهمين الذين يتخيلون أن أصل التصوف هو البدع أو الخرافة أو الشرك، وهو تصور خاطئ، وظن من أسوأ الظنون.

وقد أتى ابن تيمية على هذا الظن من أصله واجتثه من جذوره، وفي كلامه غنى وكفاية لمن عقل، ووعى، وابتغى طلب الحق والحقيقة، ولم يعمه الجهل، والهوى، والتعصب.

فأين ما يقرره هذا الإمام من المتشنجين الذين يدعون أن التصوف دين مقتبس من اليهودية أو البوذية أو البرهمية، ويعددون ما شئت من الأديان والأفكار، علهم أن يشفوا صدروهم التي أوغرها الشيطان على هذه الصفوة الصافية الطاهرة.[1]

ومع أن هؤلاء يعتبرون ابن تيمية إماماً لا يرد له مقال إلا أنهم يتجاهلون كلامه هذا، لأنه ينسف ما يشيعونه من أساسه.

فابن تيمية يرى أن أصل التصوف المحبة وتصحيح الإرادة والزهد والافتقار إلى الله والاجتهاد في طاعة الله، وهؤلاء يقولون إن أصل التصوف النصرانية واليهودية وكل لفيف من الأديان الوضعية المغرقة في الخرافة والوثنية.

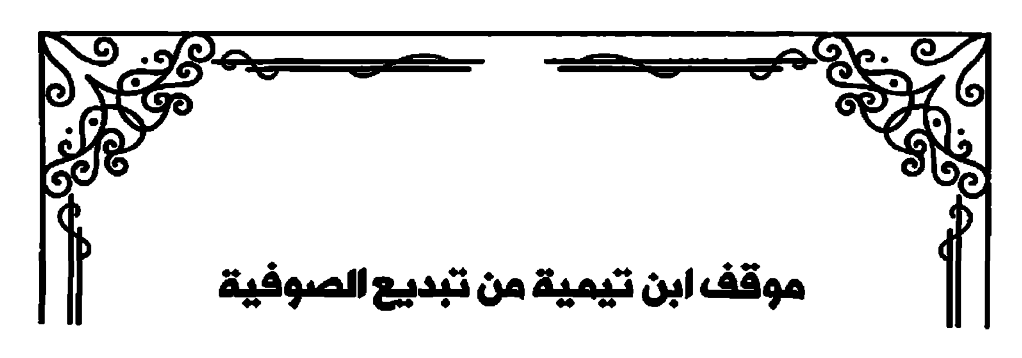
فمن أولى بابن تيمية؟

أهم الصوفية الذين يثني على طريقتهم ويمجدها ويرفض تبديعها؟

أم هؤلاء الذين يصادمون كلامه الواضح الصريح مصادمة صارخة.؟!

***

(١) انظر ـ على سبيل المثال ـ «التصوف ـ المنشأ والمصادر» إحسان ظهير (ص ٥٠)



موقف ابن تيمية من تبديع الصوفية

يرفض ابن تيمية بكل حزم رأي من ذهب إلى تبديع الصوفية، ويرى أن هذا الحكم جائر غير صحيح، فهم طائفة توجهت إلى القلوب والأعمال لإصلاحها ـ كما يرى ـ واجتهدت في تنقية القلب مما يشوش عليه حسن عبادته وتوجهه لخالقه.

وقد حكى رحمه الله في الصوفية قولين:

الأول: قول من ذهب إلى ذمهم وتبديعهم.

وهذا القول له أسبابه وملابساته، كما شرحته في كتابي «الصوفية وموقف العلماء منها وحقيقة التهم الموجهة لها».

والقول الثاني: قول من غالوا فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء.

ثم قال: «وكلا طرفي هذه الأمور ذميم، والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله».[1]

وهذا يعني أن ابن تيمية يرى أن التصوف والبدع نقيضان لا يجتمعان، وأن من تلبس بالبدع ابتعد عن التصوف بقدر بدعته، وأن ما يُنسب إلى التصوف من البدع لا

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٨)

علاقة له به، بل نسبة البدع ـ كل البدع ـ إلى التصوف كنسبتها إلى الفقه والحديث والتفسير وسائر علوم الشريعة.

فالتصوف طاعة، بل هو أسمى طرق الوصول إلى الطاعة، ولا يمكن أن تلتقي البدعة بالطاعة، فضلاً عن أن تكون جزءاً منها.

ولهذا أجمع علماء الصوفية على إنكار البدع والتحذير منها، سواء صدرت من أربابها كالشيعة والخوارج والمعتزلة وغيرهم، أو صدرت من بعض المنتسبين إلى التصوف ممن لم يأنس بشيء من العلم والتحقيق.

وقد عقد الإمام الشاطبي في «الاعتصام» فصلاً طويلاً لبيان موقف الصوفية من البدع، ووصف رحمه الله الذين يظنون أن الصوفية متساهلون في البدع بـ «الجهال». [1]

وقد أشار ابن تيمية إلى جهود أئمة الصوفية في ردودهم على المعتزلة والمرجئة والشيعة والكرامية وغيرهم. [2]

وكتب الصوفية مليئة بالتحذير من شؤم البدع، ولم يتوانَ علماء الصوفية في الأخذ على أيدي جهلة الصوفية الذين كادوا أن يكدروا صفاء التصوف. [3]

وهؤلاء في الحقيقة ليسوا من الصوفية، ولا يجوز أن يحسبوا على هذه الطائفة الجليلة.

---

(١) انظر «الاعتصام» (١/ ١١٩)

(٢) انظر «الفتاوى الكبرى» (٦/ ٤٣٤)

(٣) للأهمية، راجع كتابي «الصوفية وموقف العلماء منها وحقيقة التهم الموجهة لها»

وهو ما قرره ابن تيمية رحمه الله، فيقول ـ بعد كلامه السابق ـ: «ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب، أو لا يتوب، ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه، وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم». [(١)]

وسيأتي المزيد حول هذه القضية، فقد أعاد ابن تيمية الحديث عنها في مواضع كثيرة.

لقد كان التصوف أحد أهم أركان فكر ابن تيمية، حيث استند إلى أقوال أربابه لرد كثير من البدع المعضلة، وتسلح بأقوالهم لنسف ما شيده أرباب البدع والخرافة.

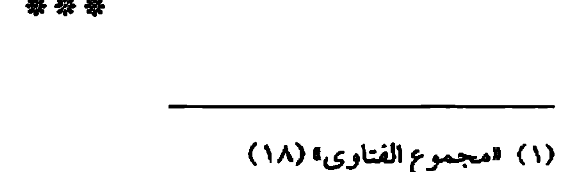
فلم يقف ابن تيمية عند رفضه لتبديع هذه الطائفة العلية، بل كانت أقوالهم عدته التي استقوى بها على أهل كل باطل وبدعة.

وسيمر بك المزيد فيما يتعلق بهذه القضية.

تنبيه مهم

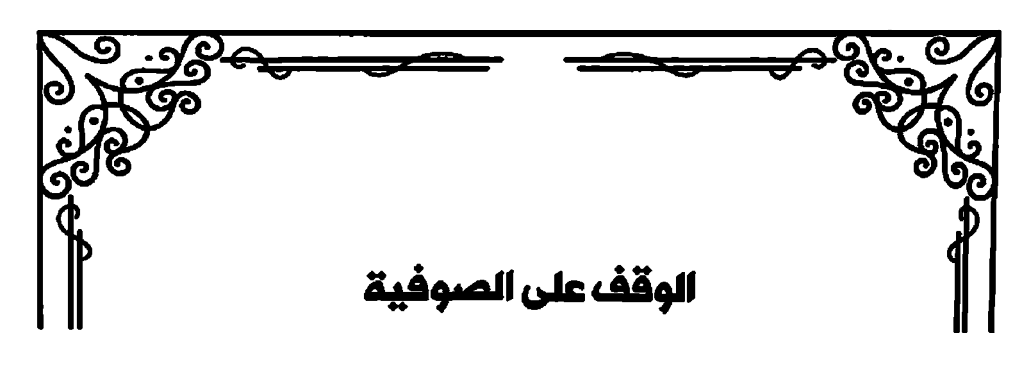
ولا بد من التنبيه على أن الذين بدعوا الصوفية ـ حسبما أشار إليه ابن تيمية في كلامه السابق ـ إنما كان هذا موقفهم عند بدء ظهور التصوف كعلم له إشاراته ورموزه ومصطلحاته، ثم أجمع العلماء بعد ذلك على مدحه وتلقيه بالقبول، كما سأشرحه بالتفصيل.

* * *



---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٨)



الوقف على الصوفية

لما كان التصوف عبارة عن الأحوال والمقامات والمجاهدات التي أشار إليها ابن تيمية اتجهت عناية المسلمين في جميع الأعصار لخدمة هذه الطائفة، وأعفوها عن مشاغل الحياة، كي تتفرغ لمناجاة الخالق وعبادته، فقد كانت المجتمعات الإسلامية ترى أن تفرغ الصوفية الفقراء لأداء أعمالهم وآدابهم ومجاهداتهم من أعظم الأسباب التي تنال بها المجتمعات الأمن والاستقرار، ونزول الخير، ودفع الشر، انطلاقاً من قوله ﷺ: «ابغوني الضعفاء، فإنما تنصرون وترزقون، بضعفائكم».[1]

وقد قيل:

لولا الذينَ لهمْ وِرْدٌ يقومونا	وآخرونَ لهمْ سِرْدٌ يصومونا
لَدُكْدِكَتْ أرضُكُمْ مِنْ تحتِكمْ سَحَرَاً	لأنَّكمْ قومُ سوءٍ لا تُطِيعونا

وقد كان الإمام القائد السلطان محمود زنكي رحمه الله يرى أن التصوف والصوفية من أهم عوامل القوة والنصر للدولة الإسلامية، وقد رأى بعض أصحابه أن الأموال الطائلة التي أنفقها على الصوفية كان الأولى الاستعانة بها في حربه ضد

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢٥٩٤)، وقال النووي في «رياض الصالحين» (ص١٠٩): «رواه أبو داود بإسناد جيد».

الصليبيين وصارحه بهذا، فغضب غضباً شديداً، وقال: «والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطئ وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا بسهام قد تخطئ وقد تصيب». [1]

فسارع المسلمون بمختلف شرائحهم علماء وحكاماً وتجاراً لبناء الأربطة والزوايا الصوفية، وتنافسوا فيها تنافساً غير مسبوق.

فانتشرت دور الصوفية في المدن الإسلامية بطريقة ليس لها نظير في التاريخ الإنساني، فلا تكاد تجد مدينة أو حاضرة خالية من الزوايا.

ووقفوا عليها الكثير من الوقوف والأحباس.

وكانت هذه الأوقاف من أجل الأعمال التي يحمدها العلماء، ولم يؤثر عن عالم النهي عنها، أو عدها من التعاون على نشر البدع والدروشة والبطالة، كما يتبجح به اليوم بعض من يدعي الغيرة على السنة.

ذهبت المذاهب الفقهية إلى استحباب وقف الأوقاف على الصوفية، ولو كانت الصوفية في نظرهم طائفة زائغة لأغلقوا دونها الباب وصرخوا بأعلى صوت بعدم جواز الوقف عليها.

ففي مذهب الحنفية ذهب شمس الأئمة السرخسي إلى جواز وقف الأوقاف عليهم، ونقله عنه كثير من فقهاء المذهب. [2]

---

(١) انظر «وفيات الأعيان» (٥/ ١٨٨)

(٢) انظر «البحر الرائق» (٥/ ٢١٥)

والوقف على الصوفية هو الصحيح المعروف في مذهب أصحابنا الشافعية، وقد كان بعض فقهائنا امتنع من تصحيح الوقف عليهم، بحجة أن التصوف ليس له حد يُعرف به، وقد رد عليه إمام المذهب الشيخ محي الدين النووي، فقال: «والصحيح المعروف صحته، وهم المشتغلون بالعبادة في أغلب الأوقات، المعرضون عن الدنيا». [1]

وهو المذهب عند الحنابلة، ففي «شرح منتهى الإرادات»: «ويصح الوقف على الصوفية وهم المشتغلون بالعبادات في غالب الأوقات المعرضون عن الدنيا، لأنه جهة بر». [2]

كان ابن تيمية أحد أولئك الفقهاء الذين حمدوا هذه السيرة والعادة المتبعة لدى المسلمين، ولم يشذ عنهم كما شذ الذين يدعون أنهم على منهجه من أهل عصرنا.

فقد شدد على وجوب العمل بهذه الأوقاف وأدائها إلى الصوفية، وعدم جواز مخالفة شروط أصحابها.

ونص على أن الصوفي الذي يدخل في الوقف على الصوفية يعتبر فيه ثلاثة شروط:

أحدها: أن يكون عدلاً في دينه، يؤدي الفرائض، ويجتنب المحارم.

الثاني: أن يكون ملازماً لغالب الآداب الشرعية في غالب الأوقات، وإن لم تكن واجبة، مثل آداب الأكل، والشرب، واللباس، والنوم، والسفر، والركوب،

---

(١) «روضة الطالبين» (٥/ ٣٢١)

(٢) «شرح منتهى الإرادات» (٢/ ٤٠٢)

والصحبة، والعشرة، والمعاملة، مع الخلق، إلى غير ذلك من الآداب الشريفة، قولاً وفعلاً.

والشرط الثالث: قناعته بالكفاف من الرزق، بحيث لا يمسك من الدنيا ما يفضل عن حاجته، فمن كان جامعاً لفضول المال لم يكن من الصوفية الذين يقصد إجراء الأرزاق عليهم، وإن كان قد يفسح لهم في مجرد السكنى في الربط ونحوها.

ثم قال: «فمن حمل هذه الخصال الثلاث كان من الصوفية المقصودين بالربط والوقف عليها، وما فوق هؤلاء من أرباب المقامات العلية، والأحوال الزكية، وذوي الحقائق الدينية، والمنح الربانية، فيدخلون في العموم، لكن لا يختص الوقف بهم لقلة هؤلاء». [١]

ثم لفت النظر إلى أن مقام الصوفية لا يستحقه كل مدعٍ، بل لا يصل إليه إلا أرباب المجاهدات الصادقين، أما الذين يحاكونهم في ثيابهم أو رسومهم، أو اتخذوا بعض الطقوس التي يظنونها سمة بارزة للمتصوفة، فهم ليسوا من الصوفية، وإن ادعوا ذلك.

يقول رحمه الله: «وما دون هذه الصفات من المقتصرين على مجرد رسم في لبسة أو مشية ونحو ذلك لا يستحقون الوقف، ولا يدخلون في مسمى الصوفية». [٢]

ثم نبَّه على أن الأولوية في الأوقاف تتدرج بحسب ترقي المتصوفة في الاجتهاد في نوافل العبادات وتصحيح أحوال القلب.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٥٤ ـ ٥٥)

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٥٥)

وهذا يعني أن التصوف عنده ـ كما هو ظاهر جداً ـ إنما هو مجاهدة للنفس على إصلاح الجوارح والضمير.

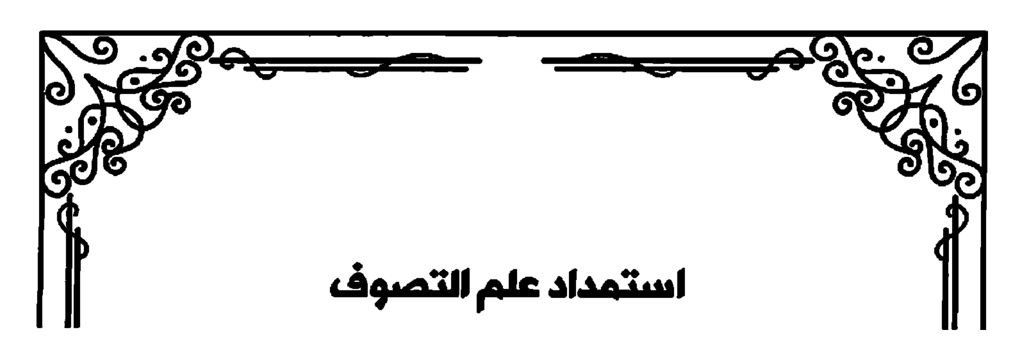
يقول: «ومن كان من الصوفية المذكورين المستحقين فيه قدر زائد مثل اجتهاد في نوافل العبادات، أو سعي في تصحيح أحوال القلب، أو طلب شيء من الأعيان، أو علم الكفاية فهو أولى من غيره». [1]

قلت: قف هنا واسأل نفسك، هل هذا حديث خصم للصوفية، أم هو حديث عالم يدرك جلالة وعظمة وقدر التصوف والصوفية.؟

* * *

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٥٦)



استمداد علم التصوف

يرى ابن تيمية - كسائر علماء الإسلام - أن التصوف علم شرعي، مصدره الكتاب والسنة، وهما شرطا قبوله، وبهما توزن جميع أعمال وخواطر وأحوال ومقامات السادة الصوفية.

عندما ظهر التصوف كعلم مؤصل ومقنن وبدأ بالتشكل والتبلور، رأى ابن تيمية أن الميزان لقبوله أو رده هو الشرع، ولم يقف عند لقبه، بل اعتبره مصطلحاً كغيره من المصطلحات العلمية، ولا مشاحة في الاصطلاح.

فوضع علم التصوف تحت مجهر البحث والتحقيق، كما فعل في «علم الكلام»، و«الرأي»، وغيرهما، فما وافق التنزيل أو لم يتصادم معه قُبل، وما خالفه وجب رده.

ذكر رحمه الله أن التصوف كعلم مكتمل ظهر بعد عصر تابع التابعين، كغيره من العلوم التي أجمع عليها الأئمة والعلماء، فيقول: «وظهر أحمد بن عطاء الهجيمي[1] الذي صحب عبد الواحد بن زيد[2]، وعبد الواحد صحب الحسن البصري ومن

---

(١) الهجيمي أحمد بن عطاء البصري، شيخ الصوفية، العابد، القانت. «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٤٠٨)

(٢) عبد الواحد بن زيد أبو عبيدة البصري، الزاهد، القدوة، شيخ العباد، أبو عبيدة البصري. قال البخاري: «تركوه». «سير أعلام النبلاء»(٧/ ١٧٨)

اتبعه من المتصوفة، وبنى دويرة للصوفية، هي أول ما بني في الإسلام، وكان عبد الرحمن بن مهدي وغيره يسمونهم الفقرية، وكانوا يجتمعون في دويرة لهم».

وذكر أنهم كانوا يسمون أنفسهم «أهل التوحيد والتجريد». [1]

وقال بعد استعراض طويل لنشوء التصوف والكلام والرأي: «فمن بنى الكلام في العلم الأصول والفروع على الكتاب والسنة والآثار المأثورة عن السابقين فقد أصاب طريق النبوة، وكذلك من بنى الإرادة والعبادة والعمل والسماع المتعلق بأصول الأعمال وفروعها من الأحوال القلبية والأعمال البدنية على الإيمان والسنة والهدي الذي كان عليه محمد ﷺ وأصحابه فقد أصاب طريق النبوة، وهذه طريق أئمة الهدى». [2]

ويعيد التأكيد على أن مدار هذا العلم الشريف على اتباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فيقول: «وأما العلم والمعرفة والتصوف فمدارها على أن يعرف ما أخبر به الرسول ويعرف أن ما أخبر به حق، إما لعلمنا بأنه لا يقول إلا حقاً، وهذا تصديق عام، وإما لعلمنا بأن ذلك الخبر حق بما أظهر الله من آيات صدقه، فإنه أنزل الكتاب والميزان، وأرى الناس آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أن القرآن حق». [3]

وما قاله ابن تيمية هو عين كلام أئمة التصوف، حيث أجمعوا على أن الكتاب والسنة هما أصل التصوف الذي يستمد منه، وأن كل حال أو خاطر يخالفهما لا قيمة له.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٥٨ ـ ٣٦٠)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٦٣)

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ١٧٣)

يقول ابن عجيبة ـ أحد أجل علماء الصوفية ـ: «وأما استمداده، فهو مستمد من الكتاب والسنة، وإلهامات الصالحين، وفتوحات العارفين».[1]

ويقـول الإمـام العـارف أحمـد زروق: «أصـول القـوم مبنيـة علـى الكتـاب والسـنة».[2]

وقال الإمام الشعراني: «طريق القوم محررة على الكتاب والسنة، كتحرير الذهب والجوهر، فيحتاج سالكها إلى ميزان شرعي في كل حركة وسكون».[3]

ويقول وهو يعدد نعم الله عليه: «ثم عدم التعصب المذهبي من غير دليل، مع اعتقادي أن سائر أئمة المسلمين على هدى من ربهم، ولكن كل من حكم الحديث لقوله فهو عندي أرجح». [4]

وكان يقول: «دوروا مع الشرع كيف كان، لا مع الكشف، فإنه قد يخطئ».[5]

في «نهاية المحتاج»: «والصوفية العاملون بالكتاب والسنة ظاهرا وباطنا».[6]

قال العلامة الخليلي الشافعي: «طريق التصوف مضبوط معلوم عند أهله طبق الكتاب والسنة، لا مخالفة لأهله في حكم من الأحكام».[7]

---

(١) «إيقاظ الهمم»(ص١٨)

(٢) «عدة المريد الصادق» (ص٤٩)

(٣) «المنن الكبرى» (ص١١)

(٤) «المنن الكبرى» (ص١٦)

(٥) «شذرات الذهب» (١٠/ ٥٤٦)

(٦) «نهاية المحتاج»(٦/ ٧٨)

(٧) «فتاوى الخليلي» (٢/ ٢٩٣)

وأما كلام أئمة الصوفية المتقدمين في هذا فهو مشهور، ومنقول عن كبارهم، كالجنيد، والداراني، والتستري، وغيرهم.

ومنه قول أبي القاسم النصراباذي شيخ الصوفية: «أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع، ورؤية أعذار الخلق، والمداومة على الأوراد، وترك الرخص». [1]

وكان أبو يزيد البسطامي يقول: «لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة». [2]

وقال لبعض أصحابه يوماً: قم بنا إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية ـ كان رجلاً مقصوداً، مشهوراً بالزهد ـ فمضيا إليه، فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقة في اتجاه القبلة، فانصرف أبو يزيد، ولم يسلم عليه، وقال: «هذا غير مأمون على أدب من آداب الرسول ﷺ، فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه». [3]

وكان الإمام العارف أبو مدين يقول: «لا يكون المريد مريداً حتى يجد في القرآن كل ما يريد». [4]

---

(١) «الرسالة القشيرية» (ص٤٣٨)، «سير أعلام النبلاء»(١٦/ ٢٦٥)، «طبقات الصوفية» (ص٣٦٥)، «طبقات الأولياء» لابن الملقن(ص٢٧)

(٢) «الرسالة القشيرية» (ص٣٩٦)، «الاعتصام» للشاطبي (١/ ١٢٦)، «تاريخ ابن الوردي» (١/ ٢٢٩)، «مدارج السالكين» (٣/ ١١٦)

(٣) الرسالة القشيرية» (ص٣٩٦)

(٤) «عدة المريد الصادق» (ص٨٧)

ولهذا عرف ابن نجيد السلمي التصوف بأنه «الصبر تحت الأمر والنهي»[1]، أي التلقي للوحي، والانطلاق منه في طريق العبودية لله.

وقال العارف أحمد الرفاعي: «سلكت كل طريق، فما رأيت أقرب ولا أسهل ولا أصلح من الذل والافتقار والانكسار لتعظيم أمر الله، والشفقة على خلق الله، والاقتداء بسنة سيدي رسول الله ﷺ». [2]

وقال الإمام العارف أبو الحسن الشاذلي: «كل علم تسبق إليك فيه الخواطر، وتميل النفس، وتلتذ به فارم به وخذ بالكتاب والسنة». [3]

ويؤكد ابن تيمية هذه الحقيقة الجلية فيقول: «كان مشايخ الصوفية العارفون أهل الاستقامة يوصون كثيراً بمتابعة العلم ومتابعة الشرع، لأن كثيراً منهم سلكوا في العبادة لله مجرد محبة النفس وإراداتها وهواها، من غير اعتصام بالعلم الذي جاء به الكتاب والسنة، فضلوا بسبب ذلك ضلالاً يشبه ضلال النصارى». [4]

وقال: «كان الشيوخ العارفون المستقيمون من مشايخ التصوف وغيرهم يأمرون أهل القلوب أرباب الزهد والعبادة والمعرفة والمكاشفة بلزوم الكتاب والسنة». [5]

ومن أجلِّ نصوصه رحمه الله في تزكيته للصوفية وشهادته لهم بشدة تمسكهم بالكتاب والسنة، قوله: «فالذين يتكلمون في الأمور الباطنة من الأعمال والعلوم

---

(١) «الرسالة القشيرية» (١/ ١٣٨)

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى» (٦/ ٢٥)

(٣) «شذرات الذهب» (٧/ ٤٨٣)

(٤) «منهاج السنة» (٥/ ٣٣١)

(٥) «الرد على المنطقيين» (ص٥١٤ ـ ٥١٥)

لكن مع قولهم إنها توافق الظاهر، ومع اتفاقهم على أن من ادعى باطناً يناقض الظاهر فهو منافق زنديق، فهؤلاء هم المشهورون بالتصوف عند الأمة، وهم فيما يتكلمون فيه من الأعمال الباطنة وعلم الباطن يستدلون على ذلك بالأدلة الشرعية من الكتاب والسنة، كما يستدلون بذلك على الأعمال الظاهرة، وذلك في علم الدين والإسلام كما للإنسان بدن وقلب، وهؤلاء من أعظم الناس إنكاراً على من يخالف الظاهر ممن فيه نوع تجهم، دع الباطنية الدهرية، وهم أشد إيماناً بما أخبر به الرسول ﷺ باطناً وظاهراً من غيرهم، وأشد تعظيماً للأعمال الظاهرة مع الباطنة من غيرهم». [١]

ويؤكد على أن علوم التصوف والأحوال والمكاشفات متى خالفت الكتاب والسنة فهي مردودة عند الصوفية أنفسهم، فيقول: «فالمشايخ الصوفية العارفون متفقون على أن ما يحصل بالزهد والعبادة والرياضة والتصفية والخلوة وغير ذلك من المعارف متى خالف الكتاب والسنة، أو خالف العقل الصريح فهو باطل، ومن زعم من المنتسبين إليهم أنهم يجدون في الكشف ما يناقض صريح العقل، أو أن أحدهم يرد عليه أمر يخالف الكتاب والسنة، بحيث يكون خارجاً عن طاعة الرسول ﷺ، وأمره، أو أنه يحصل له علم مفصل بجميع ما أخبر به الرسول ﷺ وأمر به، فهو عندهم ضال مبطل، بل زنديق منافق، لايجوّزون قط طريقاً يستغني به عن اتباع الرسول ﷺ فيما يخبر به الرسول ويأمر به، فضلاً عن أن يسوغ له مخالفة الرسول ﷺ في أمره وخبره». [٢]

* * *

---

(١) «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ١٦٩ ـ ١٧٠)

(٢) «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ١٨٦ ـ ١٨٧)

براءة الصوفية من مذاهب أهل البدع:

ولما كان أصل التصوف اتباع الكتاب والسنة، نزه ابن تيمية الصوفية عن مذاهب المنحرفين عقائدياً، فبرأهم من رأي المعتزلة في نفي الصفات.

فقد نقل عن «الرسالة القشيرية» قول أبي علي الكاتب: «المعتزلة نزهوا الله من حيث العقل فأخطأوا، والصوفية نزهوه من حيث العلم فأصابوا».

وأطال ابن تيمية في شرح هذه الكلمة، ونبَّه على أن المراد بالعلم في عرف الصوفية الشريعة عموماً، ومما قاله: «وهذا الذي ذكره الشيخ أبو علي من أن الصوفية يخالفون المعتزلة فأمر متفق عليه، فإن أصول الصوفية لا تلائم نفي الصفات، بل هم أبعد الناس عن الاعتزال في الصفات والقدر». [1]

ونحوه قوله: «المعتزلة من أبعد الناس عن طريقة أولياء الله المتقين العارفين بطريق الله علماً، السالكين فيه عملاً وحالاً وقصداً». [2]

ويضيف إلى المعتزلة الكلابية، فيقول: «وأما جمهور المسلمين من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية وطوائف النظار فلا يقولون بقول المعتزلة، ولا الكلابية». [3]

ويشهد لهذه الطائفة الكريمة بأنها على مذهب السلف الصالح لا تخالفهم، يقول: «وأما متكلمة أهل الإثبات من الكلابية والكرامية والأشعرية مع الفقهاء والصوفية وأهل الحديث فهؤلاء في الجملة لا يطعنون في السلف، بل قد يوافقونهم

---

(١) «الاستقامة» (ص٦٢)

(٢) «بيان تلبيس الجهمية» (٤/ ٦٠٥)

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٦٦)

في أكثر جمل مقالاتهم، لكن كل من كان بالحديث من هؤلاء أعلم كان بمذهب السلف أعلم وله أتبع». [1]

وينقل في أكثر من موضع عن أئمة الصوفية أنهم ردوا على الأشعرية وذموا طريقة أبي الحسن الأشعري ـ كما يقول ـ لأنه خالف السنة.

يقول: «وبهذا ذم السلف والأئمة أهل الكلام والمتكلمين الصفاتية كابن كرام، وابن كلاب والأشعري، وما تكلم فيه من تكلم من أعيان الأمة وأئمتها المقبولين فيها من جميع طوائف الفقهاء وأهل الحديث والصوفية إلا بما يقولون إنهم خالفوا فيه السنة والحديث». [2]

ويؤكد على أن أئمة الصوفية في الاعتقاد على مذهب الإمام أحمد الذي هو الكتاب والسنة، فيقول: «مازال كثير من أئمة الطوائف الفقهاء وأهل الحديث والصوفية وإن كانوا في فروع الشريعة متبعين بعض أئمة المسلمين رضي الله عنهم أجمعين، فإنهم يقولون نحن في الأصول أو في السنة على مذهب أحمد بن حنبل، لا يقولون ذلك لاختصاص أحمد بقول لم يقله الأئمة، ولا طعناً في غيره من الأئمة بمخالفة السنة، بل لأنه أظهر من السنة التي اتفقت عليها الأئمة قبله أكثر مما أظهره غيره». [3]

وكون الكتاب والسنة هما ميزان قبول أو رد كل ما نسب إلى التصوف يعني أن رد التصوف مطلقاً لمجرد كونه يحمل هذا الاسم ليس من العلم في شيء، بل هو خروج عن هدي العلماء وإعراض عن الكتاب والسنة.

والواجب هو التحاكم إلى الوحي في كل قضية حصل فيها الاختلاف مع

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/ ١٥٦)

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/ ١٤)

(٣) «بيان تلبيس الجهمية» (٣/ ٥٥٠ ـ ٥٥١)

الصوفيـة، فمـا خالف الكتاب والسـنة يجـب رده، وما لـم يخالفهمـا لا يجوز لأحد أن يلـزم غيـره برده أو البـراءة منه وممـن تبناه.

ولما كان التصوف علماً شـرعياً مستمداً من الكتاب والسـنة استحق الصوفية وإخوانهـم من الفقهاء والمفسـرين والمحدثيـن وغيرهـم ممن تحمـل علوم الكتاب والسـنة أن يكونـوا علمـاء الأمـة ومراجعهـا، وأفضـل الخلـق، وأكملهـم، وأقومهم طريقة.

هكذا يرى ابن تيمية.

فقد قسم العلوم إلى عقلي، وملي، وشرعي.

وقال: «والشرعي ما ينظر فيه أهل الكتاب والسنة، ثم هم إما قائمون بظاهر الشرع فقط، كعموم أهل الحديث والمؤمنين الذين في العلم بمنزلة العباد الظاهرين في العبادة، وإما عالمون بمعاني ذلك وعارفون به، فهم في العلوم كالعارفين من الصوفية الشرعية، فهؤلاء هم علماء أمة محمد المحضة وهم أفضل الخلق وأكملهم وأقومهم طريقة». [1]

وهذه الحقيقة هي التي جعلت ابن تيمية حريصاً على تعزيز وتأييد آرائه بأقوال الصوفية، قارناً لها بأقوال الفقهاء والمحدثين، باعتبارهم حملة العلوم الشرعية التي ينتسب إليها هذا العالم الجليل.



---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٦٣)

الرد على صاحب كتاب «موقف ابن تيمية من الصوفية»:

وبهذا تدرك مدى الخطأ الذي وقع فيه أحد شيوخ الإعلام من الدعاة في بحثه «موقف ابن تيمية من الصوفية» الذي نال به درجة الدكتوراه وهو يعدد ما أسماه «أسباب انحراف الصوفية» كما بينها ابن تيمية ـ فيما يدعي ـ، وذكر منها «الرغبة عن طريق النبي ﷺ وصحابته الكرام». [1]

ثم يستشهد بكلام ابن تيمية عن الاتحادية وجهلة الصوفية الذين يصفهم علماء الصوفية بـ «الأدعياء».

وهو جهل أو تجاهل، فإن العبرة في تقييم الطوائف والأفكار والمذاهب إنما هو بالمنهجية العامة والأصول المقررة المتبعة لدى مشايخ الفن وأرباب الطريق، لا بالشواذ الذين ينتمون إليها دون أن يحققوا أصولها وشروطها وضوابطها.

فابن تيمية حين يذم مبتدعة الصوفية والزهاد أو الاتحادية الذين تنكبوا عن طريق النبي ﷺ والسلف الصالح إنما يذم الدخلاء ولا يذم المذهب أو الفكر الذي انتموا إليه، بدليل ما تقدم من كلامه عن حرص الصوفية على اتباع الكتاب والسنة، وكل ما قدمناه تحت هذا العنوان «استمداد التصوف».

وهذا أمر ظاهر لا يحتاج إلى شرح.

ومن الظريف أن هذا الباحث ينسب إلى الصوفية مذهب الاتحادية هؤلاء[2]،

---

(١) انظر «موقف ابن تيمية من الصوفية» (١/ ٢٤٦)

(٢) انظر كتاب «موقف ابن تيمية من الصوفية» (١/ ٢٦٨)

في حين يقول في رسالته نفسها: «ومن عدل الشيخ رحمه الله وغزارة فهمه[1] لمذهب الصوفية أنه يفرق عند الحكم عليهم بين درجات الصوفية وطبقاتهم، فلا يحكم على عمومهم بكلام غلاتهم بل إنه يخرج أكثر هؤلاء من فرقة الصوفية عامة». [2]

فما بالك إذن أنت تحكم عليهم بقول غلاتهم وتنسب ذلك لابن تيمية، وهو لم يفه بشيء مما تدعي؟!

واستمراراً لهذا الأداء المؤسف يذكر سبباً آخر من أسباب انحراف الصوفية ـ حسب تعبيره ـ وهو «اعتمادهم مصادر للتلقي غير الكتاب والسنة».

يقول: «وذلك أنهم يتلقون ما تستحسنه عقولهم، أو ترتاح له نفوسهم، فيتعبدون لله تعالى». [3]

والعجيب أنه يستشهد على هذا الادعاء بقول ابن تيمية: «ولهذا كان مشايخ الصوفية العارفون أهل الاستقامة يوصون كثيراً بمتابعة العلم ومتابعة الشرع، لأن كثيراً منهم سلكوا في العبادة لله مجرد محبة النفس وإراداتها وهواها، من غير اعتصام بالعلم الذي جاء به الكتاب والسنة، فضلوا بسبب ذلك ضلالاً يشبه ضلال النصارى». [4]

فابن تيمية يؤكد أن مشايخ الصوفية يوصون بمتابعة العلم والشرع، وصاحبنا يستشهد بكلامه على أن الصوفية يعتمدون مصادر للتلقي غير الكتاب والسنة!

---

(١) هكذا قال، والفهم لا يوصف بالغزارة...!

(٢) «موقف ابن تيمية من الصوفية» (١/ ٢٥٦)

(٣) «موقف ابن تيمية من الصوفية» (١/ ٢٤٧)

(٤) «منهاج السنة» (٥/ ٣٣١)

وجل استشهاداته بكلام ابن تيمية من هذا النوع، ومع ذلك نال بهذه الرسالة درجة الدكتوراه بتقدير «ممتاز».!

وقد خصص مبحثاً مستقلاً لمصادر التلقي عند الصوفية[1] شحنه بالكذب على ابن تيمية وعلى الصوفية في آن واحد، حيث ادعى أن ابن تيمية يرى أن للصوفية مصادر تلقي غير الكتاب والسنة.

وهي دعوى تُعرف قيمتها من كلام ابن تيمية الذي سقناه هنا.

وقد أكثر ابن تيمية من التنبيه على أن الكتاب والسنة هما الأصلان اللذان يزن بهما الصوفية جميع الأعمال والخواطر، ومع ذلك لم يشر هذا الباحث إلى أن الكتاب والسنة من مصادر التلقي عند الصوفية، بل تجاهل هذا، ولو أنه فعل لربما استطاع أن يظهر نفسه بشيء من الإنصاف والموضوعية.

وهو بالطبع يتحدث في دراسته بلسان ابن تيمية، فيدعي أن أول مصادر التلقي عند الصوفية هي الأحاديث الضعيفة[2]، وهي فرية لم يتفوه بها ابن تيمية.

إن انتشار الأحاديث الضعيفة في كتب الصوفية لا يختلف عن انتشارها في كتب الفقهاء والمفسرين، بل وفي كتب الحفاظ والمحدثين، فكتب العلوم الشرعية عموماً مشحونة بالأحاديث الضعيفة.

وللعلماء ـ كل العلماء ـ مقاصد متعددة في إيراد الأحاديث الضعيفة في الفضائل، وفي الأحكام، وليس من مناهج العلماء المعتبرين الإعراض عن الحديث

---

(١) انظر «موقف ابن تيمية من الصوفية» (١/ ٣١٧)

(٢) انظر «موقف ابن تيمية من الصوفية» (١/ ٣١٩)

الضعيف، ولم يحصل هذا إلا في زمن التردي العلمي الذي ادعى فيه القاصرون التجديد والتنقيح والتحقيق.

فبعض العلماء يورد الأحاديث الضعيفة إذا كانت توافق القياس، أو النظر، أو الاستحسان، أو شيء من الأدلة المعروفة في أصول الفقه.

وبعض الأئمة يستدل بها إذا لم يكن في الباب سواها، ويقدمها على القياس وآراء الرجال، كما هي طريقة الأئمة أبي حنيفة، وأحمد، وغيرهما، حسبما شرحه ابن القيم في «إعلام الموقعين». [١]

وفي الغالب فإن العلماء لا يوردون الأحاديث الضعيفة إلا في مقام الاستشهاد أو الاستئناس، والعمدة على الأصول العامة للإسلام، أو على الأدلة الصحيحة، وإنما يتم إيراد الحديث الضعيف لوضوح دلالته، أو حسن لفظه وبلاغته، مع أن المدلول مأخوذ من نص آخر قد يكون فيه شيء من الخفاء على غير العلماء المحققين.

هذا في أبواب الأحكام، وأما فضائل الأعمال فالعلماء متفقون على جواز الاستدلال بالأحاديث الضعيفة فيها.

ومن مصادر التلقي عند الصوفية التي ادعاها صاحب «موقف ابن تيمية من الصوفية» ـ بلسان ابن تيمية ـ الإلهام[٢]، وسيأتي الحديث عنه، وستعلم أن ابن تيمية استند إلى الإلهام، وفاق فيه أئمة الصوفية وعلمائهم.

ومنها الذوق، فالصوفية لا يعتمدون على الكتاب والسنة، وإنما يعتمدون على الذوق.[٣]

---

(١) (١/ ٢٥ـ٢٦)

(٢) «موقف ابن تيمية من الصوفية» (١/ ٣١٩)

(٣) «المصدر السابق (١/ ٣٣٤)

هكذا يدعي وينسب هذا الافتراء إلى ابن تيمية، ولم يقدم على دعواه أي إثبات.

والعجيب أنه نقل من كلام ابن تيمية ما يتطابق تماماً مع كلام شيوخ الصوفية، وسوف أشير إلى شيء منه في حديثنا عن الاصطلاحات الصوفية المنتشرة في كلام ابن تيمية.

وكون بعض من ينتسب إلى الصوفية يستند إلى ما يسميه الذوق في مخالفة الشريعة فإن هذا جرم يتحمله وحده، ولا يجوز اتهام الصوفية به، لا سيما وهم يؤكدون مراراً وتكراراً على أن كل ذوق وكل خاطر وكل حال يخالف الكتاب والسنة يجب رده.

وقد نقل ابن تيمية ـ كما ذكر الباحث نفسه ـ الكثير من كلام شيوخ الصوفية الذي يشددون فيه على حتمية متابعة الكتاب والسنة، وعدم جواز الاستناد إلى حال أو خاطر أو ذوق أو كشف يخالفهما، ولكن صاحبنا ادعى أن هذا مجرد كلام لا حقيقة له في الواقع.

والواقع يقول خلاف ما ادعاه.

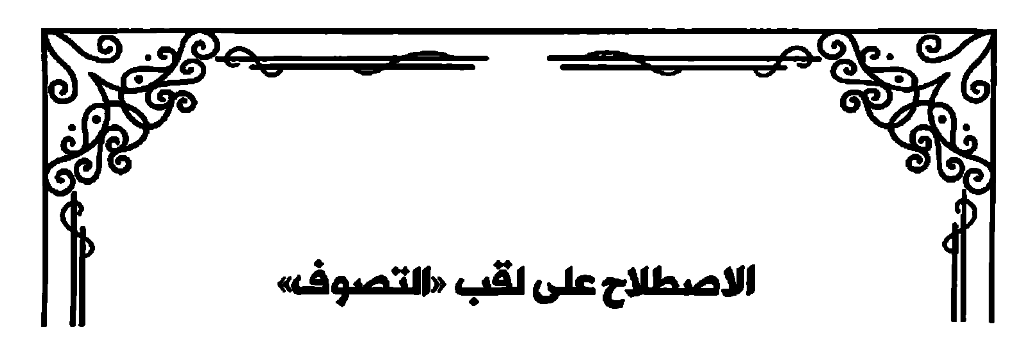
وادعى هذا الباحث أن من مصادر التلقي عند الصوفية كما يرى ابن تيمية الكشف.[1]

وستتحدث عن الكشف بشيء من التفصيل، نبين قيمته عند ابن تيمية، وستعلم أن رأي ابن تيمية فيه يتطابق مع موقف علماء الصوفية.

* * *

---

(١) انظر «موقف ابن تيمية من الصوفية» (١/ ٣٤٨)



الاصطلاح على لقب «التصوف»

لم يجعل ابن تيمية من لقب «التصوف» أو «الصوفي» مشكلة، كما يفعله من يدعون اتباع طريقته، بل رآه مجرد اصطلاح يجب النظر في المعنى الذي تضمنه، فإن كان حسناً قبلناه، وإلا رددناه، لا لكونه مصطلحاً غير معروف عند السلف، وإنما لكونه تضمن معنى غير محمود.

وقد حكى ابن تيمية أن مصطلح «الصوفي» ظهر في أثناء المائة الثانية، حين أطلقوه على الزاهد، وذلك لأن لبس الصوف كان يكثر في الزهاد.

قال: «ثم لفظ الفقرة والتصوف قد أدخل فيها أمور يحبها الله ورسوله، فتلك يؤمر بها، وإن سميت فقراً، أو تصوفاً، لأن الكتاب والسنة إذا دل على استحبابها لم يخرج عن ذلك بأن تسمى باسم آخر».

ثم أشار إلى ما أدخل في التصوف من الأعمال والتصورات المذمومة، وقال: «فهذه الأمور ينهى عنها بأي اسم سميت».

وقال: «والمؤمن الكيس يوافق كل قوم فيما وافقوا فيه الكتاب والسنة، وأطاعوا فيه الله ورسوله، ولا يوافقهم فيما خالفوا فيه الكتاب والسنة». [1]

وعندما يناقش ابن تيمية اشتقاق لقب «الصوفي» ويتطرق لاختلاف علماء

---

(١) «مجموع الفتاوى»(١١/ ٢٨، ٢٩)

الصوفية فيه، ويقارن بين أقوالهم، فيضعف ويرجح، كما فعل الكلاباذي وأبو القاسم القشيري، فهو يعني أنه معتد بهذا العلم الشريف، يناقشه كما يناقشه أربابه المختصون.

ولهذا رد قول من قال إنه نسبة إلى صفوة الفقهاء، وقول من قال إنه نسبة إلى رجل يقال له صوفة بن أد بن طابخة، وقول من قال إنه نسبة إلى أهل الصفة، وقول من قال إنه مأخوذ من الصف المقدم بين يدي الله.

وصحح أنه مشتق من لبس الصوف، لكون الزهاد كانوا معروفين بارتداء الصوف زهداً في الدنيا. [1]

إنه يناقش اشتقاق اسم هذا العلم كما يناقش اشتقاق أي لقب من ألقاب العلوم الأخرى، ثم يرجح أحد المعاني ليضع الخطوط الأولى للسير في مراحل هذا العلم الشريف.

ولو كان يرى حدوث هذه المصطلح كافياً لرده لما تجشم كل هذا العناء في البحث والمقارنة والترجيح.

وقد استعمل هذا اللقب (الصوفية) استعمالاً موازيا للقب «الفقهاء»، ولا يكاد يذكر طوائف العلم إلا ويدخل فيهم «الصوفية»، ولم يتحرج أبداً من استعماله.

وهذه المنهجية التيمية بعيدة كل البعد عن المدعين اتباع طريقته الذين يردون علم التصوف لمجرد أنه لقب لم يستعمله الصحابة ولا التابعون.

وهو نوع عجيب من النقد، فجل الألقاب والمصطلحات العلمية لم تكن معروفة عند السلف، وإنما تواضع عليها المتأخرون عند تدوين العلوم.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٩٥، ٥)

يقول: «أما لفظ الصوفية فإنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ، كالإمام أحمد بن حنبل، وأبي سليمان الداراني، وغيرهما، وقد روي عن سفيان الثوري أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري».[1]

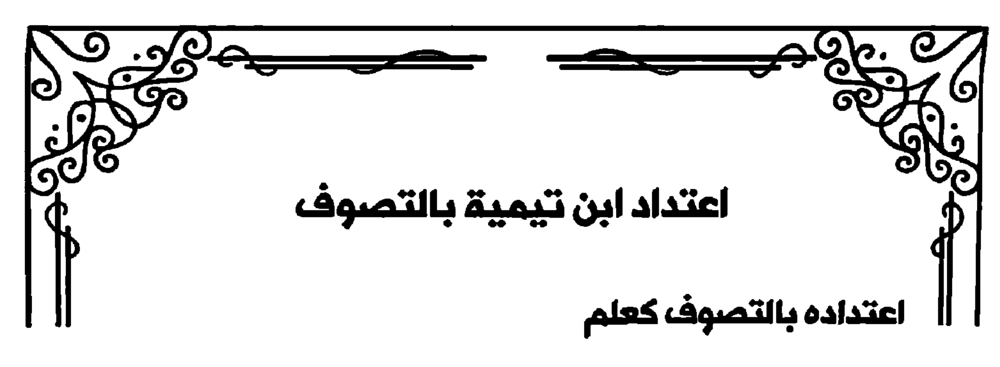
ثم أفاض في الحديث عن نشأته وتاريخه وتطوره، إلى أن تعرض للدفاع عنه والرد على من ادعى أنه علم مبتدع، كما رأيت سابقاً.

إن العلماء لا يقفون عند المصطلحات إلا بمقدار التفهم لمعناها، ثم ينطلقون في مناقشة حقائقها وعرضها على معايير العلم، وهو منهج علمي لا يرقى إليه قصار القامة.



---

(١) «مجموع الفتاوى»(١١/ ٥)



اعتداد ابن تيمية بالتصوف

اعتداده بالتصوف كعلم

يرى ابن تيمية ـ كسائر علماء الإسلام ـ أن التصوف علم من علوم الإسلام العريقة، وجزء لا يتجزأ من الإسلام الشمولي الذين يُعنى بإصلاح العقل والروح والبدن.

وهذه الحقيقة تجلت فيما قدمناه عنه، ولكننا سنزيدها ـ هنا ـ إيضاحاً.

ينص رحمه الله على أن التصوف ـ كسائر العلوم ـ مداره على الوحي المطهر، فيقول: «وأما العلم والمعرفة والتصوف فمدارها على أن يعرف ما أخبر به الرسول ويعرف أن ما أخبر به حق». [(١)]

وفي «شرح العقيدة الأصفهانية» يذكر أن أجود مواد الأصفهاني هي التصوف، لكنه عاب عليه ولوجه في التصوف الفلسفي، وتمنى لو أنه سلك مسلك الصوفية أهل العلم بالآثار.

فيقول: «وأجود ما له من المواد المادة الصوفية، ولو سلك فيها مسلك الصوفية أهل العلم بالآثار النبوية، واحترز عن تصوف المتفلسفة الصابئين لحصل مطلوبه، ونال مقصوده، لكنه في آخر عمره سلك هذا السبيل، وأحسن ما في كتابه أو أحسن ما فيه ما يأخذه من كتاب أبي طالب في مقامات العارفين، ونحو ذلك، فإن أبا طالب

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ١٧٣)

أخبر بذوق الصوفية حالاً، وأعلم بكلامهم وآثارهم سماعاً، وأكثر مباشرة لشيوخهم الأكابر». [1]

وعندما يذكر التصوف يقرنه بالمعرفة، للتلازم بينهما، فيقول «التصوف، والمعرفة». [2]

أو يقرنه بالزهد والعبادة، لكونهما أساس التصوف: «أهل التصوف، والزهد، والعبادة». [3]

ويصف أهله بـ «العارفين»، وهو اصطلاح صوفي مشهور.

ويسميهم «مشايخ الصوفية العارفون». [4]

ويسميهم «أهل التصوف، والسلوك، والطالبين لطريق التحقيق، والعرفان». [5]

ويرى أن الاحتكام للكتاب والسنة هو «حقيقة أهل الإيمان، وشعار أهل السنة والجماعة، وحلية أهل الحديث، والفقه، والتصوف». [6]

ويسميهم «أهل الطريق». [7]

وتارة يسميهم «أهل طريق الله السالكين». [8]

---

(١) «شرح العقيدة الأصفهانية» (ص٢٠٠)

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٠٢)

(٣) «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٠٠)

(٤) وانظر «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٧)

(٥) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٥٩٠)

(٦) «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ١٣٢)

(٧) «شرح العقيدة الأصفهانية» (ص١٨٨)

(٨) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٦٤)

وتارة يسميه «التصوف الإسلامي». [1]

ومرة يسميه «التصوف المشروع»، أو «التصوف الشرعي». وهذا كما سمى الزهد بـ «الزهد الشرعي»، وسمى السماع بـ «السماع الشرعي»، وسمى السلوك بـ «السلوك الشرعي». [2]

ومر بك وصفه الصوفية بـ «أرباب المقامات العلية، والأحوال الزكية، وذوي الحقائق الدينية، والمنح الربانية».

ولهذا عدَّ التصوف أجل علوم الإمام الغزالي، فقال: «ومادة أبي حامد في الفلسفة من كلام ابن سينا، ولهذا يقال أبو حامد أمرضه الشفاء، ومن كلام أصحاب رسائل إخوان الصفا، ورسائل أبي حيان التوحيدي، ونحو ذلك، وأما في التصوف وهو أجل علومه». [3]

وفي المقابل أخذ على الإمام الرازي أنه كان ضعيفاً في التصوف، كضعفه في الفقه، ـ كما رأى ـ فقال: «وأما التصوف فكان فيه ضعيفاً، كما كان ضعيفاً في الفقه». [4]

وعابه أيضاً بعدم معرفته بمصنفات أهل التصوف، فقال: «فأما أئمة الإسلام من الصحابة والتابعين وتابعيهم فلا خبرة له ولا أمثاله بمقالاتهم

---

(١) «بيان تلبيس الجهمية» (٥/ ٢٦٩)

(٢) انظر «درء تعارض العقل والنقل» (٧/ ٢٩١)

(٣) «بغية المرتاد» (ص ٤٤٩)

(٤) «بغية المرتاد» (ص ٤٥١)

في هـذا البـاب، كمـا تشـهد بـه مصنفاتـه ومصنفـات أمثالـه، وكذلك لا خبـرة له بمقـالات أئمـة الفقهـاء، وأئمـة أهـل الحديـث والتصـوف». [1]

وقال: «وإنما هو كثير الاستغراق في كلام المعتزلة وأتباعهم، قليل المعرفة والعناية بكلام السلف، والأئمة، وسائر طوائف الإسلام، من أهل الفقه، والحديث، والتصوف». [2]

كما عاب على غيره من الفقهاء والمعتزلة قلة معرفتهم بالتصوف، فقال: «وهذا كثير في أهل الكلام والفقهاء، لاسيما في المعتزلة، وهؤلاء قد لا يعرفون ما في طريق أهل العبادة والتصوف من الأمور المحمودة في الشرع، ومن غلب عليه طريقة أهل التصوف». [3]

ونحن إذ ننقل رأيه هذا لا يعني أننا نؤيد ما يقوله في الإمام الفخر الرازي، وإنما نقصد تسليط الضوء على جزئية منه، وهي أنه كان يعد عدم المعرفة أو قلة الخبرة بمقالات الصوفية عيباً يعاب به العلماء.



---

(١) «بيان تلبيس الجهمية» (١/ ٦٣)

(٢) «بيان تلبيس الجهمية» (١/ ٣٤٧)

(٣) «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٦٩)

اعتداده بعلماء الصوفية

وأما اعتداده بالصوفية واعتباره بأقوالهم كعلماء متبعين، فهو أكثر من أن يحصى.

فهو يرفض رفضاً قاطعاً أوهام من يظنون أن عقيدته مخالفة لمذهب الصوفية، ولهذا كثيراً ما نراه يحاكم مخالفيه إلى كتب الصوفية، ويستظهر بهم عليهم، كما قال: «ولا ريب أن من أشهر مشايخ الصوفية وأعظمهم عندهم وعند العامة في عصر أبي المعالي الجويني شيخ الإسلام أبا إسماعيل الأنصاري وأبا القاسم سعد بن علي الزنجاني، وأمثالهما، فلينظر ما ذكره هؤلاء في مصنفاتهم».[1]

وقال في إحدى مناظراته: «وقد أحضرت في الشام أكثر من خمسين كتاباً من كتب الحنفية، والمالكية، والشافعية، وأهل الحديث، والمتكلمين، والصوفية، كلها توافق ما قلته بألفاظه».[2]

وفي «الفتوى الحموية الكبرى» لم ينس النقل عن أئمة الصوفية والاستشهاد بأقوالهم وعقائدهم.

وعلى منهجه هذا جرى تلميذه ولسانه الناطق العلامة ابن القيم في كتابه «اجتماع الجيوش الإسلامية» وحشد الكثير منها.

وقد أشار إليه في «الصواعق»، فقال: «وقد ذكرنا في كتاب اجتماع

---

(١) «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ١٩٣)

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢١٧)

العساكر الإسلامية على غزو الفرقة الجهمية أضعاف أضعاف هذه النقول عن الصحابة، والتابعين، وتابعيهم، والأئمة الأربعة، نصاً صريحاً عنهم، نقله أصحابهم وغيرهم، وأئمة التفسير، وأئمة اللغة، وأئمة النحو، وأئمة الفقه، وسادات الصوفية». [1]

تنوع استشهاد ابن تيمية بالصوفية وبأقوالهم وعلومهم، في مجالات شتى، بما فيها العقائد، ابتداء من الإقرار بالصانع الذي يرى أنه أمر فطري بديهي لا يتوقف على النظر والاستدلال، فيقول: «وهذا قول جماهير الفقهاء، والصوفية، وأهل الحديث، والعامة، وغيرهم». [2]

وفي رأيه المعروف بخصوص قيام الأفعال بالخالق، يقوي ما ذهب إليه بنقله عن طوائف أهل العلم، ومنهم الصوفية، فيقول: «وكذلك ذكره الكلاباذي في كتاب التعرف لمذهب التصوف أنه مذهب الصوفية». [3]

وفي رده على الرازي يقول: «فإذا كان مع ذلك قد لزم القول بأفعال تقوم بذاته، كما تقوله طوائف من أهل الفلسفة والكلام، مع جماهير أهل الحديث، والفقه، والتصوف، وسلف الأمة. [4]

ويقول: «والقول بأن الخلق غير المخلوق وأنه فعل يقوم بالرب هو قول أكثر المسلمين، وهو قول الحنفية، وأكثر الحنبلية، وإليه رجع القاضي أبو يعلى أخيرا،

---

(١) «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٢٥٤)

(٢) «بيان تلبيس الجهمية» (٤/ ٥٧٠)

(٣) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٢٩)

(٤) «بيان تلبيس الجهمية» (١/ ٤٤٧)

وهو الذي حكاه البغوي عن أهل السنة، وهو الذي ذكره أبو بكر الكلاباذي عن الصوفية، وذكره في كتاب التعرف لمذهب التصوف». [1]

ونسب القول بإثبات الصفات الخبرية ـ على طريقته ـ إلى الصوفية وغيرهم، فقال: «وهذا القول هو الذي يؤثر عن سلف الأمة، وأئمتها، وعليه أئمة الفقهاء، وأئمة الحديث، وأئمة الصوفية». [2]

ويرد على القائلين بأن الصفات الخبرية من جنس الصفات المعنوية، فيقول: «وأما السلف والأئمة وأهل الحديث، وأئمة الفقهاء والصوفية، وطوائف من أهل الكلام، فلا يقولون إن هذه من جنس تلك، لا يسمونها أيضا صفات خبرية، لأن من الصفات المعنوية ما لا يعلم إلا بالخبر أيضاً». [3]

وفي الجوهر الفرد، يقول: «إثبات الجوهر الفرد مما أنكره أئمة السلف، والفقهاء، وأهل الحديث، والصوفية، وجمهور العقلاء». [4]

ولما اشتد خلافه مع علماء عصره في مسألة العلو حشد رحمه الله أقوال الأئمة والعلماء التي تؤيد ما ذهب إليه، وكان من جملتهم أئمة الصوفية الذين وصفهم بالإمامة والعلم والعرفان، أمثال الحافظ أبي نعيم، ومعمر بن أحمد الأصبهاني الذي وصفه بالإمام العارف مفتي الصوفية العارفين، الذي دون عقيدة أهل السنة، ومما قال فيها، كما نقله ابن تيمية:

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٢٩٨)

(٢) «بيان تلبيس الجهمية» (١/ ٢٧٢)

(٣) «بيان تلبيس الجهمية» (١/ ٣٣٠)

(٤) «درء تعارض العقل والنقل» (٤/ ١٣٥)

«أحببت أن أوصي أصحابي بوصية من السنة، وموعظة من الحكمة، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر، وأهل المعرفة والتصوف، من المتقدمين والمتأخرين». [1]

ويقول في مسألة الفوقية على العرش: «وهذا قول الكلابية، وأئمة الأشعرية، وطوائف لا يحصون من الفقهاء، وأهل الحديث، والصوفية، من أصحاب أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، كالقاضي أبي يعلى، وأبي الوفاء بن عقيل، وأبي الحسن بن الزاغوني، وغيرهم». [2]

ويعزز من مكانه ويشد من رأيه في ذم الأشعرية، والكلابية، والكرامية، بموافقة الصوفية، كما يقويه بموافقة أهل الحديث، والفقهاء، فيقول: «هؤلاء الذين يذكر شيخ الإسلام أقوالهم من أئمة الحديث، والفقه، والتصوف، وغيرهم، وقد ذكر عنهم ذم الكلابية، والكرامية، والأشعرية، ونحوهم، على ما أحدثوه مما يخالف طريقة أهل السنة، والحديث». [3]

ويشهر علماء الصوفية في وجه مخالفيه باعتبارهم أئمة علم من العلوم الإسلامية التي تلقاها المسلمون بالقبول، فيقول: «وكل لفظ ذكرته فأنا أذكر به آية أو حديثاً أو إجماعاً سلفياً، وأذكر من ينقل الإجماع عن السلف من جميع طوائف المسلمين، والفقهاء الأربعة، والمتكلمين، وأهل الحديث، والصوفية». [4]

---

(١) انظر «بيان تلبيس الجهمية» (١/ ٢١٢، ٢١٣)

(٢) «بيان تلبيس الجهمية» (٣/ ٤٧١)

(٣) «بيان تلبيس الجهمية» (٣/ ٦٩٩)

(٤) «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٨٩)

ويتحدى مخالفيه بأن يثبتوا مخالفته لأئمة الصوفية في آرائه التي ذهب إليها، ويقوي جانبه بأنهم موافقون لما ذهب إليه، فيقول: «من جاء بحرف واحد عن السلف بخلاف ما ذكرت فأنا أصير إليه، وأنا أحضر نقل جميع الطوائف أنهم ذكروا مذهب السلف كما وضعته، وأنا موافق السلف ومناظر على ذلك، وجميع أئمة الطوائف، من الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنبلية، والأشعرية، وأهل الحديث، والصوفية، موافقون ما أقوله». [1]

وفي مسألة المحبة ذهب بعض أهل الكلام إلى أن الله لا يُحَب لنفسه، وإنما المحبة محبة طاعته، وهو سبحانه أيضا لا يحب عباده المؤمنين، وإنما محبته إرادته للإحسان إليهم، فقال ابن تيمية رداً عليهم: «والذي دل عليه الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة، وأئمتها، وجميع مشايخ الطريق أن الله يُحِب ويُحَب، ولهذا وافقهم على ذلك من تصوف من أهل الكلام، كأبي القاسم القشيري، وأبي حامد الغزالي، وأمثالهما، ونصر ذلك أبو حامد في الإحياء وغيره، وكذلك أبو القاسم ذكر ذلك في الرسالة على طريق الصوفية، كما في كتاب ابي طالب المكي المسمى بقوت القلوب». [2]

وقال: «وجميع مشايخ الدين المتبعون وأئمة التصوف أن الله سبحانه محبوب لذاته محبة حقيقية». [3]

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٠٧)

(٢) «الاستقامة» (ص٣٢٧)

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٦)

وقال: «وأما السلف، والأئمة، وأئمة أهل الحديث، وأئمة التصوف، وكثير من أهل الكلام، والنظر، فأقروا بأنه محبوب لذاته، بل لا يستحق أن يحب لذاته إلا هو». [1]

وفي مسألة التفضيل بين علي وعثمان، يقول: «وأما جمهور الناس ففضلوا عثمان، وعليه استقر أمر أهل السنة، وهو مذهب أهل الحديث، ومشايخ الزهد والتصوف، وأئمة الفقهاء، كالشافعي، وأصحابه، وأحمد، وأصحابه، وأبي حنيفة، وأصحابه، وإحدى الروايتين عن مالك، وعليها أصحابه». [2]

وأيّد ما ذهب إليه بنصوص كثير من أئمة الصوفية، ابتداءً من الرعيل الأول إلى الإمام الجنيد إلى أبي عبد الرحمن السلمي، إلى معمر بن زياد شيخ الصوفية في عصر الحافظ أبي نعيم، والإمام عبد القادر الجيلاني الذي أكثر من الاستشهاد بكلامه، وأبي إسماعيل الأنصاري، ومحمد بن طاهر المقدسي الحافظ الكبير الصوفي.

وأكثر من الاستشهاد بما كتبه الإمام أبو بكر الكلاباذي في «التعرف لمذهب التصوف».

وغيرهم كثير. [3]

---

(١) «منهاج السنة» (٣/ ١٦٥)

(٢) «منهاج السنة» (٨/ ٢٢٥)

(٣) انظر «الاستقامة» (١/ ٨٣، ٨٥، ٨٨، ١٦٧)، «منهاج السنة» (١/ ٤٥٨)، «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ١٩٧)، «الرد على المنطقيين» (ص٢٣٠)، «مجموع الفتاوى» (٤/ ٦١)(٥/ ٥٣٣)، «بيان تلبيس الجهمية» (٥/ ٦٥)

وهذا الاستشهاد يعني أنه يرى علماء الصوفية أئمة يقتدى بهم، لا أهل بدع وضلال.

وهو ما صرح به، فقال: «والمصنفون قد يكونون أئمة في الفقه، أو التصوف، أو الحديث». [1]

وقال في موضوع آخر: «ومن هذا الباب هجر الإمام أحمد للذين أجابوا في المحنة قبل القيد، ولمن تاب بعد الإجابة، ولمن فعل بدعة ما، مع أن فيهم أئمة في الحديث، والفقه، والتصوف، والعبادة، فإن هجره لهم والمسلمين معه لا يمنع معرفة قدر فضلهم». [2]

***

أهل السنة برأي ابن تيمية:

الصوفية روح أهل السنة والجماعة، والجانب الأكثر إشراقاً ونورانية فيهم، والحلية التي يفخر بها أئمة السنة، ويحرصون على الانتساب إليها.

وقد عدَّ أبو المظفر الإسفراييني التصوف أحد مفاخر أهل السنة والجماعة التي تميزوا بها عن سائر الفرق والطوائف، وذلك لسلامة طريقهم من المعتقدات الفاسدة والسلوكيات المنحرفة. [3]

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٧٩)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٧٧)

(٣) انظر «التبصير في أصول الدين» (ص١٦٤)

ولهـذا اتفـق أئمـة أهل السـنة على تعظيم هـذه الطائفـة وإجلالهـا واعتقادها، ومضــت على هذا الشـعوب بحكامهـا ونخبها الاجتماعيـة والعلميـة والفكرية.

ولم يحدث أن عالماً من العلماء المعتبرين تحامق وأخرج الصوفية من مفهوم «أهل السنة»، إلا المنتسبين إليها زوراً ومخادعة من أهل الدجل، فهم في الحقيقة ليسوا من الصوفية باتفاق أئمة التصوف وغيرهم.

ابن تيمية عالم موسوعي يعرف جيداً مذاهب أهل السنة وأقوالهم، ولا يمكنه إلا أن يسير في ركابهم، ويقتفي آثارهم.

وقد وضع رحمه الله ضابطاً عاماً لأهل السنة يقطع ألسنة المتهوكين الذين يظنون أن «السنة» تركة ورثوها كابراً عن كابر، يمنحونها لمن يشاؤون ويحرمونها من يشاؤون.

يقول رحمه الله: «من قال بالكتاب، والسنة، والإجماع، كان من أهل السنة والجماعة». (١)

هذا هو الضابط والمعيار عند ابن تيمية، فمن قال بالكتاب والسنة والإجماع فهو السني، بأي اسم تسمى، وبأي لقب عُرف، ولم يخصه بطائفة دون أخرى، ولم ير أن لقب «أهل السنة» حكر على أحد بمجرد الانتساب أو الادعاء.

أمـا الكتاب والسـنة، فقـد سـبق أنهما أصـلا التصـوف، ومنهما استُمِد، وأن أئمـة الصوفيـة مجمعـون علـى أن كل قـول أو فعل أو خاطـر أو حـال يخالفهما لا قيمـة له.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٤٦)

وأما الإجماع، فالصوفية مجمعون على القول به، وكل الكتب التي دونها علماء الصوفية في «أصول الفقه» متفقة على القول به، ولم يؤثر عن عالم صوفي أنه رفض القول بالإجماع.

وجميع مدارس الصوفية في العالم الإسلامي قديماً وحديثاً وإلى يومنا هذا تدرِّس أصول الفقه على طريقة أهل السنة، وتقرر أن الإجماع حجة، على ما هو مفصل ومعروف في علم الأصول.

وهذا ما شهد به ابن تيمية، فقال: «الإجماع، وهو متفق عليه بين عامة المسلمين، من الفقهاء، والصوفية، وأهل الحديث، والكلام، وغيرهم». [(١)]

إذن فالصوفية يقولون بالكتاب والسنة والإجماع، فهم من صميم أهل السنة، بناء على الضابط الذي حققه ابن تيمية.

ولم يقف ابن تيمية هنا، بل صرح في عدة مناسبات بأن الصوفية من أهل السنة.

فحيناً يقطع بأن الصوفية من أتباع المذاهب الأربعة من أهل السنة، كما قال في إحدى المسائل: «وهذا القول قول أكثر أهل السنة والمثبتين للقدر من أهل الحديث، والتفسير، والفقه، والكلام، والتصوف من أتباع الأئمة الأربعة، وغيرهم». [(٢)]

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٣٤١) (٥/ ٢١)

(٢) «منهاج السنة» (١/ ١٣٧)

ويقول ـ وهو بصدد الحديث عن صفة النزول ـ: «وقد تنازعوا في النزول، هل هو صفة فعل منفصل عن الرب في المخلوقات، أو فعل من يقوم به، على قولين معروفين لأهل السنة، من أصحاب مالك، والشافعي، وأحمد، وأبي حنيفة، وغيرهم، من أهل الحديث، والتصوف».[1]

وفي مسألة المعاد، يقول: «وذلك أن أهل الأرض في المعاد على أربعة أقوال: أحدها: وهو مذهب سلف المسلمين من الصحابة، والتابعين لهم بإحسان، وأئمة المسلمين المشهورين، وغيرهم من أهل السنة، والحديث من الفقهاء، والصوفية، والنظار، وهو إثبات معاد الأرواح والأبدان جميعاً».[2]

ويقول بعبارة أصرح: «أهل السنة والجماعة أهل الحديث، ومن انتسب إلى السنة والجماعة من أهل التفسير، والحديث، والفقه، والتصوف، كالأئمة الأربعة، وأئمة أتباعهم».[3]

ويقول أيضاً: «أما على مذهب أهل السنة والجماعة، من السلف، وأهل الحديث، وأهل المعرفة، ومن اتبعهم، من الفقهاء، والصوفية، والعامة، وأهل الكلام،،،».[4]

ويقول في مسألة إثبات الأسباب: «وأما جمهور العقلاء من المسلمين

---

(١) «منهاج السنة» (٢/ ٦٣٩)

(٢) «الجواب الصحيح» (٦/ ٧)

(٣) «منهاج السنة» (٢/ ٣٦٣)

(٤) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٩)

وغير المسلمين وأهل السنة، من أهل الكلام، والفقه، والحديث، والتصوف، وغير أهل السنة، من المعتزلة، وغيرهم، فيثبتون الأسباب». [1]

وفي خلق أفعل العباد، يقول: «وكذلك جماهير أهل السنة، من أهل الحديث، والفقه، والتفسير، والتصوف، لا يقرون بهذه الأقوال المتضمنة للخطأ، بل هم متفقون على أن الله خالق أفعال العباد، وعلى أن العبد قادر مختار يفعل بمشيئته وقدرته، والله خالق ذلك». [2]

ويصر رحمه الله على أن يستخدم عبارة أكثر وضوحاً، فيقول في تفسير مصطلح «أهل السنة»: «وهذا الاسم يدخل فيه الصحابة، والتابعون، لهم بإحسان، وأئمة التفسير، والحديث، والفقه، والتصوف، وجمهور المسلمين، وجمهور طوائفهم، لا يخرج عن هذا إلا بعض الشيعة». [3]

وإزاء هذا النص يجب على المتهورين ابتلاع ألسنتهم التي طالما لهجت بإخراج الصوفية ـ وسائر أهل الإسلام ـ من مسمى أهل السنة، ثم يدعون أنهم على طريقة ابن تيمية رحمه الله، فحقائق العلم والتاريخ تكذب هذه الدعاوى التي لا تستند إلى العلم ولا إلى التاريخ.

ويقول ـ أيضاً ـ: «أهل السنة والجماعة، من الصحابة جميعهم، والتابعين،

---

(١) «الرد على المنطقيين» (ص٩٤)

(٢) «منهاج السنة» (٣/ ١٢٨)

(٣) «منهاج السنة» (٣/ ٣٢ـ٣٣)

وأئمة أهل السنة، وأهل الحديث، وجماهير الفقهاء، والصوفية».[1]

ويصف الأئمة الأربعة وأتباعهم بالتصوف، فيقول: «أما من لا يطلق على الله اسم الجسم، كأئمة أهل الحديث، والتفسير، والتصوف، والفقه، مثل الأئمة الأربعة وأتباعهم، وشيوخ المسلمين المشهورين في الأمة، ومن قبلهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فهؤلاء ليس فيهم من يقول إن الله جسم».[2]

ويقول: «والمشايخ المستقيمون، كالفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، وأمثالهم، هم المتبعون للكتاب والسنة، والصوفية المتبعون لهم هم صوفية أهل السنة والحديث في اعتقادهم وفي عملهم، فهم يؤمنون بما أخبر به الرسول ويمتثلون ما أمر به، يصدقونه في خبره، ويطيعونه في أمره، ومن كان كذلك فهو من أولياء الله المتقين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون».[3]

ويرى أن طريقة الصوفية هي أكمل الطرق فيما يتعلق بصفات الخالق، فيقول: «وجمهور أئمة الحديث، وأئمة الفقهاء، وأئمة الصوفية، طريقهم أكمل من ذلك، وأتبع للسنة».[4]

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٧١)

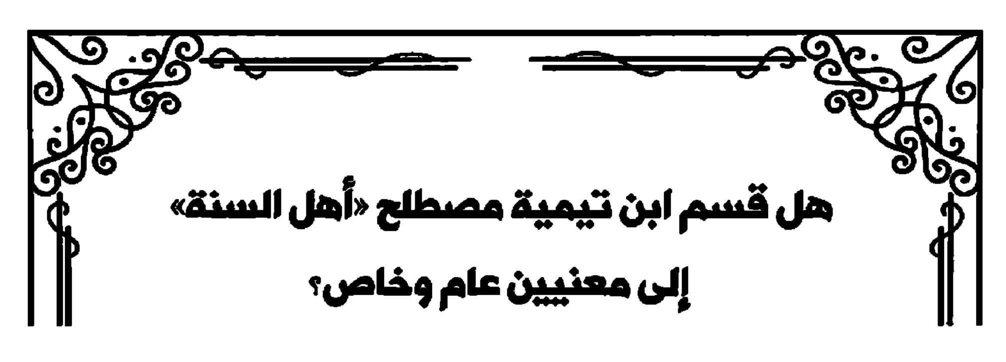
(٢) «منهاج السنة» (٢/ ١٠٥)

(٣) «الرد على الشاذلي» (ص٧٣)

(٤) «بيان تلبيس الجهمية» (٦/ ٢٤٠)

وهـذا غيـض مـن فيـض، كمـا يقـال، وهـي نصـوص واضحـة صريحـة لا تحتمـل التأويـل، وفيهـا الكفاية لمن ابتغـى الحقيقة، وتحرر من الهوى ووسـاوس الشيطان.





هل قسم ابن تيمية مصطلح «أهل السنة» إلى معنيين عام وخاص؟

كلام ابن تيمية السابق نص لا يحتمل التأويل، وكل ما أشكل مما يوهم خلافه لا عبرة به، إذ لا يقوى على دفع هذا التنصيص الصريح المباشر.

أدرك أن البعض قد يشغب على هذا الكلام ويدعي أن المقصود بـ «أهل السنة» هنا المعنى العام الذي يقابل الرافضة، وهم ـ أعني أهل السنة بالمعنى العام ـ القائلون بخلافة الخلافة الثلاثة، وأما المعنى الخاص وهم أهل الحديث فلا يدخل فيهم الصوفية.

وهذا تقسيم ابن تيمية في كتابه «منهاج السنة»، كما يقولون.

وجوابه من وجوه:

الوجه الأول: أن تقسيم أهل السنة إلى عام وخاص تقسيم فاسد لا دليل عليه إلا مجرد التحكم والهوى والعصبية.

الوجه الثاني: أن النصوص التي ذكرناها صريحة بإدخال الصوفية في مفهوم «أهل السنة»، وهي خاصة، وتقسيم ابن تيمية لأهل السنة إلى عام وخاص ـ إن سلمنا بصحة نسبته إليه ـ كلام عام أو مجمل غير مفسر، ولا يجوز أن يترك كلامه المفصل المفسر لأجل توهم معنى من كلام عام أو مجمل.

والموقف العلمي هو أن كلام العالم المفصل تفسير لكلامه المجمل، ولا

يُقبل ـ بأي منطق ـ أن يُقدم الكلام المجمل على الكلام المفصل الواضح.

الوجه الثالث: أن ابن تيمية يرفض كون الصوفية أشعرية أو معتزلة، وهما أقرب الفرق إلى أهل السنة في نظره، بل يرى أن طريقة الصوفية لا تلتقي مع طريقتي المعتزلة والكلابية والأشعرية، كما تقدم.

وهذا يعني أن الصوفية ـ عنده ـ من أهل السنة بالمعنى الخاص، إن سلمنا بهذا التقسيم.

على أن موقف ابن تيمية هذا من الأشعرية والكلابية مرفوض مخالف لسائر العلماء.

الوجه الرابع: أن كلام ابن تيمية ليس صريحاً في تقسيم مفهوم «أهل السنة» إلى عام وخاص، ولا يقوى على دفع الضابط الذي قدمناه عنه من كلامه.

والذين ينسبون هذا التقسيم إلى ابن تيمية يستندون إلى قوله في «منهاج السنة»: «فلفظ أهل السنة يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة، فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة، وقد يراد به أهل الحديث والسنة المحضة، فلا يدخل فيه إلا من يثبت الصفات لله تعالى ويقول إن القرآن غير مخلوق، وإن الله يُرى في الآخرة، ويثبت القدر، وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل الحديث والسنة». [1]

والحقيقة أن كلام ابن تيمية هذا رد عليهم وليس لهم، فأنت تلاحظ أنه وضع قاعدة ثابتة بلفظ يقتضي الدوام والاستمرار فقال: «فلفظ أهل السنة يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة».

هذه هي القاعدة الثابتة عنده، وهذا هو الأصل.

---

(١) «منهاج السنة» (٢/ ٢٢١)

لكن ـ أحياناً ـ قد يُستخدم هذا الاصطلاح ـ كما يرى ـ استخداماً خاصاً، فيطلق على الصفوة من الأمة، وهذا قليل جداً، ولهذا صدره بقوله «قد» التي تفيد التقليل.

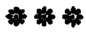
غير أن إخوتنا الذين يزعمون اقتفاءهم لابن تيمية خالفوا العقول، فتركوا القاعدة العامة والضابط الكلي الذي قرره، وأخذوا بالحالة النادرة التي قد تستخدم كنوع من الاصطلاح الآني أو الشخصي.

الوجه الخامس: على فرض صحة التقسيم الذي يدعونه، فقد صرح ابن تيمية بأن المعنى الخاص يراد به أهل الحديث والسنة المحضة، وقد علمت أن شرط التصوف الأول عند الصوفية هو موافقة الكتاب والسنة، والسنة هي الحديث، كما قال الجنيد: «من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة».[1]

وأجمعت الصوفية على تلقي كلمة الجنيد هذه والعمل بها.

فهم داخلون في مسمى «أهل الحديث»، ولهذا اعتنى علماء الصوفية بعلم الحديث عناية فائقة، وتخرج منهم مئات الأئمة والحفاظ والنقاد، كما شرحته مفصلاً في كتابي «الصوفية وموقف العلماء منها وحقيقة التهم الموجهة لها».

وعليه، فهذا التقسيم غير سليم، ولا تصح نسبته إلى ابن تيمية.



(١) «الرسالة القشيرية» (ص٤٣١)، «الاعتصام» (١/ ١٢٨)، «عدة المريد الصادق» (ص٤٩)



انقسام مسائل التصوف إلى متفق عليه ومختلف فيه

ضرورة التجديد في علم التصوف

ذم الصوفية بالإطلاق

عناية ابن تيمية بالتصوف وجهوده الإحيائية فيه

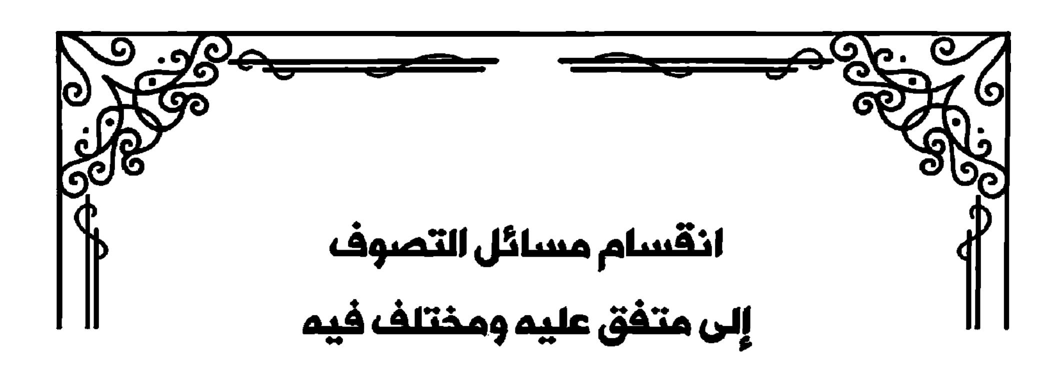
أدعياء التصوف

ابن تيمية والمنتسبون إلى الصوفية من الملاحدة

ابن تيمية على خطى أئمة الصوفية

ابن تيمية والحلولية الاتحادية

***



انقسام مسائل التصوف إلى متفق عليه ومختلف فيه

التصوف ـ كغيره من علوم الشريعة ـ يشتمل على مسائل متفق عليها بين علماء الأمة، وأخرى تعددت فيها الآراء ووجهات النظر.

وهذه طبيعة العلوم، فهي تحوي مسائل قطعية لا مجال فيها إلا التلقي والامتثال، ومسائل ظنية تتجاذبها الأفهام، ويكون للرأي فيها مجال.

والقسم الثاني هذا بمثابة الفسحة الربانية للعقل الذي يضيق به الامتثال الدائم دون منحه الثقة في البحث والنظر والتفكير.

وقد منحت الشريعة للتصوف ما منحته للفقه من حق الاختلاف، وعدم الحجر على اختيار ما يراه العقل المؤهل من الآراء، إذ كلا العلمين مستقى من نبع واحد، ومن غير المنطقي أن يعطى الفقه ذلك المجال الرحب الواسع، ويحجر على التصوف، وهما يمتحيان من عين واحدة.

يشير ابن تيمية إلى هذه الحقيقة العلمية، فيقول: «وفي السلوك مسائل تنازع فيها الشيوخ، لكن يوجد في الكتاب والسنة من النصوص الدالة على الصواب في ذلك ما يفهمه غالب السالكين، فمسائل السلوك من جنس مسائل العقائد، كلها منصوصة في الكتاب والسنة، وإنما اختلف أهل الكلام لما أعرضوا عن الكتاب والسنة، فلما دخلوا في البدع وقع الاختلاف، وهكذا طريق العبادة عامة ما يقع فيه

من الاختلاف إنما هو بسبب الإعراض عن الطريق المشروع، فيقعون في البدع فيقع فيهم الخلاف.

وهكذا الفقه إنما وقع فيه الاختلاف لما خفي عليهم بيان صاحب الشرع، ولكن هذا إنما يقع النزاع في الدقيق منه، وأما الجليل فلا يتنازعون فيه». [1]

والموقف الشرعي من مسائل الاختلاف والاجتهاد في التصوف كالموقف من مسائل الاجتهاد في الفقه، ويجب أن نستصحب في التصوف ما نطبقه من القواعد والآداب في الفقه، لا سيما فيما يتعلق بآداب الخلاف، وتصنيف المسائل، وبيان موقعها من العلم، ودرجتها.

ومن أهم تلك القواعد، قولهم «لا إنكار في مسائل الخلاف».

ومن أهم التوصيات والآداب ألا تُجعل المسائل المختلف فيها عنواناً على العلم، وألا يتم عرضها على أنها تمثل حقيقته وجوهره.

ويجب أن نعلم أن المخالف المنكر لهذه المسائل أو هذه الآراء ليس منكراً للتصوف، وأن المتبني لها القائل بها ليس هو السالك الذي يستحق أن يمنح لقب «الصوفي».

حسبُ الاختلاف فيها أن يكون اختلافاً في فن من الفنون بين أهله، فالموجب والمانع كلاهما يبحث في علم واحد، فصح أن يُنسبا إليه، وصح أن تنسب المسألة المختلف فيها إلى علم التصوف كمحل للبحث، فمن ألصقها به ومن أنكر صلتها به كلاهما عالمان صوفيان مأجوران على هذا الاجتهاد، كما يؤجر الفقهاء باجتهادهم في مسائل الفقه المختلف فيها، وكلاهما يخدم العلم ويثريه.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٢٧٤)

ومن الملاحظ أن اختلاف المجتهدين في المدارك قد يدفع بآخرين إلى إنكار ما توصلت إليه اجتهاداتهم، ويعدون ذلك إحداثاً في الشريعة، حتى يصل به الأمر إلى إنكار العلم كله.!

وذلك كما وقع لأهل «الرأي» الذي اشتهر به فقهاء الكوفة.

فعلم الرأي له مسالك دقيقة، تميز بها الكوفيون، لم يستطع البعض استيعابها، فظنوا أن أهل «الرأي» أعداء للسنن والآثار، ودارت معارك طاحنة بين مدرسة الرأي ومدرسة الحديث، وتحمل على إثرها الإمام أبو حنيفة سيلاً من التهم وصلت إلى الرمي بالكفر والزندقة، واستمرت هذه الحرب ما شاء الله إلى أن اتفقت الأمة على تلقي «الرأي» بالقبول، بشروط وضوابط معروفة.

ما حصل مع أهل «الرأي» حصل مثله مع أهل التصوف، فقد استبشعه ـ عند ظهوره كعلم له رموزه وإشاراته ومصطلحاته ـ كثيرون، ولم يتوانوا في الإنكار على أهله، والتنكيل بهم، وتتبع آثارهم، واستمروا على ذلك زمناً طويلاً إلى أن استقر الأمر على الاعتداد به في جملة العلوم الشرعية المستمدة من الكتاب والسنة.

كل هذا أشار إليه ابن تيمية بجملة قصيرة وهو يتحدث عن حدوث التصوف وبعض المواقف القاسية عليه المأثورة عن بعض العلماء، فقال: «والتحقيق فيه أنه مشتمل على الممدوح والمذموم، كغيره من الطريق، وأن المذموم منه قد يكون اجتهادياً، وقد لا يكون، وأنهم في ذلك بمنزلة الفقهاء في الرأي، فإنه قد ذم الرأي من العلماء والعباد طوائف كثيرة».[1]

وكلمته هذه رد عميق ومركز على الذامين للتصوف بإطلاق.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٧٠)

فمسائل التصوف المنسوبة إليه ـ كما يرى ابن تيمية ـ لها ثلاث حالات:

إما ألا يكون لها أصل في الشريعة اتفاقاً، بل مخالفة لها إجماعاً، فهذه ليست من التصوف، وإنكارها واجب.

وإما أن تكون من الشريعة اتفاقاً، فلا يجوز إنكارها قطعاً.

وإما أن تكون محل خلاف بين العلماء، فهذه مسائل اجتهاد، لا يجوز الإنكار فيها، ولكل اجتهاده، ولا يحق لأحد إلزام الآخرين بالتنازل عما وصلت إليه عقولهم من قناعات وتبني ما أفرزه عقله.

هذا ما يراه ابن تيمية، فهل يتفق معه الصوفيون في موقفه هذا.؟!

الجواب: أن موقف علماء الصوفية يتطابق مع ما يراه ابن تيمية، كما سجله لسان أهل الحقائق الإمام عبد الوهاب الشعراني في مقدمة «الطبقات الكبرى»، حيث يقول: «مقدمة في بيان أن طريقة القوم مشيدة بالكتاب والسنة، ومبنية على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء، وبيان أنها لا تكون مذمومة إلا إن خالفت صريح القرآن أو السنة أو الإجماع، لا غير، وأما إذا لم تخالف فغاية الكلام أنه فهم أوتيه مسلم، فمن شاء فليعمل به، ومن شاء تركه». [1]

بخط متوازٍ سار ابن تيمية مع علماء الصوفية في التعامل مع جميع مسائل هذا العلم، ولم ير أحد منهم أن نقد بعض الآراء أو القناعات والأفكار الصوفية يعني رد علم التصوف جملة وتفصيلاً، بل يرونه إسهاماً في إثراء هذا العلم، وإمداداً يهذب الفكر والسلوك.

---

(١) «مقدمة الطبقات الكبرى» (١/ ٣ـ ٤)

ولهذا حصل بين الصوفية أنفسهم اختلاف في كثير من المسائل العلمية، وذلك كاختلافهم في مسألة الرقص[1]، والسماع، والعزلة، وبعض مسائل الزهد، واختلافهم في تقييم بعض الشخصيات التاريخية المنتسبة إلى التصوف، إلى غيرها من المسائل التي اشتهر فيها الخلاف بينهم.

وقد كان موقف ابن تيمية في بعض تلك المسائل المختلف فيها يميل إلى الدفاع عن القول الذي يبدو أكثر تصوفاً، حسب فهم الناقمين على الصوفية.

من ذلك مسألة الغشيان التي تطرأ على بعض المتصوفة عند السماع أو الذكر أو الاصطلام والفناء، فقد أنكره بعض العلماء السابقين بحجة أنه بدعة لم تكن معروفة عند الصحابة.

وهذه حجة لها مذاقها عند معاصرينا الذين يدعون أنهم على طريقة ابن تيمية.

لكن ابن تيمية لم يكن يتذوقها على الإطلاق.

فقال ـ بعد أن أشار إلى قول من رأى أن الغشيان بدعة ـ: «والذي عليه جمهور العلماء أن الواحد من هؤلاء إذا كان مغلوباً عليه لم ينكر عليه، وإن كان حال الثابت أكمل منه». [2]

وقال: « فهذه الأحوال التي يقترن بها الغشي أو الموت أو الجنون أو السكر أو الفناء حتى لا يشعر بنفسه ونحو ذلك، إذا كانت أسبابها مشروعة، وصاحبها صادقاً عاجزاً عن دفعها كان محموداً على ما فعله من الخير وما ناله من الإيمان، معذوراً فيما عجز عنه وأصابه بغير اختياره، وهم أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لنقص إيمانهم

---

(١) المراد بالرقص عند الصوفية هو التمايل عند الذكر، ولا يراد به الرقص المعروف اليوم.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٨)

وقسوة قلوبهم، ونحو ذلك من الأسباب التي تتضمن ترك ما يحبه الله أو فعل ما يكرهه الله، ولكن من لم يزل عقله مع أنه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم أو مثله أو أكمل منه فهو أفضل منهم».[1]

والمقصود أن رد بعض المسائل الصوفية لا يعني رد التصوف بعمومه، ونقدها ليس نقداً للتصوف، ومهما كانت حدة الرد فإنه لا يشكل خصومة مع الصوفية.

وقد اعتاد علماء التصوف على الاختلاف فيما بينهم ـ كما قلنا ـ واختلفت وجهات نظرهم في مسائل كثيرة، بعضهم يعدها من التصوف، والبعض الآخر ينفي.

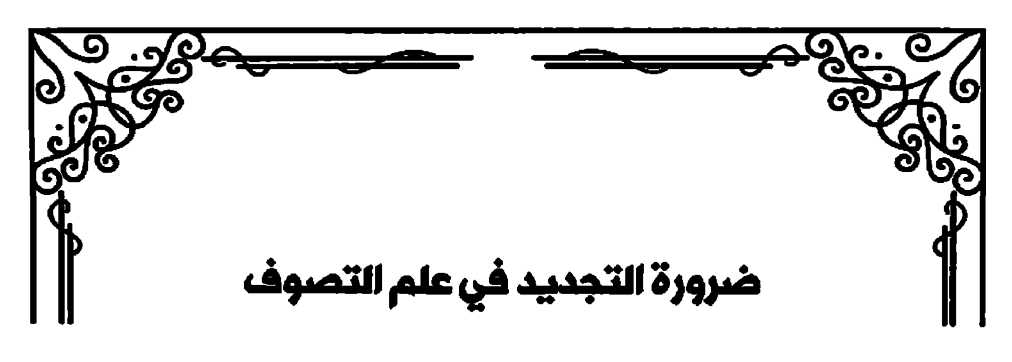
وفي «الرسالة القشيرية» وغيرها نلحظ عدداً غير قليل من وجهات النظر المختلفة في التصوف بين أربابه وأئمته.

مخطئ من يتوهم أن رد مسألة أو مسائل على الصوفية يعني نسف التصوف أو رفضه.

أقول هذا، لأني رأيت بعض الواهمين يظن أن رد ابن تيمية لبعض مسائل التصوف يعني أنه خصم مناوئ للصوفية!



(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٢)



ضرورة التجديد في علم التصوف

كان ابن تيمية يرى أن التصوف ـ كغيره من العلوم ـ بحاجة ماسة إلى التجديد، وأن كثيراً من المتصوفة المتأخرين ذهبوا بعيداً عن التصوف الذي يزن كل شيء بالشرع، كما هو حال كثير من المتفقهة وأصحاب الرأي، وغيرهم.

ومن الطبيعي المعهود أن العلوم يصيبها الضعف والتراجع والبعد عن أصولها، وهذا التراجع يوجب التجديد وإعادة بناء الفروع على الأصول، ليبقى العلم قادراً على الاستمرار والعطاء، ولا يجوز رفضه بسبب هذا التراجع، أو عده من الخرافات والبدع، بل يجب تنقيته وتخليصه مما شابه.

هذه هي وظيفة العلماء المجددين، أما الاستئصاليون الذين لا يجيدون إلا البتر وإلقاء العلوم الأصيلة وجهود السلف الماضين وراء ظهورهم فهم مفسدون ولا يمكن أن يكونوا مصلحين مجددين.

إن العالم هو الذي يتعامل مع تراجع العلوم بمعيار واحد، أما الذي يرى حتمية التصحيح والتجديد في علم، ويتجاهله في علم آخر لطرو بعض المخالفات والبدع عليه فهو يكيل بمكيالين، ولا يسلك منهجاً علمياً، بل هو انتقائي ركبه هواه.

إن الدواعي إلى وجوب التجديد في الفقه وفي التوحيد وفي التفسير هي نفسها

الدواعي إلى وجوب التجديد في التصوف، ليعود إلى أصوله، كما تعود تلك العلوم إلى أصولها.

ولهذا لاحظ ابن تيمية هذا التراجع في التصوف، كما لاحظه في الفقه وغيره.

ومما قاله بهذا الصدد: «ثم المتقدمون الذين وضعوا طرق الرأي والكلام والتصوف، وغير ذلك كانوا يخلطون ذلك بأصول من الكتاب والسنة والآثار، إذ العهد قريب، وأنوار الآثار النبوية بعد فيها ظهور ولها برهان عظيم، وإن كان عند بعض الناس قد اختلط نورها بظلمة غيرها، فأما المتأخرون فكثير منهم جرد ما وضعه المتقدمون، مثل من صنف في الكلام من المتأخرين، فلم يذكر إلا الأصول المبتدعة، وأعرض عن الكتاب والسنة، وجعلهما إما فرعين، أو آمن بهما مجملاً، أو خرج به الأمر إلى نوع من الزندقة، ومتقدمو المتكلمين خير من متأخريهم، وكذلك من صنف في الرأي فلم يذكر إلا رأي متبوعه وأصحابه، وأعرض عن الكتاب والسنة، ووزن ما جاء به الكتاب والسنة على رأي متبوعه، ككثير من أتباع أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، وغيرهم، وكذلك من صنف في التصوف والزهد جعل الأصل ما روي عن متأخري الزهاد، وأعرض عن طريق الصحابة والتابعين». [1]

فالمعيار عند ابن تيمية في النظر إلى هذه العلوم (الفقه والكلام والتصوف) واحد، ولا أظن أحداً يفهم من حديثه عن تراجع الفقه، أنه يرفض الفقه ويعادي الفقهاء، كما يفسرون كلامه في التصوف.

هذه اللغة التي تحدث بها ابن تيمية عن تراجع التصوف ـ أو بالأحرى

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٦٦ـ٣٦٧)

تراجع المتصوفة ـ هي لغة ومنطق عامة علماء الصوفية وشيوخهم الكبار المتبوعين.

لقد نطقوا بها قبل أن يخلق الله ابن تيمية بدهور، وجرى عليها أئمتهم في جميع العصور.

لما سئل أبو الحسن البوشنجي عن التصوف، فقال: «اسم ولا حقيقة، وقد كان قبل حقيقة ولا اسم». (١)

وسئل الإمام العارف أحمد الرفاعي عن التصوف، فقال للسائل: تسألنا عن تصوفنا أو تصوفكم؟ فقال: يا سيدي كانت مسألة فصارت اثنتين، اشرحهما لي، فقال: أما تصوفكم أنتم فهو أن تصفي أسرارك، وتطيب أخبارك، وتطيع جبارك، وتقوم ليلك وتصوم نهارك، وأما تصوف القوم، فكما قيل:

ليس التصوفُ بالخرقْ	من قال هذا قد مَرَقْ
إن التصوفَ يا فتى	حرق يمازجها قَلَقْ (٢)

فهذان اثنان من أشهر شيوخ الصوفية المتبعين في التاريخ الإسلامي لاحظا هذا التراجع في التصوف، وتبعهما ابن تيمية، ففعل كفعلهما، وحاول تجديد التصوف، كما حاولا وحاول غيرهم من الأئمة والعلماء.

وجل ما كتبه أبو حامد الغزالي يدور في هذا الفلك، وكذلك ما كتبه الإمام أحمد زروق في «عدة المريد الصادق، و«قواعد التصوف»، وما كتبه الإمام الشعراني في كثير من كتبه، وغيرهم كثير.

---

(١) «طبقات الصوفية»(ص٣٤٣)

(٢) «طبقات الأولياء»(ص٩٥)

وهذا هو الذي دعا الإمام القشيري إلى تأليف رسالته المشهورة.

قال في مقدمته بعد ذكره لمكانة الصوفية: «ثم اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم، ولم يبق في زماننا من هذه الطائفة إلا أثرهم، كما قيل:

أمَّا الخيامُ فإنَّها كخيامِهم وأرى نساءَ الحيِّ غيرَ نسائِها

حصلت الفترة في هذه الطريقة، لا، بل اندرست الطريقة بالحقيقة، مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء، وقل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء، وزال الورع وطوى بساطه، واشتد الطمع وقوى رباطه، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام، وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات، وركنوا إلى اتباع الشهوات وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات، والارتفاق بما يأخذونه من السوقة، والنسوان، وأصحاب السلطان، ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال، وأنهم قائمون بالحق، تجري عليهم أحكامه، وهم محو، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية، واختطفوا عنهم بالكلية، وزالت عنهم أحكامه للبشرية، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا، بل صرفوا».

وتابع قائلاً: «ولما طال الابتلاء فيما نحن فيه من الزمان بما لوحت ببعضه

من هذه القصة وكنت لا أبسط إلى هذه الغاية لسان الإنكار، غيرةً على هذه الطريقة أن يذكر أهلها بسوء، أو يجد مخالف لثلبهم مساغاً، إذ البلوى في هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة، ولما كنت أؤمل من مادة هذه الفترة أن تنحسم، ولعل الله سبحانه يجود بلطفه في التنبيه لمن حاد عن السنة المثلى في تضييع آداب هذه الطريقة، ولما أبى الوقت إلا استصعاباً، وأكثر أهل العصر بهذه الديار إلا تمادياً فيما اعتادوه، واغتراراً بما ارتادوه، أشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر على هذه الجملة بني قواعده، وعلى هذا النحو سار سلفه، فعلقت هذه الرسالة إليكم أكرمكم الله، وذكرت فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة في آدابهم، وأخلاقهم، ومعاملاتهم، وعقائدهم بقلوبهم، وما أشاروا إليه من مواجيدهم، وكيفية ترقيهم من بدايتهم إلى نهايتهم، لتكون لمريدي هذه الطريقة قوة، ومنكم لي بتصحيح شهادة، ولي في نشر هذه الشكوى سلوة، ومن الكريم فضلاً ومثوبة». [١]

ولأن رسالة القشيري هذه خطوة في طريق التجديد، ومحاولة لإعادة السالكين إلى أصلي التصوف، وهما الكتاب والسنة، بدأها بالتنبيه على أن «شيوخ هذه الطريقة بنوا قواعدهم على أصول صحيحة في التوحيد، صانوا بها عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد». [٢]

ثم عاد في أواخر الرسالة ليؤكد على أن خواص أهل السنة من الزهاد إنما اختاروا اسم «التصوف» مخالفةً لأهل البدع. [٣]

---

(١) «الرسالة» (ص٣٦ـ٣٨)

(٢) «الرسالة» (ص٤١)

(٣) «الرسالة» (ص٣٨٩)

لقد بدأت الثورة على جهلة المتصوفة منذ يوم التصوف الأول، فأدرك العلماء أن التجديد لا بد أن يكون مصاحباً للتعليم، ولم تأتِ الأيام بابن تيمية إلا وقد خاض علماء الصوفية مع أدعياء التصوف معارك ضارية في سبيل الحفاظ على نقاء هذا العلم.

كل ما فعله ابن تيمية هو أنه أخذ الراية، وقام بالدور المنوط به كعالم معترف بالتصوف كاعترافه بسائر العلوم الإسلامية.

ولهذا ركَّز في مسيرة الإحياء الصوفي على نقاط، من أهمها:

- تحديد معناه عند أهله.

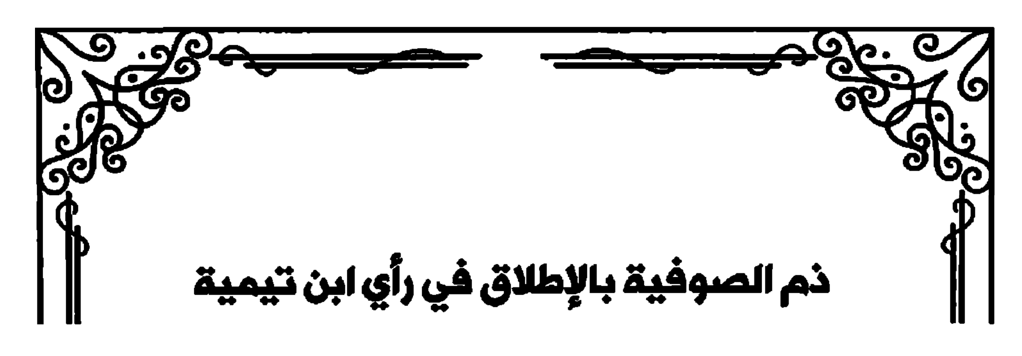
- بيان شروطه وأصله وضوابطه.

- الرد على الذين يذمون التصوف بإطلاق.

- بيان أن المنتسبين إليه من الجهلة والملحدين والبطالين ليسوا صوفية وإن ادعوا ذلك.

وكلها جهود تهدف إلى خدمة هذا العلم والذود عنه، لا إلى محاربته ومحاولة القضاء عليه، كما يسعى إليه - بغير وعي - إخوتنا الذين يظنون أنهم على خطى ابن تيمية سائرون، ولا يدرون أن الشياطين قد اجتالتهم فشرقت وغربت بهم حتى أضلتهم الطريق.

* * *



ذم الصوفية بالإطلاق في رأي ابن تيمية

يرى ابن تيمية أن التصوف كغيره من العلوم دخل فيه ما ليس منه، وامتدت إليه أيدي العابثين، كما امتدت إلى الفقه والحديث والتفسير وغيرها من العلوم.

وكي يحترز عن التصوف الذي يعتقده أو يمارسه هؤلاء العابثون فإنه يسميه بـ «التصوف الشرعي». [1]

وإزاء هذه الحقيقة يرى أن من الواجب على العالم تنقية هذا العلم الشريف مما علق به، كما يجب تنقية غيره من العلوم مما علق بها مما ليس منها.

ويدرك ابن تيمية أن فئة ممن يتحدثون في العلوم لا يمتلكون القدرة الذهنية على الفرز والتمييز، فيلجؤون إلى الاستئصال وذم العلوم جملة وتفصيلاً لكي يريحوا أذهانهم من عناء النظر والبحث والتحقيق، محتجين بوقوع الغلط في العلم على فساد العلم كله.

وهو منهج دخيل على العلم لا يختلف ضرره عن ضرر المفسدين للعلوم الذين أدخلوا فيها ما ليس منها، بل ربما كان ضررهم أكبر.

ولهذا يعلنها ابن تيمية صريحة ويؤكد أن ذم التصوف بالإطلاق مرفوض، فيقول وهو يتحدث عن الرسالة القشيرية ومنهجيته في نقد ما فيها من الأخطاء ـ كما

---

(١) انظر «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ١٣٢)

يرى ـ: «فكتبت من تمييز ذلك ما يسره الله، واجتهدت في اتباع سبيل الأمة الوسط الذين هم شهداء على الناس، دون سبيل من قد يرفعه فوق قدره في اعتقاده وتصوفه على الطريقة التي هي أكمل وأصح مما ذكره علماً وحالاً وقولاً وعملاً واعتقاداً واقتصاداً، أو يحطه دون قدره فيهما، ممن يسرف في ذم أهل الكلام، أو يذم طريقة التصوف مطلقاً».[1]

ويقول: «والتحقيق فيه (يعني التصوف) أنه مشتمل على الممدوح والمذموم، كغيره».[2]

وتأمل قوله «كغيره»، فهو يتحدث عن التصوف كما يتحدث عن سائر العلوم الشرعية، ويرى أنها كلها دخل فيها ما يستحق الذم، ويستوجب التجديد والتمييز.

وينص في موضع آخر على أن الصوفية كغيرها من طوائف العلماء ـ بل والصحابة والتابعين ـ فيهم المصيب والمخطئ، ويشير إلى أنه لا يجوز أن نضعهم جميعاً في سلة واحدة.

ويحاول لفت الانتباه إلى أن وجود الخطأ في بعض الصوفية عادة جارية في جميع البشر بمن فيهم الصحابة رضي الله عنهم الذين خالطوا الرسول ﷺ وشهدوا الوحي والنبوة، ففيهم المصيب والمخطئ كما هو حال الصوفية، وكما هو حال التابعين وسائر العلماء.

فيقول: «والصوفية يوجد فيهم المصيب والمخطئ، كما يوجد في غيرهم،

---

(١) «الاستقامة» (ص٥٧)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٧٠)

وليسـوا فـي ذلك بأجل مـن الصحابـة والتابعيـن، وليس أحـد معصوماً فـي كل ما يقوله إلا رسـول الله ﷺ».[1]

ما أروع إنصاف هذا العالم العظيم، وما أبعد الذين يدعون أنهم على طريقته من هذا المنهاج الذي خطه بمداده الخالد، وبأنفاسه الزاكية.

يتحدث في موضع آخر عن المبالغة في نقد الصوفية كما يقع من كثير من المتكلمين، فيقول: «ونجد أهل العلم والكلام مبالغين في ذم أهل السماع، كما نجده في كلام أبي بكر بن فورك، وكلام المتكلمين في ذم السماع، وأهله، والصوفية، ما لا يحصى كثرة».[2]

ويتحدث عن التعصب الذي يدفع بأصحابه إلى رد ما عند الطرف الآخر من الحق، فيقول: «كما رأيته لكثير من الفقهاء، أو لأكثر المتأخرين في مسائل الفقه، وكذلك رأيت الاختلاف كثيراً بين بعض المتفقهة، وبعض المتصوفة، وبين فرق المتصوفة».[3]

ويكرر في موضع آخر التأكيد على أنه لا يحل رد التصوف مطلقاً، فيقول: «ولهذا تجد تنافراً بين الفقهاء والصوفية، وبين العلماء والفقراء من هذا الوجه، والصواب أن يحمد من حال كل قوم ما حمده الله ورسوله، كما جاء به الكتاب والسنة، ويذم من حال كل قوم ما ذمه الله ورسوله، كما جاء به الكتاب والسنة».[4]

---

(١) «الاستقامة» (ص٩٥)

(٢) «الاستقامة» (ص١٢٧)

(٣) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ١٥١ ـ ١٥٢)

(٤) «الاستقامة» (١/ ٢٢١)

ويعلن النكير على التنافر والتباغض الذي وقع بين الفقهاء والمتكلمين والصوفية، ويعده خروجاً عن الصراط المستقيم فيقول: «وكذلك بين أهل الكلام والرأي وبين أهل التصوف والزهد تنافر وتباغض، وهذا من الخروج عن الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً». [١]

وهي لعمر الله شهادة من هذا الإمام على بُعْد معاصرينا ـ المدعين أنهم على طريقته ـ من الحق ومن الصراط المستقيم.

فليت هؤلاء الذين قضوا أعمارهم في التحذير والتنفير من الصوفية والتصوف يسمعون أو يعون، ويدركون مدى بُعدهم عن منهج هذا العالم الكبير، ويتفطنون إلى أن الهوى والتعصب قد ذهبا بهم أدراجاً بعيدة.

يشدد ابن تيمية على هؤلاء الإقصائيين الذين يرفضون الآخرين ولا يعترفون بجهود الصوفية وعلومهم، فيقول: «وأنت تجد كثيراً من المتفقهة إذا رأى المتصوفة والمتعبدة لا يراهم شيئاً، ولا يعدهم إلا جهالاً ضلالاً، ولا يعتقد في طريقهم من العلم والهدى شيئاً، وترى كثيراً من المتصوفة، والمتفقرة لا يرى الشريعة والعلم شيئاً، بل يرى أن المتمسك بها منقطعاً عن الله وأنه ليس عند أهلها مما ينفع عند الله شيئاً». [٢]

وكأنه رحمه الله يرد على معاصرينا الذين يتمسحون به وبطريقته الذين لا يرون الصوفية إلا جهالاً ضلالاً.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ١٠١ ـ ١٠٢)

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٩١)

كم أتمنى أن يقف هؤلاء عند هذا النص متمعنين منصفين متحررين من التعصب ليدركوا أن موقفهم هذا في نظر ابن تيمية هو عين الجهل والهوى.

لم يكن ابن تيمية عدمياً في نظرته إلى الصوفية، بل كان ينظر إليهم بعين الشريعة، فرأى أنه من التعصب ومن العيب جعلهم في مرتبة واحدة والزج بهم في قائمة المبتدعة الزائغين، فلم يكن يدع مناسبة حتى يعلن فيها النكير على من يستدل بخطأ أو بدعة من جماعة أو طريقة صوفية أو منتسب إليهم فيعممه على الصوفية.

ولهذا كان رحمه الله يقسم الصوفية إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: صوفية أهل الحديث.

فيقول فيهم: «وهم خيارهم، وأعلامهم».

والقسم الثاني: صوفية أهل الكلام.

وهم دون الأولين، كما يرى.

والقسم الثالث: صوفية الفلاسفة.

وهؤلاء ملاحدة ـ كما يقول ـ وهم في الحقيقة ليسوا من الصوفية وإن انتسبوا إليهم، كما سيأتي الجزم بهذا من كلامه صريحاً. [(١)]

وهذا التقسيم ليس ببدعة تيمية، وليس بفتح خصه الله به، بل سبقه إليه عامة الصوفية.

فقد رأيت منزلة الكتاب والسنة في التصوف، وعلمت أن كل خاطر أو حال يخالفهما لا قيمة له عندهم جميعاً.

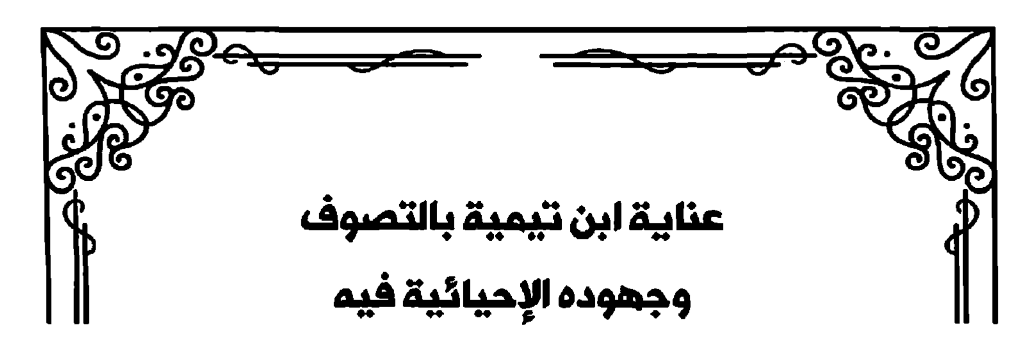
---

(١) انظر «الصفدية» (١/ ٢٦٧)

وعليه فقيمة تصوف أهل الكلام في نظر الصوفية متوقفة على قربه وبعده من الكتاب والسنة.

وأما تصوف الفلاسفة، فقد شن الصوفية عليه حرباً ضروساً، وسأشير إلى شيء منه قريباً.

* * *



عناية ابن تيمية بالتصوف وجهوده الإحيائية فيه

لقد منح ابن تيمية للتصوف وقتاً طويلاً من عمره المليء بالإنجازات الضخمة، وكان حريصاً على خدمة هذا العلم ليبقى صافياً نقياً، ولكنه في الوقت نفسه كان متيقظاً لفهوم السطحيين الذين يظنون أن نقد جزئية في علم من العلوم تعني نقد العلم بجملته ورفضه، ويتخيلون أن نقد الدخلاء والجهلة الذين يتحدثون باسم التصوف ويترسمون برسومهم يعني نقد الصوفية جميعاً.

فكان يقرن ما يوجد في الصوفية من مخالفات الجهلة المنتسبين إليهم بما يوجد لدى غيرهم من الطوائف كالفقهاء والمحدثين وغيرهم، وكأنه يقول لا تظنوا أن نقدي لبعض جهلة الصوفية خصومة مع التصوف أو الصوفية، فأنا أيضاً أنقد جهلة المتفقهة، وجهال أهل الحديث، وأسعى لتطهير التصوف مما علق به، كما أسعى لتطهير الفقه والحديث مما علق بهما.

يقول بعد أن أشار إلى شيء من مخالفات بعض جهلة المتصوفة: «فهذا وأمثاله من البدع والضلالات يوجد في المنتسبين إلى طريق الفقر، كما يوجد في المنتسبين إلى العلم أنواع البدع في الاعتقاد والكلام المخالف للكتاب والسنة». [1]

وينوه إلى أن كثيراً من المتفقهة والمتكلمة قد يوجب على المتصوفة والمتفقرة

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٨)

اتباع مذهبه المعين، وأن كثيراً من المتصوفة يرى مثل ذلك في متبوعه.[1]

ووجه النقد في موضع آخر إلى طوائف من الفقهاء والمتكلمين والصوفية وغيرهم على حد سواء، فقال: «... وذلك أن قوماً كثيراً من الناس من المتفقهة، والمتصوفة، والمتكلمة، وغيرهم ظنوا أن الجنة ليست إلا التنعم بالمخلوق».[2]

ويقول: «كل علم دين لا يطلب من القرآن فهو ضلال، كفاسد كلام الفلاسفة، والمتكلمة، والمتصوفة، والمتفقهة».[3]

ويقول: «ومعنى الكهانة والشعر موجود في كثير من المتفلسفة، والمتصوفة، والمتكلمة، والمتفقهة، والعامة، والمتفقرة، الخارجين عن الشريعة، الذين يتكلمون بالغيوب عن كهانة، ويحركون النفوس بالشعر، ونحوه».[4]

ويقول: «فالقياس والرأي والذوق هو عامة خطأ المتكلمة، والمتصوفة، وطائفة من المتفقهة، وتأويل النصوص الصحيحة أو الضعيفة عامة خطأ طوائف المتكلمة، والمحدثة، والمقلدة، والمتصوفة، والمتفقهة».[5]

وأحياناً يقرن بجهال الصوفية جهالَ أهل الحديث، فيقول في سياق حديثه عن كون الكتاب والسنة مشتملين على كل ما يجب على المسلم اعتقاده: «وإنما يظن عدم اشتمال الكتاب والحكمة على بيان ذلك من كان ناقصاً في عقله وسمعه ومن له نصيب من قول أهل النار الذين قالوا ﴿لَوْكُنَّا نَسْمَعُ أَوْنَعْقِلُ مَا

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٣١)

(٢) «الاستقامة» (ص٣٢٤)

(٣) «الاستقامة» (ص٢٥)

(٤) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٥٣)

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٧٤)

﴿كَأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وإن كان ذلك كثيراً في كثير من المتفلسفة، والمتكلمة، وجهال أهل الحديث، والمتفقهة، والمتصوفة». [1]

وهذا كثير في كلامه.

ومما يؤكد - بوضوح - أن ابن تيمية كان يتحاشى أن يفهم أحد أن نقده لجهلة الصوفية يعني الحط من الصوفية عموماً أنه أحياناً يحشر المتفقهة مع المتصوفة بدون أي مناسبة في السياق ولا في الموضوع، وإنما يأتي على ذكرهم لمجرد هذا التنبيه.

ومن أوضح الأمثلة عليه أنه سئل عن الأوقاف على الصوفية، وأجاب بالفتوى التي قدمنا ذكرها سابقاً، والسؤال إنما كان عن الوقف على الصوفية، ولم يذكر الفقهاء ولا المتفقهة.

بعد نصه على أن الصوفي الذي يستحق الوقف شرطه أن يكون ملازماً للآداب الشرعية، نبه على أنه لا عبرة بالآداب التي أحدثها بعض المتصوفة، ثم انتقل مباشرة إلى المتفقهة ليقول لهم أنتم أيضاً مخطئون في الجانب الآخر لإهداركم الآداب المشروعة.

يقول: «ولا يلتفت إلى ما أحدثه بعض المتصوفة من الآداب التي لا أصل لها في الدين من التزام شكل مخصوص في اللبسة، ونحوها مما لا يستحب في الشريعة، فإن مبنى الآداب على اتباع السنة، ولا يلتفت أيضاً إلى ما يهدره بعض المتفقهة من الآداب المشروعة يعتقد - لقلة علمه - أن ذلك ليس من آداب الشريعة». [2]

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ٢٨) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٩٦)

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٥٥)

لقد وقف ابن تيمية سداً منيعاً أمام كل الذين يحاولون تكدير العلوم الشرعية ومزجها بجهالاتهم، سواء كانوا متسبين إلى التصوف أو منتسبين إلى الفقه، أو منتسبين إلى الحديث، فكما أن نقده للمنتسبين إلى الفقه والحديث لا يعني رفضه لهذين العِلْمَيْنِ الذَيْنِ كان فيهما إماماً بارعاً، فإن نقده للمنتسبين إلى التصوف لا يعني رفضه لهذا العلم الذي كان فيه ـ أيضاً ـ راسخ القدم ضليعاً.

إن أهم معالم مسيرة ابن تيمية في الإصلاح الديني تتجلى في جهوده الجبارة لصيانة علوم الشريعة مما أُدخل فيها، ولهذا لم يكن يجامل أحداً فيها، لا صوفياً، ولا فقيهاً، ولا محدثاً، ولا مفسراً.

ويرى أن الفقه والحديث ليسا بأحسن حالاً من التصوف من جهة انتساب من ليس منهما إليهما، وأن الفقه والحديث قد انتسب إليهما أهل الأهواء والبدع، كما انتسبوا إلى التصوف.[1]

في إحدى مناظراته قال له أحد الشيوخ: إن أحمد بن حنبل إمام عظيم، ولكن قد انتسب إليه أناس ابتدعوا أشياء.

فقال له ابن تيمية: «أما هذا فحق، وليس هذا من خصائص أحمد، بل ما من إمام إلا وقد انتسب إليه أقوام هو منهم بريء، قد انتسب إلى مالك أناس مالك بريء منهم، وانتسب إلى الشافعي أناس وهو منهم بريء، وانتسب إلى أبي حنيفة أناس هو بريء منهم».[2]

وقد لفت النظر إلى هذا التنبيه عدة مرات، لعلمه بمدى الخطأ الذي يقع فيه

---

(١) انظر «منهاج السنة» (٧/ ٢١١)

(٢) انظر «العقود الدرية» لابن عبد الهادي (ص١٩٤)

القاصرون الذين تشتبه عليهم البينات الواضحات، ويؤكد على أن انتساب أدعياء التصوف إلى أئمة الصوفية لا يمنحهم صفة الصوفي.

وعليه فلا يجوز أن تنسب البدع والخزعبلات التي يقع فيه بعض المتصوفة الجاهلين إلى هذا العلم الشريف ولا إلى أئمة الصوفية، مهما تبجح أصحابها بالانتساب إلى هذه الطائفة العلية.

يقول: «فكما أن أولئك الأئمة الفقهاء برءاء من بدع أهل الكلام ـ فضلاً عن بدع الفلاسفة من الباطنية ونحوهم ـ فكذلك المشايخ الصوفية برءاء من بدع أهل التصوف، فضلاً عن بدع من دخل فيهم من المتفلسفة، وغيرهم، فهذا أصل عظيم ينبغي معرفته». (١)

ويقول ـ وهو بصدد حديثه عن بعض الانحرافات الفكرية التي ينتسب أصحابها إلى التصوف ـ: «هذا وشيوخ التصوف المشهورون من أبرأ الناس من هذا المذهب، وأبعدهم عنه، وأعظمهم نكيراً عليه وعلى أهله». (٢)

إن ابن تيمية يعطينا درساً مفاده أن انتساب بعض الخرافيين أو السحرة أو المشعوذين إلى التصوف لا يعني أن التصوف فكر خرافي، بل التصوف وعلماء الصوفية بريؤون منهم، كما برأ الأئمة الأربعة ممن انتسب إليهم زوراً.

هذا أصل يؤصله ابن تيمية، وليس مجرد كلام عابر.

فالانتساب إلى إمام أو إلى علم مجرد دعوى لا تقبل إلا بالتزام الأصول والمناهج والمشارب، ولو كان مجرد دعوى الانتساب إلى العلوم أو الأئمة

---

(١) «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ١٧٠)

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (٥/ ٤)

مقبولـة لأدخلنا في سـائر العلـوم النطيحة والمترديـة وما عافته السـباع والجوارح.

هذا النوع من المتصوفة والمتفقهة وغيرهم وإن كانوا متعصبين لطوائفهم المنتسبين إليها إلا أنهم في الحقيقة بعيدون كل البعد عن أئمة هذه الطوائف وعن توصياتهم وتعاليمهم، بل هم على سنن اليهود الذين لا يقبلون الحق إلا من الطائفة المنتسبين إليها.

يقول رحمه الله: «وهذا يبتلى به كثير من المنتسبين إلى طائفة معينة في العلم، أو الدين، من المتفقهة، أو المتصوفة، أو غيرهم، أو إلى رئيس معظم عندهم في الدين غير النبي ﷺ، فإنهم لا يقبلون من الدين رأياً ورواية إلا ما جاءت به طائفتهم، ثم إنهم لا يعلمون ما توجبه طائفتهم، مع أن دين الإسلام يوجب اتباع الحق مطلقاً رواية ورأياً من غير تعيين شخص أو طائفة غير الرسول ﷺ». [1]

والمتتبع يلحظ أن ابن تيمية حين ينقد المتصوفة الدخلاء لا يطلق القول بل يقيده، إما بالجهلة منهم، أو بالغلاة، أو بالزنادقة المنتسبين إليهم.

وفي الغالب فإنه يسميهم «المتصوفة»، أو «المتزهدة»، أو «المتفقرة»، ونحوها من الألقاب التي تدل على الانتحال والادعاء.

وحديثه عن هؤلاء مشهور لمن له شيء من المعرفة بفكره وتراثه.

لقد وقعت على عاتق هذا العالم الموسوعي مسؤولية ضخمة، وذلك لتعدد مواهبه وغزارة علومه، ومعرفته معرفة عميقة بجميع علوم الشريعة، ورأى أنه كما لا يسعه السكوت عن جهلة الفقهاء لا يسعه السكوت عن جهلة الصوفية، وجهلة

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٨٦ ـ ٨٧)

المحدثين، وجهلة المفسرين، أعني المتسببين إلى هذه العلوم الذين تعنوا الحديث فيها قبل أن يستكملوا الأدوات.

وكان رحمه الله يرصد مواطن الخلل والخطأ، وينقدها أينما كانت، وفي أي جهة وقعت، ومن أي طائفة صدرت.

ولهذا جاء نقده للفقهاء، وللصوفية، وللمحدثين، متوازياً متقارباً.

وهذا واضح فيما قدمناه.

وأختم هذا الموضع بقوله رحمه الله: «غالب الفقهاء إنما يتكلمون به في الطاعات الشرعية مع العقلية، وغالب الصوفية إنما يتبعون الطاعات الملية مع العقلية، وغالب المتفلسفة يقفون على الطاعات العقلية، ولهذا كثر في المتفقهة من ينحرف عن طاعات القلب وعباداته، من الإخلاص لله، والتوكل عليه، والمحبة له، والخشية له، ونحو ذلك، وكثر في المتفقرة، والمتصوفة، من ينحرف عن الطاعات الشرعية». [1]

قف هنا مليّاً، وتأمّل.

ثم ـ أخيرا ـ يوصي رحمه الله بأنه يجب تنزيه السادة الصوفية عما أُدخل في علومهم ومعارفهم وإشاراتهم من الباطل، فيقول: «كان كثير من أرباب العبادة والتصوف يأمرون بملازمة الذكر، ويجعلون ذلك هو باب الوصول إلى الحق، وهذا حسن إذا ضموا إليه تدبر القرآن والسنة واتباع ذلك، وكثير من أرباب النظر والكلام يأمرون بالتفكر والنظر، ويجعلون ذلك هو الطريق إلى معرفة الحق، والنظر

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٧٢ ـ ٧٣)

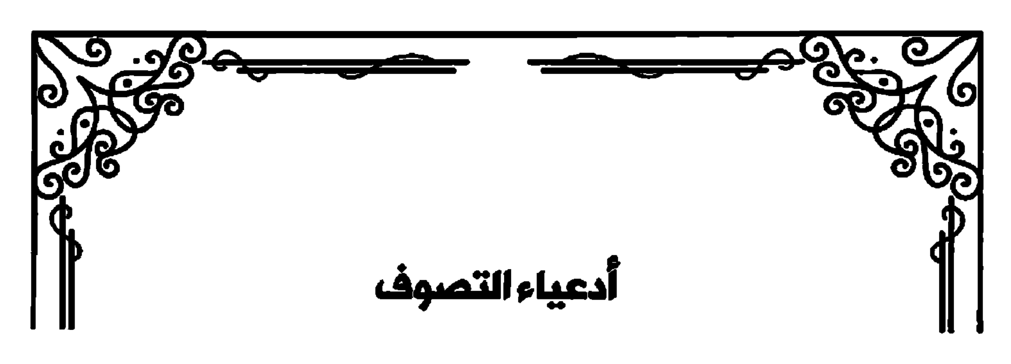
صحيح إذا كان في حق ودليل، كما تقدم، فكل من الطريقين فيها حق، لكن يحتاج إلى الحق الذي في الأخرى، ويجب تنزيه كل منهما عما دخل فيها من الباطل، وذلك كله باتباع ما جاء به المرسلون». [1]

قلت: إنها روح عالم، وحديث رباني، منصف يبتغي وجه الله، ولا يندفع وراء خصومات لا مبرر لها، وهذا أهم فارق بين المصلحين الربانيين، والراغبين في الفتنة والفرقة الذين ركبهم الشيطان فامتلك عقولهم وقلوبهم، وأصبحوا أسرى بين يديه.



---

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٠)



أدعياء التصوف

في حديثنا عن الوقف على الصوفية نبَّه ابن تيمية رحمه الله على أنه ليس كل من انتسب إلى الصوفية يُعدُّ منهم، فللصوفي شروط وآداب سبقت الإشارة إليها في كلامه.

فقد قرر أن مسمى «الصوفية» لا يدخل فيه إلا أهل العدالة في الدين، العاملون بالفرائض، والتاركون لما حرمت الشريعة، الملازمون للآداب السُّنية في غالب الأوقات، الزاهدون، القانعون من الحياة باليسير.

ثم قال: «وما دون هذه الصفات من المقتصرين على مجرد رسم في لبسة، أو مشية، ونحو ذلك، لا يستحقون الوقف، ولا يدخلون في مسمى الصوفية». [1]

فالتصوف في نظر ابن تيمية وصف عال لا يستحقه إلا الصفوة من السالكين، أرباب المجاهدات والأحوال والمقامات.

ليس التصوف مجرد معرفة تحصل بالقراءة أو الطلب، فهو ـ مع كونه علماً كبيراً ودقيقاً ـ سلوك ومنازل يقطعها السالك إلى الله.

وبهذا يفترق عن سائر العلوم، فالفقه، والحديث، والتفسير، وغيرها يمكن أن يُنسب إليها من ليس صالحاً تقياً في الجملة، بل قد يكون بعض علمائها

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٥٥ ـ ٥٦)

منسوباً إلى أعمال مشينة وأخلاق قبيحة، ومع ذلك يُعد عالماً من علماء ذلك الفن.

أما التصوف، فلا يجوز أن ينسب إليه من العلماء إلا خواص الصالحين من أهل الله.

وفي هذا يقول أبو الفتح البستي:

تنازع الناس في الصوفيِّ واختلفوا ... قِدْماً وظنوه مشتقاً من الصُّوفِ
ولستُ أنحلُ هذا الاسمَ إلا فتىً ... صافي فصُوفيَ حتى سُمِّيَ الصوفي

وهذا أمر مقرر عند العلماء معروف.

في «حاشية ابن عابدين»: «لفظ الصوفية إنما يراد به في العادة من كانوا على طريقة مرضية، أما غيرهم فليسوا منهم حقيقة». [1]

ويقول الحافظ جلال الدين السيوطي: «غير أنه دخل فيهم قديماً وحديثاً دخيل تشبهوا بهم، وليسوا منهم، وتكلموا بغير علم وتحقيق، فزلوا وضلوا وأضلوا، فمنهم من اقتصر على الاسم وتوسل بذلك إلى حطام الدنيا، ومنهم من لم يتحقق فقال بالحلول وما شابهه، فأدى ذلك إلى إساءة الظن بالجميع، وقد نبه المعتبرون منهم على هذا الخطب الجليل، ونصوا على أن هذه الأمور السيئة من ذلك الدخيل». [2]

وهذا هو ما يدندن حوله ابن تيمية.

إنه يرفض عدَّ المنحرفين فكرياً وسلوكياً في مسمى الصوفية، ويرى أن انتسابهم إلى التصوف من باب التشويش على المجتمع ومخادعة الأمة.

---

(١) «حاشية ابن عابدين»(٤/ ٤٥٧)

(٢) «تأييد الحقيقة العلية» للسيوطي(ص٤)

لفت النظر إلى هذا في مناسبات عديدة.

يقول: «وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم». [1]

وبناء عليه، فهو يرى أن القائلين بوحدة الوجود المنتسبين إلى الصوفية ليسوا منهم في الحقيقة.

وعلى هذا بنى كلامه في جميع المحطات التي تحدث فيها عن الحلاج وابن عربي وابن الفارض، ومن إليهم.

فهو حين ينقدهم أو يحذر من الأفكار المنسوبة إليهم لا يرى أنه يوجه كلامه إلى الصوفية، وإنما إلى أدعياء انتسبوا إلى هذه الطائفة العلية.

وهذا بنص كلامه.

يقول: «فإن ابن عربي وأمثاله وإن ادعوا أنهم من الصوفية فهم من صوفية الملاحدة الفلاسفة، ليسوا من صوفية أهل العلم، فضلا عن أن يكونوا من مشايخ أهل الكتاب والسنة». [2]

قسم ابن تيمية الصوفية إلى ثلاثة أقسام:

صوفية الحقائق، وهم الذين امتدحهم ووصفهم بالزهد والاجتهاد في طاعة الله.

وصوفية الأرزاق، وهم الذين وُقِفت عليهم الوقوف، فهؤلاء ـ كما ذكر ـ يأخذون من الأوقاف المسبَّلة على الصوفية بالشروط الثلاثة المتقدمة.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٨)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٣٣)

والصنف الثالث من الصوفية عنده: صوفية الرسم، وهم المقتصرون على النسبة، فهمهم في اللباس والآداب الوضعية، ونحو ذلك.

ثم نصَّ على أن هؤلاء ليسوا من الصوفية في حقيقة الأمر وإن انتسبوا إليهم، فقال: «فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم وأهل الجهاد ونوع ما من أقوالهم وأعمالهم، بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم، وليس منهم».[١]

ولما كان التصوف مقاماً معظَّماً ومُكرَّماً لدى الخاص والعام من المسلمين انتسب إليه كثير من الأدعياء الذين لا همَّ لهم إلا اتخاذه وسيلة للوصول إلى المال والجاه، وهو ما حذر منه أئمة الصوفية، وتبعهم في ذلك ابن تيمية.

ومما قاله: «كثير من أهل الربط والزوايا والمتظاهرين للناس بالفقر إنما يتخذون ذلك معيشة دنيوية».[٢]

ولهذا اشتد نكير الصوفية على هؤلاء الأدعياء، ولا يكاد يخلو كتاب من كتب التصوف من التحذير منهم، ومن أساليبهم التي يموهون بها لمخادعة أصحاب النيات الحسنة من المسلمين، لا سيما أصحاب الأموال والثراء منهم.

توجهت جهود ابن تيمية إلى قطع الطريق أمام هذين الصنفين من أدعياء التصوف، وهما: الفلاسفة الذين حاولوا عرض أفكارهم في قالب التصوف، وطلاب الدنيا الذين يحاولون الوصول إليها عبر الدروشة والتظاهر بالتصوف.

وكلا الفريقين ليس من الصوفية، وإن ادعى ذلك.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٩ ـ ٢٠)

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٧٧)

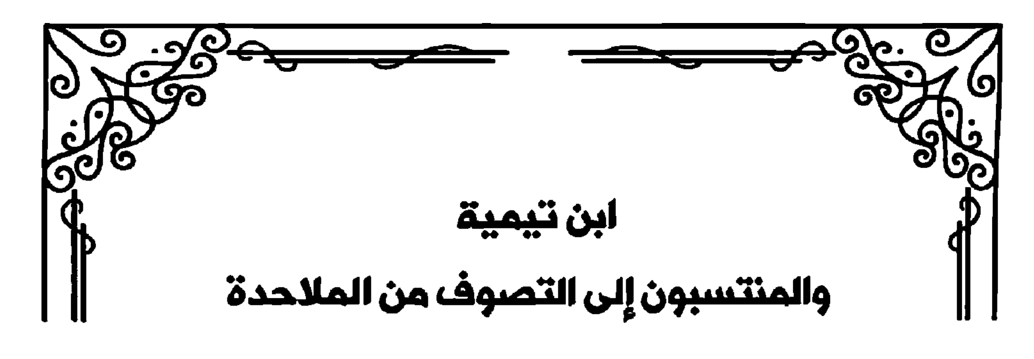
وما قاله منسجم تماماً مع ما قاله علماء الصوفية، فقد اتفقوا على أن القائلين بوحدة الوجود ونحوهم ليسوا من الصوفية، وإن انتسبوا إليها.

أي نعم، أكثر الصوفية لم يوافقوا ابن تيمية على موقفه من الشيخ محي الدين بن عربي، ورأوا أنه أحد أكبر الأولياء والصالحين، وهو الذي كان عليه علماء زمانه وأكثر العلماء الذين جاؤوا بعده.

وهم ينفون عنه هذه المقالة، ويوجهون كلامه الموهم توجيهاً حسناً.

لكنهم متفقون على أن التصوف لا يوصف به إلا أهل العدالة والسلامة في الفكر والمعتقد.





ابن تيمية
والمنتسبون إلى التصوف من الملاحدة

يؤكد شيخنا الإمام الناقد المنصف على أنه يوجد في المتفقهة، والمتصوفة، والمقاتلين في صفوف المجاهدين، وفي الحكام منافقون، كل يتستر بما يراه أقدر على تقمص الشخصية فيه، وأكثر تأثيراً لأداء مهمة الإفساد التي جند نفسه لها.

فيقول: «وفي المتنسبين إلى الإسلام من عامة الطوائف منافقون كثيرون في الخاصة والعامة، ويسمون الزنادقة، ويوجدون في المتصوفة، والمتفقهة، وفي المقاتلة، والأمراء، وفي العامة أيضا، ولكن يوجدون كثيرا في نحل أهل البدع، لا سيما الرافضة، ففيهم من الزنادقة والمنافقين ما ليس في أحد من أهل النحل». [1]

يقف خصوم الصوفية أمام هذا النص ولا يرون منه إلا ذكره للمنافقين المندسين في صفوف أهل التصوف، ويتجاهلون ذكره للمنافقين المندسين في صفوف المتفقهة، وفي صفوف المجاهدين، وفي صفوف الحكام، ويجعلون من هذه الكلمة منطلقاً للنيل من الصوفية فحسب، ثم بعد ذلك لعلك تراهم يرمون مخالفيهم باتباع الهوى!

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٣٥)

وكلام ابن تيمية ظاهر لا يحتاج إلى شرح، فهو يتحدث عن الكائدين للدين الذين يتسللون من ثغرات مختلفة، بحسب ما تتيحه لهم الظروف، ولا يتحدث عن علم التصوف، ولا عن الصوفية المخلَصين.

إنه يحذر من الانخداع بالمظاهر الزائفة، ويدرك أن الكائدين للدين سيحاولون الاندساس في صفوف الأمة والتظاهر بالعلم والنسك، لكي تروج بضاعتهم الكاسدة، فيقول: «فلا ريب أن في المتصوفة، والمتفقهة، وغيرهما، من هو صديق، ومن هو زنديق».[1]

إنها صيحة نذير، يدرك ما للتصوف من قيمة روحية لدى المجتمعات الإسلامية، خبير بوسائل الفاسدين الذين يأتون الناس من حيث يحبون، ولا أحبَّ إلى المجتمعات الإسلامية من التصوف الذي يمثل روح الإسلام وجوهره، فيستغل هؤلاء هذه الثقة المطلقة فيرتدون زي التصوف، ويحاكونهم في إشاراتهم وفي سمتهم، ويدسون السم القاتل في عبارات الزهد والتنسك والتصوف، وأحياناً في عبارات الفقه والاستنباط ودعوى العمق في مقاصد الشريعة وأسرارها.

حتى أصبح لفظ «التصوف» عند المتأخرين ـ كما يرى ابن تيمية ـ مكسواً بكساء الإجمال، وذلك لكثرة المدعين ممن لم يأخذوا عن المشايخ ولم يتعنَّوا مجاهدات أهل الطريقة، ويسلكوا سبيلهم، ويذوقوا مواجيدهم، هؤلاء الذين ألصقوا بالتصوف الكثير من الجهالات والفلسفات التي لبَّدت سماء التصوف وحجبت جوانبَ منه، فغدا مشتبهاً ودخل فيه ما ليس منه.

---

(١) «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ١٠٧)

في رده على أبي الحسن الشاذلي يقول ابن تيمية: «وقد صار لفظ الصوفية لفظاً مجملاً، يدخل فيه من هو صديق، ومن هو زنديق، فإن من صدق الرسول فيما أخبر وأطاعه فيما أمر، إذا حقق ذلك صار صديقاً، ومن أعرض عن خبره وأمره حتى أخبر بنقيض ما أخبر، وأمر بخلاف ما أمر، فإنه يصير زنديقاً، وهذا حال الملاحدة الذي ينتسبون إلى الصوفية». [1]

وفي كتابه «الصفدية» ذكر أن ابن سبعين ومن إليه إذا ذكروا لقب الصوفي فهم «يعنون المتصوف على طريقة الفلاسفة، ليس هو الصوفي الذي على مذهب أهل الحديث والكتاب والسنة، فلفظ الصوفي صار مشتركاً، فهؤلاء القائلون بالوحدة إذا قالوا الصوفي يريدون به هذا». [2]

وذكر مذهب الاتحادية، ثم قال: «كما يقول ذلك من يقوله من الملاحدة الباطنية المتسبين إلى التشيع والمتسبين إلى التصوف». [3]

ويقول: «ومن قال من الملاحدة المتسبين إلى التصوف والتحقيق، كابن سبعين، والصدر القونوي، وغيرهما إنه وجود مطلق بشرط الإطلاق عن كل وصف ثبوتي وسلبي، فهو من جنس هؤلاء». [4]

ويقول: «ولهذا قربت فلسفة اليونان إلى أهل الإلحاد المبتدعة من أهل الملل، لما فيها من شوب الملة، ولهذا دخل فيها بنو عبيد الملاحدة، فأخذوا عن هؤلاء الفلاسفة الصابئة المشركين العقل والنفس، وعن المجوس النور والظلمة، وسموه

---

(١) «الرد على الشاذلي» (ص٧٤ ـ ٧٥)

(٢) «الصفدية» (١/ ٢٧٠)

(٣) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٣٤١)

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ١٠٦)

هم السابق والتالي، وكذلك الملاحدة المنتسبون إلى التصوف والتأله». [1]

ويستمر في إيقاظ العقل الإسلامي وتحذيره من مخاتلة هؤلاء وتظاهرهم بالتصوف، فيقول: «وأكثر هؤلاء يميلون إلى الرافضة، ومنهم من ينتسب إلى التصوف». [2]

وكيف يمكن للملاحدة أن يحققوا ما يتطلعون إليه، وبينهم وبين التصوف فرق الضدين، فلا يمكن أن تنجح مساعي الكفر إن أراد الظهور بمظهر الإيمان، وهو إن استطاع استغفال البسطاء والسطحيين فلن يستطيع استغفال أمثال هذا الفتى الحراني الثائر.

ومن أبصر بنور عقله وقلبه وجه الإيمان المشرق الوضَّاء لن يخفى عليه وجه الكفر الحالك، ومن خبر جند الإيمان وحملة التوحيد لن يخدعه تمويه الخرافيين والدجالين، وليس بعد الحق إلا الضلال.

بناء على ذلك يقول ـ بعد أن وصف الصوفية بشدة اتباعهم وتمسكهم بالكتاب والسنة ـ: «ولكن يوجد منهم من جنس ما يوجد في بقية الطوائف من البدع والنفاق، مثل من قد يرى الاستغناء بالعمل الباطن عن الظاهر، ومن يدعي أن للقرآن باطناً يخالف ظاهره، ونحو ذلك من صنوف المنافقين الزنادقة، فهؤلاء بالنسبة إلى الصوفية الذين هم مشايخ الطريقة الذين لهم في الأمة لسان صدق بالنسبة إلى المنافقين الزنادقة ومن متكلمي الفلسفة ونحوهم الموجودين في الفقهاء بالنسبة إلى الفقهاء الأئمة الذين لهم في الأمة لسان صدق». [3]

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٣٣٧)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٣٣٨)

(٣) «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ١٧٠)

وهو يشبِّه هؤلاء المتسبين إلى التصوف من الجهلة والزنادقة بالمنافقين الذين تظاهروا بالإسلام وليسوا منه، ويقرر أن التصوف كجانب من الشريعة ليس معصوماً من تظاهر المنافقين به كما تظاهروا بالإسلام، ويقول: «فلا ريب أن في المتصوفة والمتفقهة وغيرهما من هو صديق، ومن هو زنديق، فإن انتحال الحلية أو القول ظاهراً ليس بأعظم من انتحال الإسلام، وإن كان في نفس ادعاء الإسلام على عهد النبي ﷺ وفي سائر الأعصار منافقون كثيرون، فهؤلاء موجودون في جميع الأصناف من المنتسبين إلى العلم وإلى العبادة».

ثم قال: «فأما شيوخ الصوفية المشهورون عند الأمة الذين لهم في الأمة لسان صدق مثل أبي القاسم الجنيد، وسهل بن عبد الله التستري، وعمرو بن عثمان المكي، وأبي العباس بن عطاء، بل مثل أبي طالب المكي، وأبي عبد الرحمن السلمي، وأمثال هؤلاء، فحاش لله أن يكونوا من أهل هذا المذهب، بل هم من أبعد الطوائف عن مذهب الجهمية في سلب الصفات، فكيف يكونون في مذهب الدهرية المنكرين لانفطار السموات وانشقاقها، نعم يوجد في المتحلين بحلية الصوفية من يعتقد أنواعاً من الاعتقادات، كما يوجد مثل ذلك في المتكلمين بكلام الفقهاء من أهل الفلسفة، والكلام، وغيرهم». [1]

لقد كان ابن تيمية ـ حين فتح النار على الملاحدة المنتسبين إلى التصوف ـ يحمل همَّ بقاء التصوف نقياً بعيداً عن عبث الجاهلين وكيد الزائغين الذين يريدون إفساده.

لم يستهدف ابن تيمية التصوف، ولم يعادِ أهله، ولم تدر بخلده يوماً

---

(١) «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ١٠٧ ـ ١١١)

فكـرة القضـاء عليـه وتحذيـر المجتمـع الإسـلامي منـه، بل علـى العكـس تماماً، فقـد عمـل بكل ملكاتـه الفكريـة والأدبيـة على الدفـاع عـن التصـوف وتنزيهه من كل مـا يشـينه، ووقـف في وجـه من سـعى إلى التسـلل إليـه بغير حـق، وجاهد في ذلـك جهـاداً كبيراً.

هذه حقيقة يجب أن تكون معلومة، وهي واضحة وضوح الشمس.

كان الدفاع عن التصوف والذب عنه همّاً لدى هذا العالم الجليل، ورسالة بذل لها أنفس الأوقات.

ويبـدو ذلـك جليـاً فـي رسـالته إلـى الشـيخ الصوفـي نصـر المنبجـي، حيث يقـول: «والله تعالـى يعلـم ـ وكفـى بـه عليمـاً ـ لولا أنـي أرى دفع ضـرر هؤلاء من أهـل طريـق الله تعالى السـالكين إليه مـن أعظم الواجبات ـ وهو شـبيه بدفـع التتار عـن المؤمنيـن ـ لـم يكـن للمؤمنيـن بـالله ورسـوله حاجـة إلى أن تكشـف أسـرار الطريـق وتهتك أسـتارها».

ويقول: «وهؤلاء موهوا على السالكين التوحيد الذي أنزل الله به الكتب وبعث به الرسل بالاتحاد الذي سموه توحيداً».[1]

وأهل الطريق هم الصوفية، كما لا يخفى.

ونص ابن تيمية هذا في غاية الأهمية، فهو يكشف عن الباعث الحقيقي لثورته على القائلين بوحدة الوجود، ألا وهو الخوف على التصوف من أن يناله التشويه الذي يسعى إليه أولئك.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٦٤)

فقد سعى الملاحدة إلى تشويه التصوف بتلك المقالات، ووقف لهم ابن تيمية بالمرصاد لإحباط مساعيهم.

إلا أن هؤلاء الملاحدة في الحقيقة وجدوا آذاناً صاغية عند معاصرينا الذين يظنون أنهم على طريقة ابن تيمية.

فقد صدقوهم في كل ما نسبوه إلى التصوف، وقالوا نعم التصوف مسلك خرافي مليء بالكفريات، وعلى رأسها القول بوحدة الوجود.

إن أولئك الملاحدة أسعد الطرفين بمعاصرينا الذين يذمون التصوف مطلقاً، وأما ابن تيمية فقد رأيت أنه يرفض اعتبار بدعهم ومقالاتهم جزءاً من التصوف.

يقول ـ بعد ذكره لبعض أشعار الذين نقل عنهم القول بوحدة الوجود ـ: «إلى أمثال هذه الأشعار، وفي النثر ما لا يحصى، ويوهمون الجهال أنهم مشايخ الإسلام وأئمة الهدى الذين جعل الله تعالى لهم لسان صدق في الأمة، مثل سعيد بن المسيب، والحسن البصري، وعمر بن عبد العزيز، ومالك بن أنس، والأوزاعي، وإبراهيم بن أدهم، وسفيان الثوري، والفضيل بن عياض، ومعروف الكرخي، والشافعي، وأبي سليمان، وأحمد بن حنبل، وبشر الحافي، وعبد الله بن المبارك، وشقيق البلخي، ومن لا يحصى كثرة، إلى مثل المتأخرين، مثل الجنيد بن محمد القواريري، وسهل بن عبد الله التستري، وعمر بن عثمان المكي، ومن بعدهم، إلى أبي طالب المكي، إلى مثل الشيخ عبد القادر الكيلاني، والشيخ عدي، والشيخ أبي البيان، والشيخ أبي مدين، والشيخ عقيل، والشيخ أبي الوفاء، والشيخ رسلان، والشيخ عبد الرحيم، والشيخ عبد الله اليونيني، والشيخ القرشي، وأمثال هؤلاء المشايخ الذين كانوا

بالحجاز والشام والعراق ومصر والمغرب وخراسان من الأولين والآخرين، كل هؤلاء متفقون على تكفير هؤلاء، ومن هو أرجح منهم». [1]

ويشدد اللهجة في نفي ما نسبه الأفاكون ـ كما سماهم ـ إلى مشايخ الصوفية مما يخالف الشريعة كالحلول والاتحاد، فيقول: «وإن سُمع شيء من ذلك منقول عن بعض أكابر الشيوخ فكثير منه مكذوب اختلقه الأفاكون من الاتحادية المباحية الذين أضلهم الشيطان وألحقهم بالطائفة النصرانية». [2]

وكلامه في هذا أيضاً كثير ومنتشر، وإنما نريد الإشارة السريعة، وبمجرد أن تلقي نظرة في كتبه رحمه الله ستجده يحذر وينذر من شؤم مفسدي الأديان هؤلاء، ويفضحهم على رؤوس الأشهاد.

* * *

تنبيه مهم

أعـاد ابن تيمية وكرر تصريحـه بكفر جماعة من الأوليـاء العارفين، كالحلاج، وابـن عربي، والتلمسـاني، وابن سـبعين، والصـدر القونوي، وغيرهـم، ونحن نبرأ إلـى الله مـن ذلك، ونشـهد لهم بالصـدق والولايـة، وننزهم عن المقالات الشـنيعة التي نسـبت إليهم.

وإنمـا غرضنـا مـن إيـراد كلام ابن تيميـة فيهم، هو بيـان دفاعه عـن التصوف، وتنزيهـه ممـن انتسـب إليه مـن الملاحـدة، ونخالفه فـي تمثيلـه بهـؤلاء العارفين، رضـي الله عنهم.

---

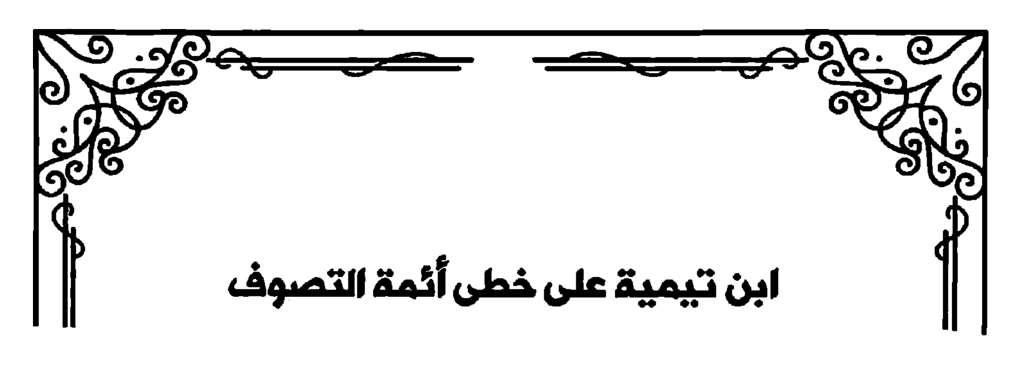
(١) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٧٤)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٧٤)

ونشير إلى أن رأي ابن تيمية فيهم وافقه عليه عدد من شيوخ الصوفية، وليس معياراً في كون الإنسان صوفياً تعظيمه واعتقاده لهؤلاء، ولا تعني وقيعته فيهم أنه عدو للصوفية عموماً، كما سبقت الإشارة إليه.

وفي المباحث التالية مزيد من تسليط الضوء على هذه النقطة المهمة.

* * *



ابن تيمية على خطى أئمة التصوف

عندما سلك ابن تيمية طريق المنابذة لأدعياء التصوف، كان يسير في طريق مسلوكة، ويقتفي آثار من سبقه من أئمة الصوفية وعلماء الإسلام الذين وضعوا أسس هذا المنهج قبل ولادته بقرون، وسار عليه أئمة الصوفية وعلماؤهم إلى يومنا هذا، فلا أكاد أعرف كتاباً في التصوف وتاريخه ونشأته وعلومه إلا وسلط الضوء على جهل المنتسبين إلى التصوف، وحذر وأنذر من الدخلاء الذين يريدون إفساد الدين بلباس التصوف والتزهد، وهم الذين أطلقوا عليهم «زنادقة الصوفية»، وأطلقوا على البعض الآخر منهم «جهلة الصوفية».

وقد نبَّه على هذا ابن تيمية، فقال بعد أن أشار إلى بعض علماء الصوفية كأبي عبد الرحمن السلمي وأبي طالب المكي، وأبي حامد الغزالي: «كانوا يذمون من منحرفة الصوفية ما يذمون». [(١)]

بل إن أشهر كتب التصوف كـ «اللمع» لأبي نصر السراج، «والتعرف» للكلاباذي، و«الرسالة» للقشيري إنما وضعها مؤلفوها لبيان التصوف الصحيح، محذرين من الدخلاء والأدعياء الذين يتشبهون بمشايخه، كما أشاروا إلى ذلك في مقدمات كتبهم.

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٦٩)

وهو منهاج موروث عن أئمة الصوفية القدامى.

يقول الإمام العارف أحمد الدينوري: «نقضوا أركان التصوف، وهدموا سبيله، وغيروا معانيه، بأسماء أحدثوها، فقد سموا الطمع زيادة، وسوء الأدب إخلاصاً، والخروج عن الحق شطحاً، والتلذذ بالمذموم طيبة، واتباع الهوى ابتلاء، والرجوع على الدنيا وصولاً، وسوء الخلق صولة، والبخل جلادة، والسؤال عملا، وبذاءة اللسان ملامة، وما هذا كان طريق القوم».[1]

ودخل أحد الصوفية على عبد الله بن خفيف، فقال: بي وسوسة. فقال ابن خفيف: «عهدي بالصوفية يسخرون من الشيطان، والآن الشيطان يسخر منهم».[2]

وسئل الإمام العارف أحمد الرفاعي عن التصوف، فقال للسائل: «تسألنا عن تصوفنا أو تصوفكم؟» فقال: يا سيدي كانت مسألة فصارت اثنتين، اشرحهما لي، فقال: «أما تصوفكم أنتم فهو أن تصفي أسرارك، وتطيب أخبارك، وتطيع جبارك، وتقوم ليلك وتصوم نهارك، وأما تصوف القوم، فكما قيل:

لَيسَ التصوفُ بالخِرَقْ ... مَنْ قال هذا قدْ مَرَقْ

إنَّ التصوفَ يا فتى ... حرقٌ يمازجُها قَلَقْ[3]

وسئل أبو علي الروذباري عمن يسمع الملاهي ويقول هي لي حلال، لأني قد وصلت إلى درجة لا يؤثر في اختلاف الأحوال. فقال: «نعم، قد وصل، ولكن إلى سقر».[4]

---

(١) «الرسالة القشيرية» (ص٤١٣)

(٢) «الرسالة القشيرية» (ص٤٢١)

(٣) «طبقات الأولياء»(ص٩٥)

(٤) «الرسالة القشيرية» (ص٤١٦)، «الاعتصام» (١/ ١٣٠)

وقال إبراهيم القرمسيني - من شيوخ الرسالة -: «من أراد أن يتعطل، أو يتبطل، فليلزم الرخص».

وقال: «علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية، وصحة العبودية، وما كان غير هذا فهو المخاليط والزندقة». [1]

ويقول العالم الصوفي الشهير أبو طالب المكي في تعليقه على حديث «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»[2]: «فالغالون هم المجاوزون للسنن والآثار، والمبطلون هم المدعون بالرأي والقياس، والجاهلون هم الشاطحون من المتصوفة الضلال، وعدول كل خلق من اتبع سنة صالح من سلف، ولم يبتدع في الدين، ولا اتخذ وليجة دون طريق المؤمنين، وهم رواة الأخبار، وحملة الآثار، من المحدثين، وفقهاء المسلمين». [3]

ويقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي: «التصوف شيئان في الصدق مع الله تعالى، وحسن المعاملة مع الناس، فكل من صدق مع الله وأحسن معاملة الخلق فهو صوفي، والصدق مع الله تعالى هو أن يفنى العبد حظوظ نفسه لأمره تعالى، وحسن المعاملة مع الخلق هو ألا يفضل مراده على مرادهم ما دام مرادهم موافقا للشرع، لأن كل من رضي بمخالفة الشرع أو خالفه لا يكون صوفياً، وإن ادعى التصوف يكون كذاباً». [4]

---

(١) «الرسالة القشيرية» (ص٤٢٥)

(٢) انظر تخريجه في «الروض الباسم» للعلامة ابن الوزير (١/ ٣٨)

(٣) «قوت القلوب» (١/ ٢٩٦)

(٤) «خلاصة التصانيف في التصوف» ضمن مجموع رسائل الغزالي (ص١٧٤)

ونص الغزالي على وجوب قتل من ادعى سقوط الصلاة عنه أو حِل شرب الخمر له من أدعياء التصوف، وعدَّ قتل أمثال هؤلاء الزنادقة أفضل من قتل الكفار، فقال: «ولو زعم زاعم أن بينه وبين الله تعالى حالة أسقطت عنه الصلاة، وأحلت شرب الخمر، وأكل مال السلطان، كما زعمه بعض من ادعى التصوف، فلا شك في وجوب قتله، وإن كان في خلوده نظر، وقتل مثله أفضل من قتل مائة كافر، لأن ضرره أكثر». [١]

وتحدث رحمه الله في عدة مواضع من كتبه عما سماه «ترهات الصوفية».

ويقول إمام التصوف الشيخ شهاب الدين السهروردي بعد أن ذكر وصف الصوفي: «... فقوم من المفتونين لبسوا ألبسة الصوفية لينسبوا إليهم، وما هم منهم بشيء، بل هم في غرور وغلط، يتسترون بلبسة الصوفية توقياً تارة، ودعوة أخرى، وينتهجون مناهج أهل الإباحة، ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله تعالى، وأن هذا هو الظفر بالمراد والارتسام بمراسم الشريعة، رتبة العوام والقاصرين الإفهام، وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والإبعاد». [٢]

وحذر الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي ممن تزيَّ بزي الصوفية وهو في الباطن بخلاف ذلك من الحلولية والإباحية وغيرهم، فقد نبه على أنهم تظاهروا بالتصوف، وهم قرناء الشيطان وحلفاء الخسران، على حد تعبيره. [٣]

وقال الإمام العارف عبد القادر الجيلاني: «ترك العبادات المفروضة

---

(١) «حاشية الشرواني»(٣/ ٨٨)

(٢) «عوارف المعارف»(١/ ٢١٥)

(٣) «روح القدس» (ص١٠٠)

زندقة، وارتكاب المحظورات معصية، لا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال».[1]

وحكى القاضي عياض الإجماع على تكفير من قال بتعطيل الأوامر والنواهي من المتصوفة وأصحاب الإباحة.[2]

وقال الإمام الصوفي علاء الدين القونوي: «هذا محض الكفر والإلحاد في دين الله، فإن من المعلوم من الدين بالضرورة أن أقرب الناس إلى الله أنبياؤه ورسله، ولم يرتفع التكليف عنهم إجماعا فمن دونهم أولى».[3]

وممن اشتهر بالرد عليهم وكشف ستارهم العلامة الصوفي الفقيه تقي الدين الحصني في مواضع من كتابه «كفاية الأخيار».

قال ـ بعد أن أشار إلى طوائف الصوفية المنحرفة كالقلندرية والحيدرية ـ: «فهم أيضاً على اختلاف فرقهم فيهم الحلولية والملحدة، وهم أكفر من اليهود والنصارى، فمن دفع إليهم شيئاً من الزكوات، أو من التطوعات، فهو عاص بذلك، ثم يلحقه بذلك من الله العقوبة إن شاء».[4]

ولك أن تلحظ التطابق بين موقف هذا الفقيه الشافعي الصوفي وموقف ابن تيمية.

يقول ابن تيمية ـ وقد سئل عن القلندرية ـ: « أما هؤلاء القلندرية فمن أهل

---

(١) «الفتح الرباني» (ص٢٩)

(٢) انظر «الشفا» مع شرح القاري (٢/ ٥١٤)

(٣) انظر «تأييد الطريقة العلية» للسيوطي (ص٧٨ـ٧٩)

(٤) «كفاية الأخيار» (ص١٩١)

الضلالة والجهالة، وأكثرهم كافرون بالله ورسوله، لا يؤمنون بوجوب الصلاة

والصيام، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق، بل كثير منهم

أكفر من اليهود والنصارى، فهم ليسوا من أهل الملة، ولا من أهل الذمة، وقلّ ما يكون

فيهم من هو مسلم، لكن مبتدع ضالٌ أو فاسق فاجر»[1].

وفي «باب الردة» نقل تقي الدين الحصني الإجماع على كفر من سماهم «زنادقة الصوفية» الذين يدعون أنهم يدخلون الجنة، ويأكلون من ثمارها، وأنهم يعانقون الحور العين.[2]

وللإمام المحقق أحمد زروق الصوفي الشهير عدة كتب خصصها للتحذير من جهل جهلة المتصوفة، ومن الدخلاء الذين يريدون إفساد التصوف بقصد أو بغير قصد.

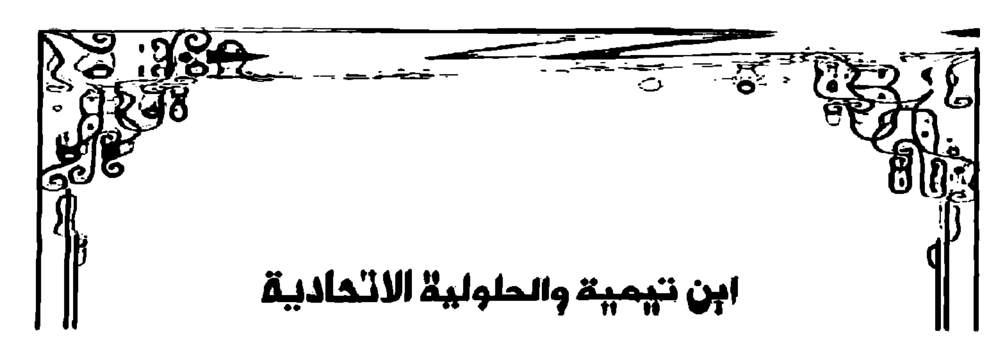
وكلامهم في ذلك مشهور لا يكاد يحصى، وقد نقلت الكثير منه في كتابي «الصوفية وموقف العلماء منها وحقيقة التهم الموجهة لها».

***

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٦٣)

(٢) «كفاية الأخيار»(ص ٤٩٣)



ابن تيمية والحلولية الاتحادية

يرى ابن تيمية أن بدعة الاتحادية توغلت إلى التصوف، واستغل أصحابها بعض الاصطلاحات الصوفية لترويجها ونسبتها إلى الصوفية، ولم يكن يفوّت أي مناسبة للحديث عنها، وتحذير المجتمع منها، منبهاً على أن أصحاب هذا النوع من التصوف يعرضونه في ثوب التصوف الشرعي لينطلي على الجماهير الإسلامية التي ترى في التصوف منهاجاً ربانياً وثقافة إسلامية خالصة.

يقول: «، ولكن هؤلاء أخذوا مذهب الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام، كابن سينا، وأمثاله، الذي دخل كثير منها في كلام صاحب الكتب المضنون بها على غير أهلها، وأمثاله، فأخرجوها في قالب الإسلام بلسان التصوف والتحقيق». [1]

ويقول في موضع آخر: «وأما ابن عربي وابن سبعين وغيرهما ونحوهما فحقائقهم فلسفية، غيروا عبارتها، وأخرجوها في قالب التصوف، أخذوا مخ الفلسفة فكسوه لحاء الشريعة». [2]

وهو بهذا ينزه الصوفية والتصوف تنزيهاً بالغاً.

وقارن بين قوله «فأخرجوها في قالب الإسلام بلسان التصوف والتحقيق»، وقوله «وأخرجوها في قالب التصوف أخذوا مخ الفلسفة فكسوه لحاء الشريعة».

---

(١) «الصفدية» (١/ ٢٦٥)

(٢) «الرد على الشاذلي(ص٣٩)، ونحوه في «منهاج السنة» (٨/ ٢٣)

فهو يشير إلى أن التصوف هو الشريعة.

وقد كان لابن تيمية مقام كريم لدى جماهير المسلمين في زمانه، فاستغل موقعه هذا لتحذير المجتمع من بدعة الاتحادية وغيرها من الأفكار الدخيلة التي يهدف أصحابها إلى خلخلة العقائد الإسلامية وتشويه التصوف ليصير عاجزاً عن أداء دوره في الإصلاح الروحي الذي يعتبره الإسلام أساساً للعمل الظاهر.

غير أن كثيراً من محبي ابن تيمية المعاصرين يظنون أن هجومه الحاد على الاتحادية هجومٌ على التصوف وعلى الصوفية، وهذا غير صحيح قطعاً، فقد علمت مكانة التصوف عنده واعترافه به كعلم جليل وشريف يمثل روح الإسلام ويعنى بصلاح الباطن، وسيأتيك المزيد.

كما أنه رحمه الله لم يكن أول من سل حسامه على الاتحادية والحلولية، بل كان مسبوقا بأئمة الصوفية الذين تتلمذ على كتبهم وأفكارهم، حيث خصصوا حيزاً كبيراً من مؤلفاتهم واقتطعوا من نفائس أوقاتهم للتحذير من هذه المقالة التي لا تلتقي مع العقيدة الإسلامية، ودونوا فيها الكثير من المؤلفات التي لا تزال محفوظة إلى يومنا هذا.

لقد أنكر الصوفية هذه المقالة طبقة بعد طبقة، قبل مجيء ابن تيمية إلى هذه الدنيا وبعد مغادرته لها، ونصوا على تكفير قائلها وإلحاده، بل رأوا أن مقالةً مثل هذه لا يمكن أن تستقر في ذهن إنسان كامل القوى العقلية.

يقول الإمام الصوفي الكبير عبد الوهاب الشعراني: «لعمري إذا كان عباد الأوثان لم يتجرؤوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله، بل قالوا ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا

﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، فكيف يظن بأولياء الله تعالى أنهم يدعون الاتحاد بالحق على حد ما تتعقله العقول الضيقة». [1]

وهو ـ بلا شك ـ تعجب في محلة.

لقد أنكر الإمام الغزالي أن تكون هذا المقالة لأحد من الصوفية، وما وقع من العبارات الموهمة في كلام بعض شيوخ الطريقة ـ كما يرى ـ إما أنه مكذوب، وإما أن له وجهاً آخر ينسجم مع اللغة، وإما أنه صدر من قائله في حال السكر والاصطلام. [2]

وقد مر النقل عن ابن تيمية أن كثيراً من هذه المقالات المناسبة لشيوخ الصوفية اختلقها الأفاكون.

يقول: « وليس أحد من أهل المعرفة بالله يعتقد حلول الرب تعالى به، أو بغيره من المخلوقات، ولا اتحاده به، وإن سمع شيء من ذلك منقول عن بعض أكابر الشيوخ فكثير منه مكذوب اختلقه الأفاكون من الاتحادية المباحية الذين أضلهم الشيطان وألحقهم بالطائفة النصرانية، والذي يصح منه عن الشيوخ له معان صحيحة، ومنه ما صدر عن بعضهم في حال استيلاء حال عليه، ألحقه تلك الساعة بالسكران الذي لا يميز ما يخرج منه من القول، ثم إذا ثاب عليه عقله وتمييزه ينكر ذلك القول، ويكفر من يقوله، وما يخرج من القول في حال غيبة عقل الإنسان لا يتخذه هو ولا غيره عقيدة، ولا حكم له، بل القلم مرفوع عن النائم، والمجنون، والمغمى عليه، والسكران الذي سكر بغير سبب محرم، مثل من يسقى الخمر وهو

---

(١) «اليواقيت والجواهر» (ص١٢٠)

(٢) انظر «المقصد الأسنى» للغزالي (ص١٥٢ ـ ١٥٤)

لا يعرفها، أو أوجرها حتى سكر، أو أطعم البنج وهو لا يعرفه، فكذلك». [1]

قلت: يا له من نص عظيم، ويا له من فقه، إنها روح صوفية تتكلم، إنه لسان صوفي يصف ويحلل، ويوجه ويعتذر.

إنها أنفاس السادة الصوفية التي تلقاها هذا العالم الجليل الذي اتخذ التصوف مورداً يصدر إليه ليروي غليله ويبل روحه.

بهذا المنطق الذي سطره ابن تيمية تحدث علماء الصوفية عما يعتري أهل الطريق من السكر والاصطلام، وربما يكون ابن تيمية أكثر العلماء ترديداً لهذا الفقه الصوفي، وأكثرهم دفاعاً عن أئمة التصوف فيما يخص هذه المسألة.

وإليك ما قاله أحد أجل علماء الصوفية وهو يردد هذا المعنى الذي تحدث عنه ابن تيمية، وينقله عن المحققين من أئمة التصوف.

يقول الإمام عبد الله بن أسعد اليافعي: «أكثر المحققين حملوا ما يقع منهم مخالفاً لظواهر الشرع من الأقوال على صدوره في حال سكرهم بواردات الأحوال». [2]

وبنحو هذه الأوجه وجه الحافظ السيوطي تلك العبارات الموهمة، وكذلك العلامة الفقيه ابن حجر الهيتمي، وغيرهما من أئمة ومحققي الصوفية. [3]

ونقل السيوطي في كتابه «تنبيه الغبي» إنكار هذه المقالة عن عدد من علماء الصوفية المحققين.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٧٤ـ٧٥)

(٢) «مرآة الجنان» (٢/ ١٩١)

(٣) انظر «الحاوي للفتاوي» للسيوطي (٢/ ١٥٦)، «الفتاوى الحديثية» لابن حجر (ص٣٠٠)

ومما قاله: «وما زالت العلماء ومحققو الصوفية يبينون بطلان القول بالحلول والاتحاد وينبهون على فساده ويحذرون من ضلاله». [1]

بل إن أشهر مشايخ الصوفية المنسوبة إليهم هذه المقالة نص نصاً صريحاً قاطعاً على إلحاد القائلين بها، وهو الإمام محي الدين بن عربي، رحمه الله، حيث قال: «ما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد، ومن قال بالحلول فهو معلول، وهو مرض لا دواء لدائه». [2]

وقد أفاض الإمام الشعراني في «اليواقيت والجواهر» بذكر كلام ابن عربي الذي يقطع الشك باليقين وينفي هذه التهمة عن الصوفية. [3]

بذل علماء الصوفية جهوداً كبيرة للتصدي لهذه المقالة المنكرة، وصرحوا بكفر جماعات من الناس نقل عنهم القول بها، حتى إن جماعة منهم ذهبوا إلى تكفير الإمام ابن عربي لما فهموا من كلامه القول بها، منهم العالم الصوفي الكبير العلاء البخاري، الذي كان يقول «ابن تيمية كافر، وابن عربي كافر». [4]

وقال العارف بالله أبو بكر محمد بناني: «فاحذر يا أخي كل الحذر من الجلوس مع من يقول «ما ثمَّ إلا الله»، ويسترسل مع الهوى، فإن ذلك هو الزندقة المحضة». [5]

---

(١) «الحاوي للفتاوي»(٢/ ١٥٦)

(٢) «الفتوحات المكية» (٤/ ٣٧٢)

(٣) انظر «اليواقيت والجواهر»(ص١١٥ ـ ١١٩)

(٤) انظر «إنباء الغمر»(٣/ ٤٠٣، ٤٧٧)، «الضوء اللامع»(٩/ ٢٩٢) (٨/ ١٠٤)

(٥) انظر «حقائق عن التصوف» (ص٤٤٥)

ولهذا نجد ابن تيمية يقوي رأيه ويعزز موقعه بكلام أئمة التصوف الذين سلقوا الاتحادية وأنكروا مقالتهم، ويستشهد بجهودهم في رد هذه البدعة الشنيعة التي وقع فيها بعض متأخري المتصوفة، حسبما يرى.

يقول: «وفي الجملة فالقول بالحلول أو ما يناسبه وقع فيه كثير من متأخري الصوفية، ولهذا كان أئمة القوم يحذرون منه».[1]

و «أئمة القوم» هم أئمة الصوفية.

وأكثر من الاستشهاد بتفسير التوحيد لإمام الصوفية أبي القاسم الجنيد: «التوحيد إفراد الحدوث عن القدم».

ومما قاله تعليقاً على هذا التعريف: «فبيَّن أن التوحيد أن يميز بين القديم والمحدث».[2]

وقال «فبيَّن أنه يميز المحدث عن القديم، تحذيراً عن الحلول والاتحاد». [3]

وقال: «فأجاب الجنيد بجواب يبيِّن به أن القديم الخالق مباين للمخلوقات المحدثة، يرد بذلك على من يذهب إلى الحلول والاتحاد من جهال النساك والمتصوفة».[4]

ويستشهد ابن تيمية بمعاصريه من الصوفية، فيقول: «حدثني صاحبنا الفقيه الصوفي أبو الحسن علي بن قرباص أنه دخل على الشيخ قطب الدين ابن

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٩٩)

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٩٩)

(٣) «شرح حديث النزول» (ص١٢٣)

(٤) «الرد على الشاذلي» (ص ١٧٨)

القسطلاني فوجده يصنف كتاباً، فقال: ما هذا؟ فقال: هذا في الرد على ابن سبعين، وابن الفارض، وأبي الحسن الجزلي[1]، والعفيف التلمساني». [2]

وينقل عن شيوخ الصوفية تكفيرهم، فيقول: «، وأمثاله ممن أظهر التصوف على طريقة هؤلاء، فهو يأخذ معانيهم يكسوها عبارات الصوفية، والصوفية العارفون يعلمون أنهم كفار». [3]

ويستشهد بكلام الإمام عز الدين بن عبد السلام في ابن عربي، وبكلام تلميذه ابن دقيق العيد، وهما من أئمة الصوفية المشاهير.

وينقل عن الإمام الصوفي الكبير إبراهيم الجعبري[4] في أكثر من موضع رأيه الشديد في الاتحادية، وفي ابن عربي. [5]

ويقول: «وحدثني الشيخ العالم العارف كمال الدين المراغي شيخ زمانه أنه لما

---

(١) لم أعرف من هو أبو الحسن الجزلي، ولعل الاسم فيه تصحيف، فقد ذُكر في موضع آخر ـ كما في جامع الرسائل ـ هكذا «أبو الحسن الجربي» بالجيم، ولعله هو الآخر فيه تصحيف، فلم أعثر على أحد من الصوفية بهذا الاسم، ولعل الصواب «أبو الحسن الحربي» بالحاء، وهو أحد العباد، لكنه لم يُغمز في تصوفه، فالله أعلم.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٤٣)

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٣٥٣)

(٤) هو الشيخ بن معضاد الجعبري، كان من أصحاب الأحوال والمكاشفات، ومع رسوخه في التصوف إلا أنه كان حاد الطبع.

ترجم له التاج السبكي في «طبقات الشافعية» (٨/ ١٢٣): «كان أبو العباس العراقي ينكر عيه إنكاراً كثيراً، وكانت في الشيخ حدة، وربما شتم في الوعظ، ونال من بعض الحاضرين»

(٥) انظر «مجموع الفتاوى» (٢/ ١٣، ٢٤٠، ٢٤٦)

قدم وبلغه كلام هؤلاء في التوحيد قال: قرأت على العفيف التلمساني من كلامهم شيئاً فرأيته مخالفا للكتاب والسنة».[1]

ويقول: «وحدثني أيضاً كمال الدين أنه اجتمع بالشيخ أبي العباس الشاذلي (هو المرسي أبو العباس الصوفي الكبير) تلميذ الشيخ أبي الحسن فقال عن التلمساني: هؤلاء كفار، هؤلاء يعتقدون أن الصنعة هي الصانع».[2]

ويذكر ابن تيمية عن أكثر مشايخ الصوفية أنهم أخرجوا الحلاج عن الطريق لقوله بوحدة الوجود ـ كما يرى ـ ولغيرها من المخاريق التي نقلت عنه، فيقول: «وقد ذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية أن أكثر المشايخ أخرجوه عن الطريق، ولم يذكره أبو القاسم القشيري في رسالته من المشايخ الذين عدهم من مشايخ الطريق، وما نعلم أحداً من أئمة المسلمين ذكر الحلاج بخير لا من العلماء ولا من المشايخ».[3]

وهذا يعني أن ابن تيمية لم يكن يرى الصوفية براء من مقالة الاتحادية فحسب، بل كان يراهم سبَّاقين إلى رد هذه المقالة وتحذير الأمة منها ومن الداعين إليها.

على أن في إطلاقه هذا نظراً، فقد أثنى على الحلاج وابن سبعين وابن الفارض عدد من الأئمة والعارفين، واعتقدوا ولايتهم، ونزهوهم من الاتحاد وغيرها من المخاريق المنسوبة إليهم.

لقد كان ابن تيمية في حملته على الاتحادية مقتفياً آثار الصوفية الأوائل، سائراً

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٤٤)

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٤٥)

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٨٣)

في طريقهم، وكانت جهوده امتداداً لجهودهم مكملة لمسيرتهم، ولم يكن رافضاً لهم، ولا قائداً لحرب شعواء ضدهم.

وأؤكد مرة أخرى على أن الذي دعا ابن تيمية إلى محاربة هذه المقالة هو الذي دعا أئمة التصوف لمحاربتها، وهو الحفاظ على علم التصوف وإنكار ما أُدخل فيه مما ليس منه، ليبقى علماً كفيلاً بغيات الروح وتزكية النفوس والارتقاء بها.

ومما يؤكد أن ابن تيمية يرى القول بوحدة الوجود مذهباً آخر ليس هو التصوف، وأن الاتحادية الوجودية لا علاقة لها بالصوفية إلا علاقة الانتحال والادعاء أو الاشتباه، أنه رحمه الله نص في كتابه «حقيقة مذهب الاتحاديين» على أن مذهب الاتحادية مركب من ثلاث مواد:

أحدها: سلب الجهمية وتعطيلهم.

وثانيها: الزندقة الفلسفية، كما سماها.

وثالثها: مجملات الصوفية.

وشرح قوله «مجملات الصوفية»، فقال: «وهو ما يوجد في كلام بعضهم من الكلمات المجملة المتشابهة، كما ضلت النصارى بمثل ذلك فيما يروونه عن المسيح، فيتبعون المتشابه ويتركون المحكم، وأيضا كلمات المغلوبين على عقلهم الذين تكلموا في حال سكر». [1]

فهذا النص يعطي براءة للصوفية من مذهب الاتحادية، معتبراً أن تلك العبارات المشكلة التي أثرت عن بعض الصوفية بمثابة المتشابه الذي لا يجوز الأخذ به وترك كلامهم الواضح المحكم.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢/ ١٧٥)

وهو بهذا المنطق أيضاً منسجم مع محققي الصوفية الذين يرون أن تلك العبارات صدرت من أصحابها في حال سكر، كما تقدم.

ومع أن ابن تيمية سيء الرأي فيمن نسب إليهم القول بوحدة الوجود، إلا أنه يرى ابن عربي أقربهم إلى الإسلام ـ على حد تعبيره ـ وذلك لأن قوله بوحدة الوجود ـ حسبما يرى ـ كان بسبب سوء فهمه للمجملات التي نقلت عن الصوفية.

وهذا يعني أن القرب من كلام الصوفية المتشابه الذي يوهم معنى فاسداً قربٌ من الإسلام، فكيف بالقرب من كلامهم الواضح المحكم، فتأمل. [1]

ويصف الذين يفهمون الاتحاد من كلام مشايخ الصوفية بالجهال، فيقول بعد أن أشار إلى القول بوحدة الوجود: «وأما الجهال الذين يحسنون الظن بقول هؤلاء ولا يفهمونه ويعتقدون أنه من جنس كلام المشايخ العارفين الذين يتكلمون بكلام صحيح لا يفهمه كثير من الناس فهؤلاء تجد فيهم إسلاماً وإيماناً ومتابعة للكتاب والسنة بحسب إيمانهم التقليدي، وتجد فيهم إقراراً لهؤلاء وإحساناً للظن بهم وتسليماً لهم بحسب جهلهم وضلالهم، ولا يتصور أن يثني على هؤلاء إلا كافر ملحد أو جاهل ضال». [2]

ويكرر الفرق بين الفناء عند الاتحادية والفناء عند شيوخ الصوفية، ويقسمه إلى ثلاثة أقسام:

الأول: فناء عن عبادة السوى، بمعنى أن يفنى عن عبادة ما سوى الله، وهذا هو حقيقة التوحيد.

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (٢/ ١٧٥)

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٣٦٧)

والثاني: فناء عن وجود السوى، وهو قول الملاحدة من أهل الوحدة، كما يقول.

والثالث: فناء عن شهود السوى، أي أنه يفنى عن شهود ما سوى الله، وهو الذي يسميه كثير من الصوفية الاصطلام والفناء والجمع.

قال: «وهذا فيه فضيلة من جهة إقبال القلب على الله، وفيه نقص من جهة عدم شهوده للأمر على ما هو عليه». [1]

ومن أغلى وأصرح نصوصه في الاعتذار عن الصوفية من أهل الفناء الذين قد يقع منهم ما يوهم القول بالوحدة، قوله: «فهذه الحال تعتري كثيراً من أهل المحبة والإرادة في جانب الحق وفي غير جانبه، وإن كان فيها نقص وخطأ، فإنه يغيب بمحبوبه عن حبه وعن نفسه، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن عرفانه، وبمشهوده عن شهوده، وبموجوده عن وجوده، فلا يشعر حينئذ بالتمييز ولا بوجوده، فقد يقول في هذه الحال (أنا الحق) أو (سبحاني) أو (ما في الجبة إلا الله) ونحو ذلك وهو سكران بوجد المحبة الذي هو لذة وسرور بلا تمييز، وذلك السكران يطوى ولا يروى، إذا لم يكن سكره بسبب محظور». [2]

وهو ما قرره حجة الإسلام الغزالي وغيره، كما سبقت الإشارة إليه.

وهذه الألفاظ الثلاثة التي وصف قائليها بـ«أهل المحبة والإرادة» هي أشهر الألفاظ التي يستشهد بها الذين يتهمون الصوفية بوحدة الوجود، لكننا أمام عالم عملاق يفهم جيداً مصطلحات أصحاب الفنون، ولا يضع لها من المعاني ما يمليه الهوى والشيطان.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٣٧٠)

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٣٩٦)

فتذكر هذا النص ولا يغب عنك لتلجم به أفواه الذين يدعون أنهم على طريقة ابن تيمية ويخالفونه برمي الصوفية بالاتحاد مستندين إلى هذه العبارات التي عدها رحمه الله أثراً من آثار الحب والوجد الذَينِ يستغرق فيهما المحبون فيغيبون عن الأحاسيس والجوارح، وينطقون بمثلها في حال السكر الذي لا يصل إليه إلا العارفون بالله.

وحال العارفين هؤلاء لا يفهمها ولا يتذوقها إلا عارف مثلهم أو قريب منهم، وقد كان ابن تيمية ربانياً عارفاً كما وصفه غير واحد من العلماء.

وأستسمح منكم عذراً لأنقل لكم نصاً طويلاً شيئاً ما ولا أريد أن أتصرف فيه لما فيه من النورانية التي جعلت هذا العالم الكبير يعتذر للصوفية اعتذار العارف الذي ذاق المواجيد وعاش معهم المقامات والأحوال.

فلتستمع إليه وهو يتحدث كأحد أقطاب الصوفية العارفين الكبار.

يقول رحمه الله: «ثم إن كثيراً من أهل التوجه إلى الله إذا أقبلوا على ذكره وعبادته والإنابة إليه شهدوا بقلوبهم هذه الربوبية الجامعة وهذه الإحاطة العامة، فإنه بكل شيء محيط، *وهو سبحانه الحق الذي خلق السموات والأرض، ومن آياته أن تقوم* السماء والأرض بأمره، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر، ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق، وهو سبحانه نور السموات والأرض ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الآية، وهو سبحانه ليس عنده ليل ولا نهار، نور السموات من نور وجهه، هكذا قال عبد الله بن مسعود: «لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور ـ أو

النار ـ لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه» هكذا قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه عن أبي موسى[1]، فقد يشهد العبد القدر المشترك بين المصنوعات، وهو الحق الموجود فيها الذي هو شامل لها، فيظن أنه الخالق لمطابقته له في نوع من العموم، وإنما هو صنعه وخلقه، ثم قد يرتقي إلى حجاب من حجبه النورية أو النارية، فيظن أنه هو، ثم يرتقي إلى نوره وما يظهر من أثر صفاته، فقد يقع بعض هؤلاء في نحو من مذهب أهل الاتحاد المطلق العام، فإن تداركهم الله برحمته فاعتصموا بحبل الله واتبعوا هدى الله علموا أن هذا كله مخلوق لله، وأن الخالق ليس هو المخلوق، وأن جميعهم عباد لله، وربما قد يقع هذا في نوع من الفناء أو السكر فيكون مخطئاً غالطاً، وإن كان ذلك مغفوراً له إذا كان بسبب غير محظور، كما ذكرنا نظيره في الاتحاد المعين». [2]

والاتحاد العام هو اعتقاد أن الله حال في كل شيء.

والمعين، كقول النصارى أنه حل في المسيح. [3]

لقد قطعت جهينة قول كل خطيب، ولا أجد أمام هذا العرفان تعليقاً إلا النصيحة لك بأن تعيد قراءة كلامه مرة بعد مرة، لتعرف موقع ربيب العلم والزهد والتأله من هذا العلم الجليل، ولتدرك مدى غلط الذين يفسرون كلامه في رفض الاتحاد على أنه طعن في الصوفية والتصوف.

***

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧٩)، ولم أره في «البخاري».

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣)

(٣) انظر «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦)

ذكر ابن تيمية في أكثر من موضع أن الاتحادية ليسوا من الصوفية، إلا أن الداعية صاحب أطروحة «موقف ابن تيمية من الصوفية»[1] ذكر الاتحادية ضمن فرق الصوفية، مع أنه نقل كلام ابن تيمية الذي ينفي كون الاتحادية من الصوفية.!!

ومن العجيب ـ وما أكثر العجائب في هذه الدراسة ـ زعمه أن من فرق الصوفية «الحلولية»، وقال: «الحلولية: وهذه من أكبر فرقهم أيضاً، وهي والاتحادية فرقة واحدة».

وهذا النوع من الخبط يؤكد أن هؤلاء لا يستندون في دعاويهم على البحث العلمي الموضوعي، وإنما يخبطون خبط عشواء، ويكيلون التهم، ويفترضون واقعاً لا وجود له، ولم يشر إليه أحد من أهل العلم، وإن حاول هذا الباحث إلصاق هذه النقيصة بابن تيمية.

فمسألة الحلول والاتحاد لا تتعلق بعلم التصوف، وإنما هي من مسائل علم الكلام (العقائد)، ومن شم رائحة العلم أدرك مدى الخطأ الذي وقع فيه.

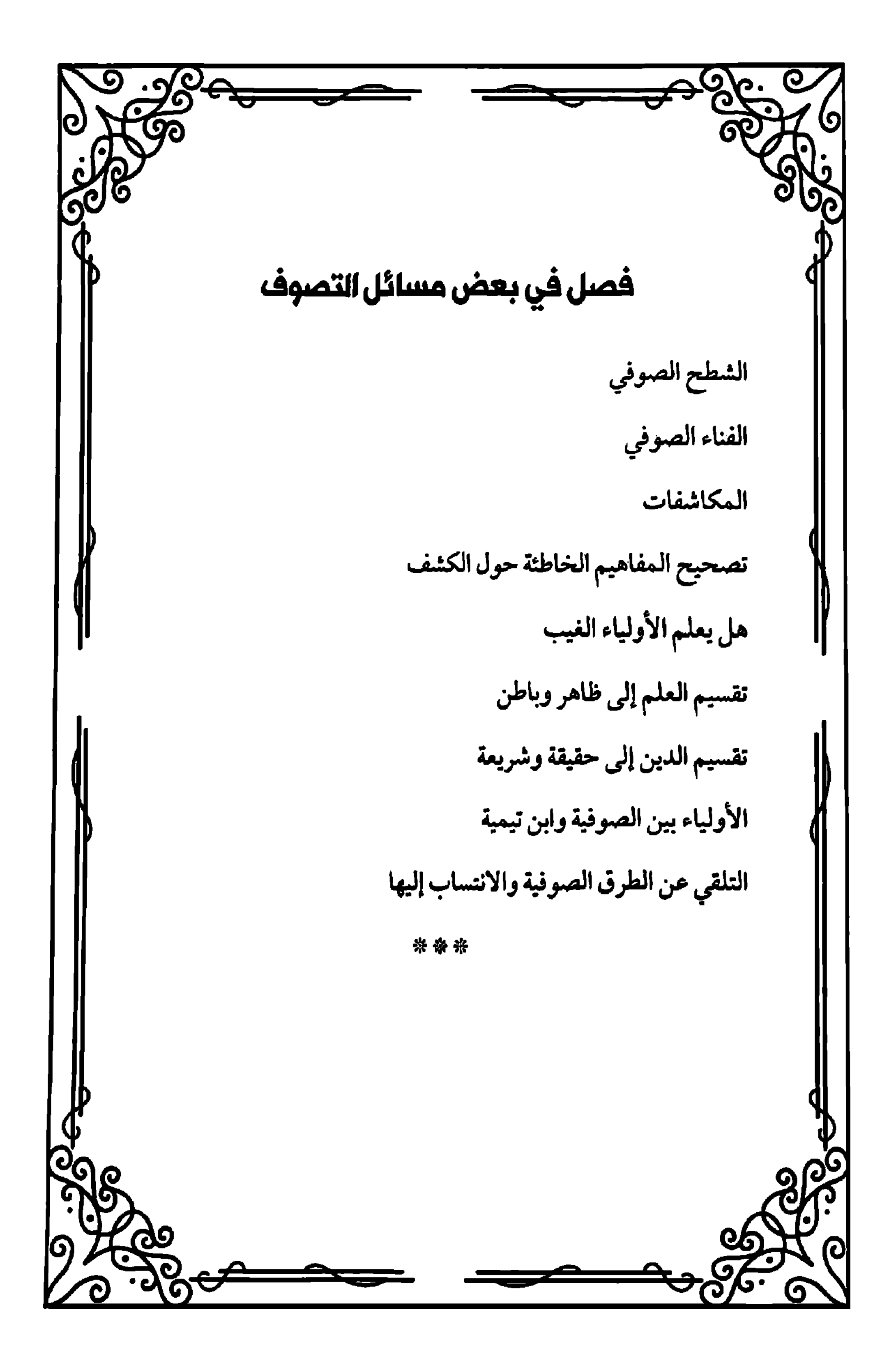
والصوفية كسائر أهل السنة ينفون نفياً قاطعاً المكان عن الله تعالى، وهذه المسألة من أبرز مسائل الخلاف بينهم وبين ابن تيمية، فإثبات المكان والجهة ـ في نظرهم ـ بدعة قد ترقى إلى القول بالتكفير لدى الكثير منهم، فكيف يمكن أن يكونوا حلولية، وهم ينفون المكان والزمان عن الله أصلاً.؟!

فوصف الصوفية بالحلول لا يصدر إلا ممن لا يدري ما يخرج من رأسه.

***

---

(١) (٢٦٨/١)



فصل في بعض مسائل التصوف

الشطح الصوفي

الفناء الصوفي

المكاشفات

تصحيح المفاهيم الخاطئة حول الكشف

هل يعلم الأولياء الغيب

تقسيم العلم إلى ظاهر وباطن

تقسيم الدين إلى حقيقة وشريعة

الأولياء بين الصوفية وابن تيمية

التلقي عن الطرق الصوفية والانتساب إليها

* * *



الشطحات الصوفية

«الشطحات» أقوال لا تتفق مع الشريعة، صدرت عن الأئمة الصوفية العارفين في حال الاستغراق بالتفكير وشهود الربوبية، حين يفقدون السيطرة على عقولهم وحواسهم، بسبب قوة الوارد والدهشة، فينطلق اللسان بالشطح.[1]

وهذا مقام لا يصل إليه إلا العارفون بالله، كما رأيت في كلام ابن تيمية.

وهنا تتجلى ـ أكثر ـ صوفية ابن تيمية، فيقرر أن الشطحات الصوفية قد تقع بسبب الخوف، وبسبب الرجاء، كما قد تقع بسبب الحب.

يقول: «وكذلك قد يحصل الفناء بحال خوف أو رجاء، كما يحصل بحال حب؛ فيغيب القلب عن شهود بعض الحقائق، ويصدر منه قول أو عمل من جنس أمور السكارى، وهي شطحات بعض المشايخ، كقول بعضهم: أنصب خيمتي على جهنم. ونحو ذلك من الأقوال والأعمال المخالفة للشرع».[2]

وهذا يعني أن الشطحات وإن دلت على الولاية والعرفان إلا أنه لا يجوز أن تكون غاية للمريد يسعى إليها، وعلى هذا أجمع الصوفية قديماً وحديثاً.

---

(١) انظر «إحياء علوم الدين» (١/ ٣٦)

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٤٠)

قال ابن تيمية: «وما زال أهل المعرفة يعيبون الشطح الذي دخل فيه طائفة من الصوفية».[1]

ويقول: «، ولهذا قيل: غاية المتكلمين المبتدعين الشك، وغاية الصوفية المبتدعين الشطح».[2]

وقد سبق في مبحث الحلول والاتحاد إضاءات حول هذا الموضوع من كلام ابن تيمية.

ويتلخص موقف ابن تيمية من الشطحات في الآتي:

أـ أنها أحوال تعتري أهل المحبة والإرادة.

ب ـ أنها تصدر من أصحابها في حال السكر والفناء، بسبب قوة الوارد عند مشاهدة جلال الله.

ج ـ أنها تقع منهم دون قصد لها.

د ـ أن صاحبها معذور لسكره، وغير مؤاخذ بها، لرفع التكليف عنه.

ه ـ أنهم إذا أفاقوا منها أنكروها، وربما كفروا من تعمدها.

وـ أنه لا يجوز الاقتداء بها.

يقول رحمه الله: «ومنه ما صدر عن بعضهم في حال استيلاء حال عليه، ألحقه تلك الساعة بالسكران الذي لا يميز ما يخرج منه من القول، ثم إذا ثاب عليه عقله وتمييزه ينكر ذلك القول ويكفر من يقوله، وما يخرج من القول في

---

(١) «الاستقامة» لابن تيمية (١/ ١١٩)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٢٧٢)

حال غيبة عقل الإنسان لا يتخذه هو ولا غيره عقيدة، ولا حكم له، بل القلم مرفوع عن النائم والمجنون والمغمى عليه والسكران الذي سكر بغير سبب محرم، مثل من يسقى الخمر وهو لا يعرفها أو أوجرها حتى سكر، أو أطعم البنج وهو لا يعرفه، فكذلك».

ويقول معتذراً لهم: «وكما أنه لا جناح عليهم فلا يجوز الاقتداء بهم، ولا حمل كلامهم وفعالهم على الصحة، بل هم في الخاصة مثل الغافل والمجنون في التكاليف الظاهرة». [1]

هذا موقف ابن تيمية من الشطحات الصوفية، فهل يا ترى يتعارض مع موقف علماء الصوفية.

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٤١)



موقف علماء الصوفية من الشطحات

يتطابق موقف ابن تيمية من الشطح الصوفي مع مواقف سائر العلماء الصوفيين، وقد تحدث الإمام الغزالي عن الشطحات بكل صرامة، وحذر الأمة منها، ومن عواقبها.

وأرى أن ابن تيمية إنما تلقى موقفه من الشطحات عن الغزالي، وإن كان الغزالي بدا أكثر حدة في التعامل معها.

ففي بداية «الإحياء» يقسم الغزالي الشطحات إلى قسمين، وحتى لا أخل بمقصوده أنقل كلامه بالنص، ولتقارنه مع كلام ابن تيمية.

يقول رحمه الله: «وأما الشطح فنعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية:

أحدهما: الدعاوي الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد، وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية، والمشافهة بالخطاب، فيقولون قيل لنا كذا، وقلنا كذا، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذي صُلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله أنا الحق، وبما حكي عن أبي يزيد البسطامي أنه قال سبحاني سبحاني، وهذا فن من الكلام عظيم ضرره في العوام، حتى ترك جماعة من

أهل الفلاحة فلاحتهم، وأظهروا مثل هذه الدعاوي، فإن هذا الكلام يستلذه الطبع، إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم، ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة، ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا هذا إنكار مصدره العلم والجدال والعلم حجاب والجدل عمل النفس، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق، فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شرره، وعظم في العوام ضرره، حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة، وأما أبو يزيد البسطامي رحمه الله فلا يصح عنه ما يحكى، وإن سمع ذلك منه فلعله كان يحكيه عن الله عز وجل في كلام يردده في نفسه كما لو سمع وهو يقول (إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني) فإنه ما كان ينبغي أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية.

الصنف الثاني من الشطح: كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة، وفيها عبارات هائلة، وليس وراءها طائل، إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها، بل يصدرها عن خبط في عقله، وتشويش في خياله، لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه، وهذا هو الأكثر، وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره، لقلة ممارسته للعلم، وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب، ويدهش العقول، ويحير الأذهان، أو يحمل على أن يفهم منها معاني ما أريدت بها، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه». [1]

وقد استشهد ابن تيمية بكلام الغزالي في عدة مواضع من كتبه مثل «الاستقامة» وغيره.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (١/ ٥٤ ـ ٥٥)

وأنت تلاحظ أن الغزالي رحمه الله بدا أكثر حدةً من ابن تيمية.

والفارق بين ما قاله ابن تيمية وما قاله الغزالي، هو أن ابن تيمية إذا تحدث عن الشطحات الصوفية لا بد أن ينبِّه على أن صاحبها معذور بسبب السكر الذي يرفع عنه التكليف والمؤاخذة.

وهو ما ذكره العلامة ابن حجر الهيتمي، فقال: «وأما إذا صدر عنهم ذلك في حال الغيبة فهو من الشطحات التي لا حكم لها، إذ لا يحكم إلا على ما تلفظ به صاحبه في حال الصحو والاختيار، وأما ما تلفظ به في حيز الصحو والغيبة فلا يدار عليه حكم البتة».[1]

وذكر ابن حجر أن للعلماء إزاء هذه الشطحات مسالك:

منها: أن تلك الكلمات حكاية عن حضرة الحق، ونطق عما يليق، وما شاهدوه من أنوارها وغلبة التجوز في نحو ذلك من مقامات المحبة والعبودية والقرب يبسط لهم العذر، ويرفع عنهم الإصر، وممن اعتمد هذا المسلك الشهاب السهروردي.

ومنها: أن ذلك وقع منهم في حال الغيبة والسكر، الناشئين عن الفناء في المحبة، والشهود لموارد الأحوال المزعجة للقلب، الآخذة له من صحوه وتمييزه، ألا ترى أن بعض الهموم أو الواردات الدنيوية إذا وردت على القلب أذهلته وأذهبت تمييزه، لشدة تمكنها منه واستغراقه في فكره وخطرها، فإنه إذا كان هذا في الأمور السافلة التي لا تقاوم جناح بعوضة، فكيف بواردات الحق على القلوب، ولواعج المحبة المذهلة عن كل مطلوب ومرغوب، وعوالم الملكوت المنكشفة لهم في منازلاتهم، ومشاهدة عجائب القدرة في ترقياتهم، فإن ذلك لا

---

(١) «الفتاوى الحديثية» (ص٢١٤)

يبقى في القلب شعوراً ولا تمييزاً، بل يصير صاحبه كالسكران الثمل، فحينئذ ينطق بما رسخ في خلده قبل، ويرجع بطبعه قهراً عليه إلى مكان يلحظه ويعول عليه، فينطق لسانه بطبق تلك الأحوال، لكن بعبارات لا يقصد بها ما يوهمه ظاهرها من اتحاد أو حلول أو انحلال.

قال ابن حجر بعد ذكره لهذا التوجيه: «فتأمل ذلك، وعول عليه تسلم، وكل سكر نشأ عن سبب جائز، فصاحبه غير مكلف». [1]

ثم نقل هذا المسلك عن الإمام عبد القادر الجيلاني.

فقارن كلام هذا العالم الصوفي بما تقدم عن ابن تيمية هنا، وبما سقناه في مبحث الحلول والاتحاد، لتدرك أن المشرب واحد، وأنهم استقوا العذب الزلال من المورد نفسه.

تلك شطحات تقع من العارفين في حال السكر والاصطلام، ولهذا قال العلماء إنهم غير مؤاخذين فيها، وهناك شطحاتٌ تقع من العارفين في حال الصحو وحضور العقل والحس، وهي على نوعين:

أحدهما: يمكن حمله محملاً حسناً.

والآخر: لا يمكن حمله محملاً حسنا، ويجب رده.

وكأي مسألة فإن أفهام العلماء ومداركهم تختلف فيها، فيرى البعض رأياً أو عملاً ما سليماً قابلا للتوجيه الحسن، وبعضهم يحجر، ويراه قبيحاً لا يمكن حمله على وجه حسن.

***

(١) «الفتاوى الحديثية» (ص ٢٢٤)

قول عبد القادر الجيلاني: «قدمي هذه على رقبة كل ولي»

حصل هذا في بعض الشطحات المنقولة عن أقطاب الصوفية، كتلك المنقولة عن الإمام عبد القادر الجيلاني، وفيها أنه قال: «قدمي هذه على رقبة كل ولي».

وقد وقع جدل كثير حول كلمة الجيلاني هذه، فعدها السهروردي الصوفي الشهير من الشطحات التي لا يجوز الاقتداء بها، وهو أحسن ما قيل فيها، كما قال ابن مفلح، وابن رجب، وغيرهما.(١)

أما ابن تيمية فقد كان حسن الظن بهذا القطب الصوفي العظيم، وروى القصة بلفظ مختلف، وأولها تأويلاً مختلفاً أيضاً.

فقد ساقها بلفظ: «قدمنا هذا، أي طريقنا، على رقبة كل ولي لله».

ثم قال: «أي على كل ولي لله أن يتبع الأمر والنهي النبوي الإلهي الشرعي المحمدي، ويحكِّم على نفسه الكتاب والسنة، ولا يخرج عن ذلك، لا لذوق يخالفه، أو وجد، أو حال، أو مشهد، أو غير ذلك، بل يزن أذواقه ومواجيده وأحواله وحقائقه بالكتاب والسنة».(٢)

ويرى آخرون من العلماء أن لكلمة الجيلاني هذه معنى سليماً، ومن هؤلاء الحافظ ابن حجر العسقلاني، فرأى أنها غير مستبشعة لِمَا عُرف من أحوال الشيخ عبد القادر واتباعه للشريعة وتواتر كراماته، فقال هذه الكلمة

---

(١) انظر «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ١٩٧)، «المقصد الأرشد» (٢/ ١٥١)

(٢) «الرد على الشاذلي» (ص١٠٤)

لأنـه «لا يعـرف فـي عصـره مـن كان يسـاويه في الجمـع بين هـذه الكمـالات».[1]

وهـذا يعنـي أنـه قالهـا مـن بـاب التحـدث بنعمـة الله عليـه، كمـا يـرى الفقيه الهيتمـي.[2]

* * *

بعض الشطحات المنقولة عن أبي يزيد البسطامي

ومن الشطحات التي نص علماء الصوفية على عدم قبولها، ما روي عن أبي يزيد البسطامي من أقوال غريبة، وغالبها لا يصح عنه.

وذلك مثل قوله «سبحاني»، و«ما في الجبة إلا الله».

وروي عنه أنه قال: «ما النار، لأستندنَّ إليها غداً، وأقول اجعلني فداء لأهلها، وإلا بلعتها».

وعنه «ما الجنة، لعبة صبيان، ومراد أهل الدنيا».

وروي عنه أيضاً أنه قال: «ما المحدثون، إن خاطبهم رجل عن رجل، فقد خاطبنا القلب عن الرب».

وقال في اليهود: «ما هؤلاء، هبهم لي، أي شيء هؤلاء حتى تعذبهم».

وأشياء أخرى.

وقد رأيت توجيه ابن تيمية لبعض هذه الشطحات.

---

(١) «الجواهر والدرر» (٢/ ٩٤٣)

(٢) انظر «الفتاوى الحديثية» (ص ٢٢٥)

قال الذهبي: «وجاء عنه ـ يعني البسطامي ـ أشياء مشكلة لا مساغ لها، الشأن في ثبوتها عنه، أو أنه قالها في حال الدهشة والسكر، والغيبة والمحو، فيطوى، ولا يحتج بها، إذ ظاهرها إلحاد».

قال أبو عبد الرحمن السلمي الصوفي الكبير في «طبقات الصوفية»: «ويحكى عنه في الشطح أشياء، منها ما لا يصح، أو يكون مقولاً عليه، وكان يرجع إلى أحوال سنية». [١]

* * *

شطح آخر

ومن الشطحات المذمومة ما نقل عن بعض الصوفية أنه قيل له: أتحب أن تراه؟ قال: لا، قيل: ولمَ قال: أنزه ذاك الجمال عن نظر مثلي.

الإمام المناوي أحد أئمة الصوفية العارفين، يقول معلقاً على هذه الشطحة: «وهذه شطحة مذمومة، لا تعد من مناقب هذا القائل وإن جل، فإن رؤيته تعالى أعلى نعيم الجنة، وقد سألها من هو أعلى منزلة منه ومن غيره، وهو المصطفى ﷺ». [٢]

فحيثما رأيت عن أبي يزيد أو غيره هذه الشطحات فاعلم أنها على هذا النحو عند علماء الصوفية، إما أنها لا تصح عنهم، وإما أن لها توجيهاً حسناً، وإما أنها مردودة عليهم.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٨٨)

(٢) «فيض القدير» (٤/ ٤٠٧)

وفي الأخير يلخص الإمام المقري في «إضاءة الجنة» موقف الصوفية من الشطحات، فيقول:

ولا تُصغْ لمذهبِ النصارى ... ومَنْ إلى دعوى حُلولٍ صارا

فذاكَ كالقولِ بالاتحادِ ... نحلةِ أهلِ الزيغِ والإلحادِ

وموهمُ المحظورِ من كلامِ ... قومٍ من الصوفيةِ الأعلامِ

جرياً على عرفهمُ المخصوصِ ... يُرجع بالتأويلِ للمنصوصِ

وما يفوهونَ به في الشطْحِ ... فقيلَ غيرُ مقتضٍ للقدْحِ

وهو إلى التأويلِ ذو انتحالِ ... أو أنهمْ قد غُلبوا بالحالِ

وفي إحدى قصائده يقول العالم القطب بهاء الدين محمد مهدي الرفاعي:

هذا طريقُ الشرعِ يا مغرورُ ... خلِّ الهوى فلكلِّ حقٍّ نورُ

لا تنبسطْ للشَّطْحِ واعرفْ حكمَهُ ... وافطنْ فزعمُ الشاطحينَ غرورُ

إلى أن قال:

فالقائلونَ بوحدةٍ إطلاقُها ... نزغاتُ زيغٍ كُلُّهمْ ممكورُ

راموا القصورَ بوهمهمْ فرمى بهمْ ... مِنْ قُرْبِ شاهقةِ القصورِ قصورُ

فلبعضهمْ حدُّ السيوفِ وبعضُهمْ ... لكمالهِ في حالِهِ معذورُ

وكلامُهُ في الشطْحِ نقصٌ ظاهرٌ ... وبهِ عن النهجِ القويمِ فتورُ[1]

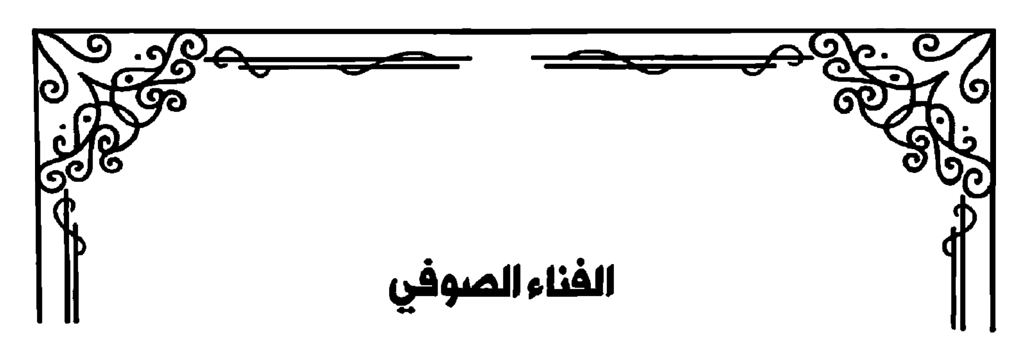
فهذا موقف علماء الصوفية من الشطح الصوفي، وذاك موقف ابن تيمية

---

(١) انظر كتاب «الطريقة الرفاعية» للصيادي (ص٣٨، ٣٩)

المطابق له، ومن استند إلى شيء من كلامه المشار إليه ليهاجم به الصوفية، فهو إما صاحب هوى مماري، وإما لا يدري ما يخرج من رأسه، فلا فرق أصلا بين موقف ابن تيمية وموقف سائر علماء الصوفية من الشطحات، وليس ثمَّتَ من خلل إلا في ذهن الخاطئ الذي يفرق بين المتماثلات المتطابقات.

***



الفناء الصوفي

الحديث عن الشطحات يجرنا إلى الحديث عن أحد أهم أسبابها، وهو الفناء.

والكلام فيه من جانبين.

الأول: في قبول هذا المصطلح واستخدامه.

والثاني: في معناه عند الصوفية، وعند ابن تيمية.

حاصل معنى الفناء عند الصوفية هو الغياب عن الخلق، والاستغراق في مشاهدة الربوبية، وهو الذي يعبر عنه ابن تيمية بـ «أن يغيب بمشهوده عن شهوده، وبموجوده عن وجوده».

يقول: «أهل الفناء يفقدون إدراك الأشياء ومعرفتها، مصطلمين في ذكر الله».[1]

وهو يفسره ويقسمه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: فناء عن إرادة ما سوى الله، وهو أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه، وبخوفه عن خوف ما سواه، وبرجائه عن رجاء ما سواه، وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه، وبمحبته عن محبة ما سواه، وهذا هو حقيقة التوحيد والإخلاص الذي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه، وهو تحقيق «لا إله إلا الله» فإنه

---

(١) «الاستقامة» (ص١١٢)

يفنى من قلبه كل تأله لغير الله، ولا يبقى في قلبه تأله لغير الله، وكل من كان أكمل في هذا التوحيد كان أفضل عند الله.[1]

ويسميه «الفناء المحمدي»، أو «الفناء الديني الشرعي».[2]

خلافاً لمعاصرينا الذين لا يطيقون سماع هذا الاصطلاح.

والقسم الثاني: فناء القاصدين من الأولياء والصالحين، كما يقول، وفي موضع يذكر أنه حال «يعرض لبعض العارفين في مقام الفناء، والجمع، والاصطلام، والسكر».[3]

ويسميه حجة الإسلام الغزالي ـ وهو محقق السادة الصوفية ـ بـ «مشاهدة الصديقين».[4]

وهو الفناء عن شهود ما سوى الله، أو الفناء عن إدراك السوى، وهو أن يفنى بمشهوده عن شهوده، بحيث قد يغيب عن شعوره بنفسه، وبما سوى الله.

يقول ابن تيمية: «وهذا الذي يسميه كثير من الصوفية حال الاصطلام، والفناء، والجمع، ونحو ذلك».[5]

«وهذا يحصل لكثير من السالكين، فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته، وضعف قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد، وترى غير ما تقصد، لا

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٣٤٣) (١٠/ ٣٣٧)

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٥٩)، «التدمرية» (ص ٢٢١)

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٣٦٨)

(٤) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٢٤٥)

(٥) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٣٧٠)

يخطر بقلوبهم غير الله، بل ولا يشعرون، كما قيل في قوله ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ قالوا: فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى، وهذا كثير يعرض لمن فقمه أمر من الأمور، إما حب، وإما خوف، وإما رجاء، يبقي قلبه منصرفاً عن كل شيء إلا عما قد أحبه أو خافه أو طلبه، بحيث يكون عند استغراقه في ذلك لا يشعر بغيره، فإذا قوي على صاحب الفناء هذا فإنه يغيب بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، حتى يفنى من لم يكن وهي المخلوقات المعبدة ممن سواه، ويبقى من لم يزل وهو الرب تعالى، والمراد فناؤها في شهود العبد وذكره، وفناؤه عن أن يدركها أو يشهدها، وإذا قوي هذا ضعف المحب حتى اضطرب في تمييزه فقد يظن أنه هو محبوبه». [1]

«وهو حال ناقص قد يعرض لبعض السالكين، وليس هو من لوازم الطريق، ولم يعرض مثل هذا للنبي ﷺ والسابقين الأولين، ومن جعل هذا نهاية السالكين فهو ضال ضلالاً مبيناً، وكذلك من جعله من لوازم طريق الله فهو مخطئ، بل هو من عوارض طريق الله التي تعرض لبعض الناس دون بعض، ليس هو من اللوازم التي تحصل لكل سالك». [2]

فالأول فناء عن الإرادة، وهذا فناء عن الشهادة، وعامة ما تجده في كتب أصحاب الصوفية من الفناء هو هذا، كما يقول. [3]

وهو رد على معاصرينا الذين يفسرون الفناء الصوفي ـ دون معرفة ـ بالاتحاد.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢١٩)

(٢) «التدمرية» (ص٢٢٢)

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٣٨، ٣٤١)

وفي موضع آخر ينسب هذا القسم من الفناء إلى بعض الصوفية، فيقول: «الفناء الثاني: وهو الذي يذكره بعض الصوفية، وهو أن يفنى عن شهود ما سوى الله تعالى، فيفنى بمعبوده عن عبادته، وبمذكوره عن ذكره». [1]

وهؤلاء في رأي ابن تيمية اذا لم يتركوا واجباً لم يضرهم فناؤهم، وإن تركوا مستحباً مشتغلين عنه بما هو أفضل منه لم ينقلوا عن مقامهم، وإن اشتغلوا عما تركوه من المستحب بما ليس مثله، فانتقالهم الى ذلك الأفضل أفضل، إذا أمكن، وإلا ففعل المقدور عليه من الصالحات خير من الاهتمام بما يعجز عنه ويصد عن غيره، وإن تركوا واجباً، أو فعلوا محرماً مع إمكان العلم والقدرة فهم مؤاخذون على ذلك، وإن كان مع سقوط التميز لسبب يعذرون به، مثل زوال عقل بسبب غير محظور، أو سكر بسبب غير محظور، أو عجز لا تفريط فيه، فلا ذم عليهم، وإن كان مع التكليف فسبب الذم قائم، ثم لهم حكم الله فيهم كما لسائر المؤمنين من كون الذنب صغيراً أو كبيراً مقرونا بحسنات ماحية، أو غير ذلك من أحكام السيئات، مالم يخرجوا إلى فناء أهل الإلحاد، وهو:

القسم الثالث: الفناء عن وجود السوى، بمعنى أنه يرى أن الله هو الوجود، وأنه لا وجود لسواه، لا به، ولا بغيره، وهو مذهب وحدة الوجود الذي لا يتردد شيخنا الإمام في تكفير أصحابه. [2]

وهذا التقسيم تلخيص بديع لمعنى الفناء عند الصوفية، يجمع ما تناثر في كتب القوم، وإسهام منه في خدمة هذا العلم، وتقريبه، ونشره.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ١١٨)

(٢) انظر «الاستقامة» (ص٣٤٤ـ٣٤٥)، «التدمرية» (ص٢٢٢)، «مجموع الفتاوى» (٢/ ٣١٣، ٣٤٣، ٣٦٩) (١٠/ ٣٤٢)

أما القسم الأول فهو المعنى الذي يدور عليه قطب رحى التصوف، وهو تحقيق العبودية، وانتزاع كل ما سوى الله من القلب والعقل والوجدان، وهو الفناء عن الصفات والأخلاق الذميمة.

يقول الإمام أبو القاسم القشيري: «أشار القوم بالفناء إلى سقوط الأوصاف المذمومة، وأشاروا بالبقاء إلى قيام الأوصاف المحمودة به».

وقال عبد اللطيف في شرح المثنوي: «الفناء عند الصوفية سقوط الأوصاف المذمومة والبقاء ثبوت النعوت المحمودة». [1]

وفي «التعرف» للكلاباذي: «الفناء هو أن يفنى عنه الحظوظ، فلا يكون له في شيء من ذلك حظ، ويسقط عنه التمييز فناء عن الأشياء كلها، شغلاً بما فني به، والحق يتولى تصريفه فيصرفه، في وظائفه وموافقاته، فيكون محفوظاً فيما لله عليه، مأخوذاً عما له وعن جميع المخالفات، فلا يكون له إليها سبيل، وهو العصمة، وذلك معنى قوله ﷺ «كنت له سمعاً وبصراً» الخبر».

وقال المولوي عبد الحكيم في «حاشية عبد الغفور»: معنى الفناء في اصطلاح الصوفية: تبديل الصفات البشرية بالصفات الإلهية، دون الذات، فكلما ارتفع صفة قامت صفة إلهية مقامها، فيكون الحقُّ سمعه وبصره، كما نطق به الحديث». [2]

ويقول في «التعرف» أيضاً: «والبقاء الذي يعقبه هو أن يفنى عما له ويبقى بما لله، والباقي هو أن تصير الاشياء كلها له شيئاً واحداً، فتكون كل حركاته في موافقات الحق دون مخالفاته، فيكون فانياً عن المخالفات، باقياً في الموافقات.

---

(١) «كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم» (ص ١٢٩١)

(٢) «كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم» (ص ١٢٩١)

وليس معنى أن تصير الأشياء كلها له شيئاً واحداً أن تصير المخالفات له موافقات فيكون ما نهى عنه كما أمر به، ولكن على معنى ألا يجري عليه إلا ما أمر به وما يرضاه الله تعالى دون ما يكرهه، ويفعل ما يفعل لله لا لحظ له فيه في عاجل أو آجل».

«وهذا معنى قولهم يكون فانياً عن أوصافه، باقياً بأوصاف الحق، لأن الله تعالى إنما يفعل الأشياء لغيره لا له، لأنه لا يجر به نفعاً ولا يدفع به ضراً، تعالى الله عن ذلك، وإنما يفعل الأشياء لينفع الأغيار أو يضرهم، فالباقي بالحق الفاني عن نفسه يفعل الأشياء لا لجر منفعة إلى نفسه ولا لدفع مضرة عنها، بل على معنى أنه لا يقصد في فعله جر المنفعة ودفع المضرة، قد سقطت عنه حظوظ نفسه ومطالبة منافعها، بمعنى القصد والنية، ولا بمعنى أنه لا يجد حظاً فيما يعمل مما لله عليه، يفعله لله لا لطمع ثواب ولا لخوف عقاب، وهما أعنى الخوف والطمع باقيان معه قائمان فيه، غير أنه يرغب في ثواب الله لموافقة الله تعالى، لأنه رغب فيه وأمر أن يسأل ذلك منه، ولا يفعله للذة نفسه، ويخاف عقابه إجلالاً له وموافقة له، لأنه خوف عباده، ويفعل سائر الحركات لحظ الغير لا لحظ نفسه، كما قيل المؤمن يأكل بشهوة عياله». [1]

وحول هذه المعاني ينصب حديث الصوفية عن الفناء، وهو القسم الأول، وهو الذي ذكره الكاشاني في «مصطلحات الصوفية». [2]

وهو ما نص عليه ابن القيم ـ الناطق الرسمي لابن تيمية ـ في كتابه الجليل «مدارج السالكين» وهو من أجمل كتب التصوف، حيث أكد على أن الفناء عند

---

(١) «التعرف لمذهب أهل التصوف» (ص١٢٣)

(٢) (ص٣٦٥)

الصوفية هو «ذهاب القلب وخروجه عن هذا العالم، وتعلقه بالعلي الكبير الذي له البقاء، فلا يدركه الفناء، ومن فني في محبته وطاعته وإرادة وجهه أوصله هذا الفناء إلى منزل البقاء». [1]

وأما القسم الثاني فيفهم من كلام بعض الصوفية، ولم تجمع عليه كلمة القوم، كما أجمعت على القسم الأول.

ويشير القشيري إلى القسم الثاني من الفناء، فيقول: «ومن شاهد جريان القدرة في تصاريف الأحكام يقال فني عن حسبان الحدثان من الخلق، فإذا فني عن توهم الآثار من الأغيار بقي بصفات الحق، ومن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لاعيناً ولا أثراً ولا رسماً ولا طللاً يقال إنه فني عن الخلق، وبقي بالحق، ففناء العبد عن أفعاله الذميمة وأحواله الخسيسة بعدم هذه الأفعال، وفناؤه عن نفسه وعن الخلق بزوال إحساسه بنفسه وبهم، فإذا فني عن الأفعال والأخلاق والأحوال فلا يجوز أن يكون ما فني عنه من ذلك موجوداً، وإذا قيل فني عن نفسه وعن الخلق، فنفسه موجودة، والخلق موجودون، ولكنه لا علم له بهم، ولابه، ولا إحساس، ولا خبر، فتكون نفسه موجودة والخلق موجودين، ولكنه غافل عن نفسه وعن الخلق أجمعين غير محس بنفسه وبالخلق». [2]

وقد لخص العلامة البيجوري أقسام الإيمان، فذكر أنه على خمسة أقسام:

إيمان عن تقليد، وهو الناشئ عن الأخذ بقول الشيخ من غير دليل.

وإيمان عن علم، وهو الناشئ عن معرفة العقائد بأدلتها.

---

(١) «مدارج السالكين» (٤/ ٣١٠ـ٣١١)

(٢) «الرسالة» (ص٦٨) ـــ

وإيمان عن عيان، وهو الناشئ عن مراقبة القلب لله، بحيث لا يغيب عنه طرفة عين.

وإيمان عن حق، وهو الإيمان عن مشاهدة الله بالقلب.

وإيمان عن حقيقة، وهو الناشئ عن كونه لا يشهد إلا الله.

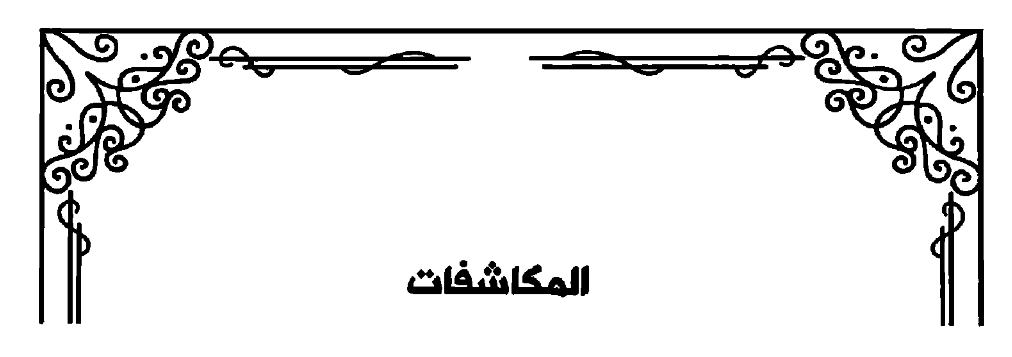
ثم قال: «فالتقليد للعوام، والعلم لأصحاب الأدلة، والعيان لأهل المراقبة، ويسمى مقام المراقبة، والحق للعارفين، ويسمى مقام المشاهدة، والحقيقة للواقفين، ويسمى مقام الفناء، لأنهم يفنون عن غير الله، ولا يشهدون إلا إياه، وأما حقيقة الحقيقة فهي للمرسلين، وقد منعنا الله من كشفها، فلا سبيل إلى بيانها».[1]

وأما القسم الثالث، قد تقدم موقف الصوفية الواضح الصريح منه، ومن نسبه إليهم فهو مفترٍ معاند.

* * *

---

(١) «تحفة المريد» للبيجوري (ص٥٢)



المكاشفات

لعل من أبرز ما ينقمه خصوم التصوف على الصوفية موضوع المكاشفات، حيث يتهمونهم بادعاء علم الغيب، والاطلاع على ما في الصدور، وهو حق لله وحده، كما يقولون.

وتتعجب كثيراً حين تعلم أن موضوع المكاشفات الصوفية نص عليه ابن تيمية في أشهر مختصرات العقيدة التي يدرسها أخوتنا هؤلاء، فعد الإيمان به أصلاً من أصول أهل السنة والجماعة التي يباينون بها أهل البدع والأهواء.

يقول في «العقيدة الواسطية»: «**من أصول أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء، وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم، والمكاشفات، وأنواع القدرة والتأثيرات**».[1]

واستناداً إلى هذا النص فإن من أنكر المكاشفات فقد خالف أصلاً من أصول أهل السنة والجماعة، وخرج عن دائرتهم، ولحق بركب أهل البدع.

ومن المعلوم أن الأصول التي يشير إليها ابن تيمية هي خطوط تمايز بين أهل السنة وغيرهم، وهي تشكل مجموع ما يسمى بعقيدة أهل السنة والجماعة، وأقل أركان عقيدة أهل السنة، ومتى انهدم ركن من أركان الماهية انعدمت.

---

(١) «العقيدة الواسطية» شرح الهراس(ص٢٨٦)

فإذا كان من أنكر أصلاً من أصول أهل السنة ليس منهم، فكيف بمن يتجرأ على تضليل مخالفيه لكونهم يقولون بأصل من أصول أهل السنة؟!

والكشف كما يقول الجرجاني في «التعريفات»: «هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجودا وشهودا».

وقد تناول ابن تيمية موضوع الكشف كما تناوله علماء الصوفية.

فنص بالعربي الفصيح على أنه لا ينكر المكاشفات، فقال: «نحن لا ننكر أن النفس يحصل لها نوع من الكشف، إما يقظة، وإما مناماً، بسبب قلة علاقتها مع البدن، إما برياضة أو بغيرها، وهذا هو الكشف النفساني».[١]

ونقل كلمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اقتربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا منهم ما يقولون، فإنه تتجلى لهم أمور صادقة».

ثم قال: «وهذه الأمور الصادقة التي أخبر بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنها تتجلى للمطيعين هي الأمور التي يكشفها الله عز وجل لهم، فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات».[٢]

ويرى أن من أسباب الوجوب والتحريم والإباحة ما قد يكون ظاهراً، فيشترك فيه الناس، ومنه ما يكون خفياً على بعضهم، ظاهراً لبعضهم، على الوجه المعتاد، ومنه ما يكون خفياً يعرف بطريق الكشف، وقصة الخضر من هذا الباب.

قال: «وذلك يقع كثيراً في أمتنا، مثل أن يقدم لبعضهم طعام، فيكشف له أنه مغصوب، فيحرم عليه أكله، وإن لم يحرم ذلك على من لم يعلم ذلك».[٣]

---

(١) «الصفدية» (١/ ١٨٧)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٠٥)

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٢٨)

ويقسِّم المكاشفات إلى ثلاثة أقسام، فيقول: «ما يحصل من نوع المكاشفة والتصرف ثلاثة أصناف: ملكي، ونفسي، وشيطاني، فإن الملك له قوة، والنفس لها قوة، والشيطان له قوة، وقلب المؤمن له قوة، فما كان من الملك ومن قلب المؤمن فهو حق، وما كان من الشيطان ووسوسة النفس فهو باطل».[1]

ويلفت النظر إلى السلوك الذي تحصل به المكاشفات التي يحبها الله ورسوله، فيقول: «فالأكل من الطيبات والعمل الصالح يورث الأحوال الرحمانية من المكاشفات والتأثيرات التي يحبها الله ورسوله».[2]

ويذكر أن الخارق ـ كشفاً كان أو تأثيراً ـ إن حصل به فائدة مطلوبة في الدين كان من الأعمال الصالحة المأمور بها ديناً وشرعاً، إما واجب، وإما مستحب، وإن حصل به أمر مباح كان من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكراً.[3]

ويتحدث عن السماعات، والمخاطبات، والمكاشفات، والمشاهدات، التي يتحدث عنها الصوفية، فيقول: «فما كان من الخوارق من باب العلم، فتارة بأن يسمع العبد ما لا يسمعه غيره، وتارة بأن يرى ما لا يراه غيره يقظة ومناماً، وتارة بأن يعلم ما لا يعلم غيره، وحياً، وإلهاماً، أو إنزال علم ضروري، أو فراسة صادقة، ويسمى كشفاً، ومشاهدات، ومكاشفات، ومخاطبات، فالسماع مخاطبات، والرؤية مشاهدات، والعلم مكاشفة، ويسمى ذلك كله كشفاً، ومكاشفة، أي كشف له عنه».[4]

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦١٣)

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٤٩٩)

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٣١٩)

(٤) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٣١٣)

قلت: فيا ترى هل هذا كلام خصم للتصوف، أم كلام صوفي عريق؟!

وكلامه رحمه الله في إثبات المكاشفات أكثر من أن يحصى، ونصوصه في ذلك في غاية الصراحة، لا تحتمل تأويل العابثين الذين طالما تحسسوا من التأويل، وضللوا به منارات الإسلام وأئمة الهدى.

إن الكشف الذي يتحدث عنه ابن تيمية، هو الكشف الصوفي المعروف عند سائر العلماء، ولا يوجد في التصور الإسلامي كشفان، كشف سني، وآخر صوفي، أو كشف السلف، وكشف الخلف، كما يحلو لبعضهم التشدق به إذا ما أُلجم بمثل كلام ابن تيمية الصريح في إثبات المكاشفات.

إن موقف ابن تيمية من «الكشف» هو موقف المصلح المجدد، وليس موقف الهادم الناقم، ولهذا نراه يوجه نقده في هذا الموضوع لطائفتين من الناس:

إحداهما: تغلو في الخوارق والمكاشفات، ولا تلتزم بضوابطها.

وأخرى: تنفيها وتعتبرها من الخرافات الصوفية، وغالباً فإن الحق يضيع بين الطرفين النقيضين.

يقول: «وكذلك الأمور الكشفية التي للأولياء من أهل الكلام من ينكرها، ومن أصحابنا من يغلو فيها، وخيار الأمور أوساطها».[1]

وبهذا سلم ابن تيمية من الوقوع في مذهب المعتزلة الذين ينكرون خوارق العادات، وسلم من دسائس المفسدين الذين يحاولون تقويض الشريعة، وإفساد العقيدة عن طريق ادعاء الكشف، كما هو حال الملحدين من الفلاسفة.[2]

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٣٣٨)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٣٧١)

فأهل الإسلام تجاه المكاشفات قسمان:

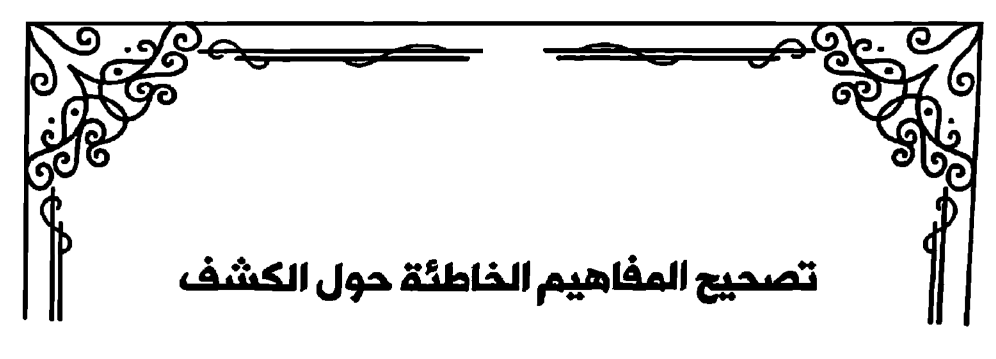
الأول: يثبتها، وهم أهل السنة، حسبما قرر ابن تيمية في «الواسطية» وسائر كتبه، وكما هو مقرر في عامة مصنفات أهل السنة.

والقسم الثاني: ينكرها، وهو من المذاهب الرديئة التي عافها أهل السنة في جميع القرون، حتى نبتت نابتة تدعي أنها على مذهب أهل السنة والسلف فأنكرتها وضللت السلف وأهل السنة في مسائل عديدة.

فأولى الناس بالإنكار هم المنكرون للمكاشفات الخارجون عن أهل العلم وعن الجماعة.

بهذا تعلم أن الصوفية سائرون على جادة أهل السنة والجماعة، وأن ابن تيمية رفيقهم وسميرهم وواحد منهم.





تصحيح المفاهيم الخاطئة حول الكشف

أجمع علماء الصوفية على إثبات المكاشفات لأولياء الله الصالحين، كما هو قول عامة أهل السنة، وقد رأيت النقل عنهم من كلام ابن تيمية في «العقيدة الواسطية»، أشهر مختصرات العقائد لدى خصوم الصوفية.

وهذا أصل ثابت ومقرر.

لكن علماء الصوفية أهل اليقظة كانوا ـ وما زالوا ـ يدركون أن المندسين والجهلة سيحاولون استغلال هذه القضية استغلالاً سيئاً، أو على الأقل سوف يسيؤون فهمها، فبذلوا جهوداً مضنية لتصحيح المفاهيم الخاطئة.

ولم يسع ابن تيمية إلا أن يسير على خطاهم، ويقتفي آثارهم، ويواصل مسيرتهم، لتكون جهوده حلقة في سلسلة طويلة بدأت منذ نشأ التصوف كعلم، ولن تنتهي إلا بانتهاء الحياة على ظهر هذا الكوكب، إن شاء الله.

ولنسلط الضوء ـ أولاً ـ على آراء ابن تيمية وجهوده في تصحيح المفاهيم الخاطئة المتعلقة بالكشف، ثم نردفها بأقوال أئمة الصوفية، لندرك مدى مصداقية هذه الحقيقة العلمية التي نحن بصدد الحديث عنها، والتي يحاول البعض ـ للأسف ـ كتمها، بل جحدها، مع أنها واضحة جلية.

* * *

معيار الولاية هو الاتباع، وليس الكشف

يسعى ابن تيمية إلى تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة عن المكاشفات والخوارق عموما، فلربما ظن بعض الناس أن مجرد وقوع المكاشفات دليل على أن صاحبها من الأولياء، دون مراعاة ما يشترط في الولي من اتباع الشريعة والتحاكم إليها.

وهذا بالطبع تصور خاطئ كان قد انتشر في زمن ابن تيمية، فرأى أنه من الضروري التركيز على تصحيحه وتسليط الضوء عليه.

يقول: «فإن كثيراً من الكفار والمشركين فضلاً عن أهل الكتاب يكون لهم من المكاشفات وخرق العادات بسبب شياطينهم». [1]

ولفت النظر إلى أن المكاشفات قد تقع من أهل البدع كذلك. [2]

ويقول: «وكل من خالف شيئاً مما جاء به الرسول مقلداً في ذلك لمن يظن أنه ولي الله فإنه بنى أمره على أنه ولي لله، وأن ولي الله لا يخالف في شيء، ولو كان هذا الرجل من أكبر أولياء الله، كأكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان، لم يقبل منه ما خالف الكتاب والسنة، فكيف إذا لم يكن كذلك، وتجد كثيراً من هؤلاء عمدتهم في اعتقاد كونه ولياً لله أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور،،، بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء، أو مشى على الماء لم يغتر به حتى ينظر متابعته لرسول الله ﷺ وموافقته لأمره ونهيه». [3]

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٤٥)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢١٤)

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢١٣-٢١٤)

«فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص ولياً لله»، لا سيما «إذا علم منه ما يناقض ولاية الله، مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبي ﷺ باطناً وظاهراً، بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر دون الحقيقة الباطنة، أو يعتقد أن لأولياء الله طريقاً إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم السلام، أو يقول إن الأنبياء ضيقوا الطريق، أو هم على قدوة العامة دون الخاصة، ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدعي الولاية». (١)

إن المكاشفات نوع من الكرامات والخوارق التي يجريها الله على أيدي أوليائه، فالتصديق بها يندرج تحت التصديق بالكرامات، ويشترط ابن تيمية فيها ما يشترط في الكرامات، بأن تقع من الصالحين المتبعين للشريعة، فإن وقعت على يدي الدجالين فهي نوع من الأحوال الشيطانية. (٢)

فإذا ما تجاوزنا معايير الشريعة واعتمدنا على مجرد الكشف، فإننا لن نسلم من الاضطراب، لأن الكشف وإن كان في الجملة حق إلا أنه غير منضبط، فلا يمكنه أن يحقق المقصود بدون الطريقة النبوية. (٣)

هذا ما يدندن حوله ابن تيمية، ويجاهد لترسيخه في العقلية الإسلامية.

فيا ترى هل كان ابن تيمية حينها يسلك طريقاً غير طريق السادة الصوفية، أم أنه سلك طريقا سالكاً سبقه إليه أئمة التصوف.؟!

أرجو أن نقف عند هذا السؤال.

---

(١) «مجموع الفتاوى»(١١/ ١٩٤)

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢١٤) (٢٧/ ٤٩٩)

(٣) انظر «شرح العقيدة الأصفهانية» (ص٤٤ ـ ٤٥)

فإن بعضهم يتخذ من كلام ابن تيمية هذا حجة لإثبات خصومته للصوفية، من دون أن يقرأه قراءة صحيحة، غاضاً الطرف عن مثل كلامه السابق الذي يقطع الشك باليقين، ويثبت بالنص القول بالمكاشفات.

لا شك أن موقف ابن تيمية هذا هو موقف عامة الصوفية، وبه صرح أئمتهم، ولا يوجد بينهم خلاف، فقد أجمعوا على أن من شرط الولاية التمسك بالكتاب والسنة قبل النظر في شيء من الأحوال والمقامات.

وأقوالهم بخصوص المكاشفات كثيرة ومعروفة.

من ذلك قول الإمام العارف أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه: «كل علم تسبق إليك فيه الخواطر، وتميل النفس، وتلتذ به فارم به وخذ بالكتاب والسنة». (١)

وقال: «إذا عارض كشفك الصحيح الكتاب والسنة فاعمل بالكتاب والسنة، ودع الكشف، وقل لنفسك إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة، ولم يضمنها لي في جانب الكشف والإلهام». (٢)

ويقول الإمام الشعراني: «فإن قلت: إن سلمنا للأولياء ما جاؤوا به فما حكمه إذا خالف ما جاءت به الرسل؟

فالجواب: حكمه الرد، فإن الولي إذا أتى في كشفه بما يخالف ما كشف للرسل وجب علينا الرجوع إلى كشف الرسل، وعلمنا أن ذلك الولي قد طرأ عليه في كشفه خلل». (٣)

---

(١) «شذرات الذهب» (٧/ ٤٨٣)

(٢) «إيقاظ الهمم»(٣/ ٣٠٢) نقلا من «حقائق التصوف» للعلامة عبد القادر عيسى (ص٣٨٩)

(٣) «اليواقيت والجواهر» (ص٤٦٩)

وشدد علماء الصوفية على ضرورة تعلم علوم الشريعة، محذرين من المتصوفة الجهلة الذين سيطر عليهم الكسل والبطالة، وتوهموا أن العلم قد يحصل بالمكاشفات من غير حاجة إلى التعلم والبحث والتحصيل.

في «الطريقة المحمدية» ـ أحد أشهر كتب الصوفية ـ قال: «فعليك أيها السالك بالجد والمواظبة في تحصيل العلم، فلا تصغ إلى ترهات جهلة الصوفية في زماننا يقولون العلم حجاب، وأنه يحصل بالكشف فلا حاجة إلى الكسب، فإنه كذب وضلال وإضلال». [1]

* * *

(١) «بريقه محمودية» (١/ ٢٩٩)

المكاشفات ليست شرطاً لحصول الولاية

كما أن المكاشفات تقع ضمناً دون أن يقصد الولي الوصول إليها، ومن غير أن تكون هاجساً للمريد. [1]

فبعضهم يظن أنه لو لم تحصل له المكاشفات فقد باء بالحرمان والخسران.

وهو مفهوم غير صحيح، إذ ليس من شرط الولي أن يقع له الكشف، بل قد يكون عدم وقوعه أنفع له في دينه.

يقول ابن تيمية: «عدم الخوارق علماً وقدرة لا تضر المسلم في دينه، فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات، ولم يسخر له شيء من الكونيات، لا ينقصه ذلك في مرتبته عند الله، بل قد يكون عدم ذلك أنفع له في دينه إذا لم يكن وجود ذلك في حقه مأموراً به أمر إيجاب ولا استحباب». [2]

ويؤيد ما ذهب إليه بالاستشهاد بكلام الصوفية، فينقل عن أبي علي الجوزجاني أنه قال: «كن طالباً للاستقامة لا طالبا للكرامة، فإن نفسك منجبلة على طلب الكرامة وربك يطلب منك الاستقامة».

وينقل عن شيخ الصوفية الإمام العارف أبي حفص السهروردي في «عوارفه» أنه قال: وهذا الذي ذكره (يعني الجوزجاني) أصل عظيم كبير في الباب، وسر غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلاب، وذلك أن المجتهدين والمتعبدين سمعوا

---

(١) «الرد على الشاذلي»(ص٢٤)

(٢) «مجموع الفتاوى»(١١/ ٣٢٣)

عن سلف الصالحين المتقدمين وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات، فأبداً نفوسهم لا تزال تتطلع إلى شيء من ذلك، ويحبون أن يرزقوا شيئاً من ذلك، ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب متهماً لنفسه في صحة عمله حيث لم يكاشف بشيء من ذلك، ولو علموا سر ذلك لهان عليهم الأمر، فيعلم أن الله يفتح على بعض المجاهدين الصادقين من ذلك باباً، والحكمة فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة تفنناً[1]، فيقوى عزمه على هذا الزهد في الدنيا والخروج من دواعي الهوى، وقد يكون بعض عباده يكاشف بصدق اليقين ويرفع عن قلبه الحجاب، ومن كوشف بصدق اليقين أغني بذلك عن رؤية خرق العادات، لأن المراد منها كان حصول اليقين وقد حصل اليقين، فلو كوشف هذا المرزوق صدق اليقين بشيء من ذلك لازداد يقيناً، فلا تقتضي الحكمة كشف القدرة بخوارق العادات لهذا الموضع استغناء به، وتقتضي الحكمة كشف ذلك الآخر لموضع حاجته، وكان هذا الثاني يكون أتم استعداداً وأهلية من الأول، فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة فهي كل الكرامة، ثم إذا وقع في طريقه شيء خارق كان كأن لم يقع فما يبالي ولا ينقص بذلك، وإنما ينقص بالإخلال بواجب حق الاستقامة، فتعلم هذا، لأنه أصل كبير للطالبين والعلماء الزاهدين ومشايخ الصوفية».[2]

هل رأيت كيف يتتلمذ ابن تيمية على أئمة الصوفية، هل رأيت كيف يستقي علومه منهم؟

ويشبه هذا الذي نقله ابن تيمية عن السهروردي، ما حكاه التاج السبكي في «طبقاته» عن أبي تراب النخشبي.

---

(١) هكذا في «مجموع الفتاوى»، و«مجموع الرسائل»، ويظهر من السياق أن الصواب «يقيناً».

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٣٢٠ـ ٣٢١)

قال أبو على الروذباري: سمعت أبا العباس الرقي يقول: كنا مع أبى تراب النخشبى في طريق مكة، فعدل عن الطريق إلى ناحية، فقال له بعض أصحابه: أنا عطشان. فضرب برجله فإذا عين من ماء زلال، فقال الفتى: أحب أن أشربه في قدح. فضرب بيده الأرض فناوله قدحاً من زجاج أبيض كأحسن ما رأيت، فشرب وسقاني، وما زال القدح معنا إلى مكة.

فقال لي أبو تراب يوماً: ما يقول أصحابك في هذه الأمور التي يكرم الله بها عباده؟

فقلت: ما رأيت أحداً إلا وهو مؤمن بها.

فقال: من لا يؤمن بها فقد كفر، إنما سألتك من طريق الأحوال.

فقلت: ما أعرف لهم قولاً فيه.

فقال بلى، قد زعم أصحابك أنها خدع من الحق، وليس الأمر كذلك، إنما الخدع في حال السكون إليها، فأما من لم يقترح ذلك فتلك مرتبة الربانيين.

ثم قال التاج السبكي: «قد اشتمل كلام أبى تراب هذا على فصلين مهمين:

أحدهما: أن الكرامات والمكاشفات ليست خدعاً إلا لمن يقف عندها ويجعلها شوقه ومقصوده، ولا شك في هذا، وقد بالغ قوم في تعظيمها، بحيث سلبوا بها المواهب، وبالغ آخرون في امتهانها، بحيث لم يعدوها شيئاً، والحق ما ذكره أبو أيوب من أن السكون إليها نقص، فمن الواضح الجلي الذى لا ينكره عارف أن العارف لا يقف عندها، وإنما مطلوبه وراءها، وهى تقع في طريقه، وليس للواقع في الطريق من الطريق صفة، ومن وقف عندها سقط في مهاوى الهلكات،

ومن كانت هي مطلوبه فهو مغرور، ويبعد وصوله إليها، وإنما يصل إليها من لا يراها، فافهم ما يلقى إليك». [1]

* * *

هل يقع الخطأ في المكاشفات؟

ومن النقاط المهمة التي نبَّه عليها ابن تيمية في الكشف، أن المكاشفات ليست قطعية، بل هي محل اجتهاد، وقد يدخلها الصواب والخطأ، مثل الرؤى، ومعيار قبولها أو ردها هو موافقتها للشريعة، فلا يجب أن تكون المكاشفات صحيحة، ولا يجب قبول قول كل من بنى رأيه أو موقفه على الكشف.

ويستدل على ذلك بحال عمر الذي وصفه الرسول ﷺ بـ «المحدَّث»، وهو صاحب قصة «يا سارية الجبل» [2] المشهورة، ومع ذلك فقد التبست عليه بعض القضايا وبينَّها له أبو بكر الصديق، مثل موقفه من قتال مانعي الزكاة. [3]

وقد نبَّه على ذلك أيضا لسان أهل الحقيقة الإمام عبد الوهاب الشعراني،

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى» (٢/ ٣١٤ ـ ٣١٥)

(٢) أخرج البيهقي في «الاعتقاد» (ص٣١٤) عن ابن عمر، أن عمر بن الخطاب، بعث جيشاً، وأمر عليهم رجلاً يدعى سارية قال: فبينا عمر يخطب قال: فجعل يصيح وهو على المنبر يا سارية: الجبل، يا سارية الجبل، قال: فقدم رسول الجيش، فسأله، فقال: يا أمير المؤمنين، لقينا عدونا فهزمونا وإن الصائح ليصيح، يا سارية: الجبل، يا سارية: الجبل، فشددنا ظهورنا بالجبل، فهزمهم الله. وهو أثر صحيح مشهور. انظر «البداية والنهاية» (١٠/ ١٧٥)

(٣) انظر «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩)

فقـد كان يقـول: «دوروا مع الشـرع كيف كان، لا مع الكشـف، فإنه قـد يخطئ». [1]

وهـو معنـى أكـده أحـد أجـل وأعظـم أقطـاب التصـوف فـي التاريـخ، فقـد نقـل ابـن تيميـة عـن الإمام العـارف أبـي الحسـن الشـاذلي أنه قـال: «قـد ضمنت لنـا العصمـة فيمـا جاء بـه الكتـاب والسـنة ولـم تضمـن لنـا العصمة في الكشـوف والإلهـام». [2]

والمراد بوقوع الخطأ هنا: الخطأ في عد الحال كشفاً، فقد يعتقد البعض ما ليس بكشف كشفاً، ولا يريدون به أن الكشف قد يخطئ الحقيقة.

وتلك المواقف التي أخطأ فيها عمر، لم تكن كشفاً، وإنما هي آراء رآها، وليس كل ما يصدر عن الولي لا بد أن يكون كشفاً.

والحق أن الكشف إذا ما قلنا به وثبت كونه كشفاً فإنه لا يمكن أن يكون خطأ، وإلا لما سُمي كشفاً، إذ معنى كونه كشفاً أنه يتجاوز الحجب ويصل إلى مشاهدة الحقيقة.

والخطأ قد يكون في التعبير عن مضمون الكشف أو تأويله. [3]

***

---

(١) «شذرات الذهب» (١٠/ ٥٤٦)

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٢٦)

(٣) انظر «اليواقيت والجواهر» (ص٤٦٩)

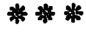
مخالفة الكشف لما ثبت بالعقل

ومع إيمان ابن تيمية بالمكاشفات وسيره بتوازٍ مع الصوفية على نفس الخط، إلا أنه لم يغب عنه محاولات الفلاسفة استغلاله، فقد كانوا يتذرعون به إلى مخالفة الشريعة، ويقولون: ثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح العقل. (١)

وقد اجتمع ابن تيمية ببعض هؤلاء وجرى بينهما حوار، وكان مما قال له ابن تيمية: «إن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أكمل الناس كشفاً، وهم يخبرون بما يعجز عقول الناس عن معرفته، لا بما يعرف في عقولهم أنه باطل، فيخبرون بمحارات العقول، لا بمحالات العقول، فمن دونهم إذا أخبر عن شهود وكشف يعلم بصريح العقل بطلانه علم أن كشفه باطل، وأما إن كان لم يعلم بطلانه فهذا قد يمكن فيه إصابته، وقد يمكن خطؤه، لأن غير الأنبياء ليس بمعصوم». (٢)

وقد أعاد التنبيه على هذه المسألة مرات عديدة، وذلك لما كان الفلاسفة يرددونها بقصد مصادمة الشريعة واغتيال العقل.

وهذا الموضع من المواضع الكثيرة التي تكشف مدى قيمة العقل عند ابن تيمية، حيث يتخيل بعض معاصرينا أن له منه موقفاً يخالف موقف سائر أهل السنة من الأشعرية والماتريدية، وليس كذلك، فقد كان رحمه الله يسير على المنهاج نفسه، وإن حصل بينه وبين غيره اختلاف محدود في بعض تفاصيل العلم، كما هي عادة العلماء.



---

(١) «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ٣٥٩) (٥/ ٨٩)، «درء تعارض العقل والنقل» (٣/ ٣٧٢)

(٢) «الجواب الصحيح» (٤/ ٣٠٩ـ ٣١٠)

علم الغيب

الإيمان بالمكاشفات يعني الإيمان بأن الولي قد تكشف له الحجب ويطلع على ما وراء الغيب، كما اطلع عمر في خبر «يا سارية الجبل».

وكل ما كتبه ابن تيمية في المكاشفات يعني أن الله قد يكرم بعض عباده الصالحين بالاطلاع على المغيبات.

وما سقناه من كلامه واضح لا يتحمل الجدال والعناد.

وليس في هذا تعد على حق الله، فالغيب الذي اختص الله به نفسه هو الغيب المطلق، وأما الغيب الذي يُطلع عليه أولياءه فهو محدود، ومخصوص.

وقد بسط ابن تيمية هذه الجملة شرحاً في عدة مواضع، فذكر أن صفات الكمال ترجع إلى ثلاث صفات، وهي العلم، والقدرة، والغنى، وهذه الثلاث لا تصلح على وجه الكمال ـ كما يقول ـ إلا لله وحده.

وهو يشير إلى أنها قد تصلح على غير وجه الكمال لغير الله، أو على وجه كمال ليس ككمال الخالق.

ويرى أن ما وراء الغيب قد يكشف لبعض الناس، ويكون من باب خوارق العادات، ويدخل ضمن كرامات الأولياء.

وفي هذا الصدد يقول ـ كما تقدم ـ: «فما كان من الخوارق من باب العلم فتارة بأن يسمع العبد ما لا يسمعه غيره، وتارة بأن يرى ما لا يراه غيره يقظة ومناماً، وتارة بأن يعلم ما لا يعلم غيره وحياً وإلهاماً، أو إنزال علم ضروري،

أو فراسة صادقة، ويسمى كشفاً، ومشاهدات، ومكاشفات، ومخاطبات، فالسماع مخاطبات والرؤية مشاهدات، والعلم مكاشفة، ويسمى ذلك كله كشفاً ومكاشفة، أي كشف له عنه».[1]

ويقول في رده على ابن مطهر الحلي الشيعي: «الإخبار ببعض الأمور الغائبة، فمن هو دون علي يخبر بمثل ذلك، فعلي أجل قدراً من ذلك، وفي أتباع أبي بكر وعمر وعثمان من يخبر بأضعاف ذلك، ومثل هذا موجود في زماننا وغير زماننا». [2]

وهذا نص لا يحتمل بالتأويل.

ومن المكاشفات بالغيب التي استشهد بها ابن تيمية، أربعة أخبار:

الأول: خبر عمر «يا سارية الجبل».

والثاني: إخبار أبي بكر الصديق بأن ببطن زوجته أنثى.

والثالث: إخبار عمر بمن يخرج من ولده فيكون عادلاً.

والرابع: قصة صاحب موسى في علمه بحال الغلام. [3]

وكلامه في هذا أكثر من أن يحصر.

ولم يحفظ التراث الإسلامي كلام ابن تيمية النظري فحسب، بل حفظ لنا مواقف ربما لو صدرت في غيره لما تأخر المندفعون في تكفيرهم.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٣١٤)

(٢) «منهاج السنة» (٨/ ١٣٥)

(٣) انظر «مجموع الفتاوى» (١١/ ٣١٨)

فقد كان رحمه الله يكاشف أصحابه بكثير من المغيبات، حتى أنه جزم بعلمه بأشياء مكتوبة في اللوح المحفوظ.

نقل عنه أبر تلاميذه العلامة ابن القيم أنه أخبر أصحابه بدخول التتار الشام سنة ٦٩٩هـ، وأن جيوش المسلمين تكسر، وأن دمشق لا يكون بها قتل عام ولا سبي عام، وعن كَلَب الجيش وحدته في الأموال.

وكان هذا قبل أن يهم التتار بالحركة.

ثم أخبر الناس والأمراء سنة ٧٠٢هـ لما تحرك التتار وقصدوا الشام أن الدائرة والهزيمة عليهم، وأن الظفر والنصر للمسلمين، وأقسم على ذلك أكثر من سبعين يميناً، فيقال له: قل إن شاء الله. فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً.

قال ابن القيم: «وسمعته يقول ذلك. قال: فلما أكثروا عليَّ قلت: لا تكثروا، كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ أنهم مهزومون في هذه الكرَّة وأن النصر لجيوش الإسلام. قال: وأطعمت بعض الأمراء والعسكر حلاوة النصر قبل خروجهم إلى لقاء العدو».

ولما طُلِب إلى الديار المصرية، وأريد قتله ـ بعدما أنضجت له القدور، وقلبت له الأمور ـ اجتمع أصحابه لوداعه، وقالوا: قد تواترت الكتب بأن القوم عاملون على قتلك. فقال: والله لا يصلون إلى ذلك أبداً.

قالوا: أفتحبس؟ قال: نعم، ويطول حبسي، ثم أخرج وأتكلم بالسنة على رؤوس الناس.

ولما تولَّى عدوه الملقب بالجاشنكير الملك أخبروه بذلك، وقالوا: الآن بلغ مراده منك. فسجد لله شكراً، وأطال.

فقيل له: ما سبب هذه السجدة؟ فقال: هذا بداية ذله ومفارقة عزه من الآن، وقرب زوال أمره.

فقيل: متى هذا؟ فقال: لا تربط خيول الجند على القرط حتى تغلب دولته.

فوقع الأمر مثل ما أخبر به.[1]

كل هذا نقله عنه ابن القيم في «مدارج السالكين».

ونقل عنه أبو حفص الأزجي في «الأعلام العلية» طائفة أخرى من المكاشفات، ولولا خشية الإطالة لسقتها بنصه، فراجعه.

ولو أن أدعياء التيمية رأوا بعض هذا المنقول عن ابن تيمية منسوباً لأحد الأولياء العارفين لما ترددوا في تكفيره، ورميه بادعاء الربوبية.

إننا أمام عارف يخبر بالمغيبات، يخبر عما يكون في المستقبل، وليس هذا فحسب، بل يخبر جازماً بما هو مكتوب في اللوح المحفوظ.

فيا ترى هل سيقف أدعياء التيمية من ابن تيمية موقفهم من علماء وأتباع الصوفية الذين طالما كفروهم، ورموهم بالشرك والمروق من الدين.؟!

لقد أقام القوم الدنيا ولم يقعدوها على بيت في «البردة» للبوصيري وصف فيه الرسول ﷺ بأن من علومه علم اللوح والقلم.

قال:

فـإنَّ مِـنْ جُـودِكَ الـدُّنيا وضـرَّتُـهـا ... ومِنْ علومِـكَ علـمُ اللـوحِ والقلـمِ

فصاحوا بصوت واحد: لقد كفر البوصيري، أو تلفظ بالكفر...!

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٥٨)

وإذا كان وصف رسول الله ﷺ بهذا كفر، مع أن الله يقول ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾، فكيف من يدعي لنفسه من سائر المسلمين أنه يطلع على ما كتب في اللوح المحفوظ.؟!

لا شك أن هؤلاء المقدسين لابن تيمية ـ وهم لا يعرفونه جيداً ـ أمام إشكال كبير.

فإما أن يحكموا عليه كما حكموا على البوصيري، بل هو أولى.

وإما أن يقروا بالمكاشفات وأن الله يطلع أولياءه وعباده الصالحين على بعض ما استأثر به من الغيوب.

وهذا هو العلم، وهذه هي طريقة سائر أئمة العلم والدين، بل هو طريق أهل السنة الواضح الميمون، ومن خالفهم وسلك طريقاً آخر وشهر سيف التكفير في وجه الصوفية بحجة أنهم ينسبون لشيوخهم العلم بالغيب فلا يعد نفسه من أهل السنة، ولا يعد نفسه من ابن تيمية، فإنه قد ألقى بأهل السنة وراء ظهره، وسلك طريق الاعتزال، وركب كل مبتدع ضال.

***



تقسيم العلم إلى ظاهر وباطن

يتهم معاصرونا ـ ممن يزعمون أنهم على طريقة ابن تيمية ـ الصوفية بالعقيدة الباطنية، وذلك لأن أهل التصوف يقسمون العلم إلى ظاهر وباطن.

وهذا من أعجب ما سمعت من الجهالات.

ولو أن لديهم أدنى اطلاع على كتب التصوف لأدركوا حجم السقطة التي وقعوا فيها.

في الصفحات الأولى من مقدمة «إحياء علوم الدين» فسَّر الإمام الغزالي المراد بـ «علم الظاهر والباطن»، فقال: «علم المعاملة ينقسم إلى علم ظاهر، أعني العلم بأعمال الجوارح، وإلى علم باطن، أعني العلم بأعمال القلوب». (١)

وهو تقسيم منتشر ومعروف لدى سائر العلماء، ولا أعلم أحداً اعترض عليه.

فعلم الباطن هو ما يقوم بالقلب من أحوال، وإرادات، وأعمال، كالحب، والإخلاص، والخوف، والرجاء، والرغبة، والرهبة، واليقين، والطمأنينة، والشكر والصبر، والتوكل، والرضا، وغيرها من المنازل التي أفاض ابن القيم بشرحها في كتابه العظيم «مدارج السالكين». (٢)

---

(١) «إحياء علوم الدين» (١/ ١٢)

(٢) انظر «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ١١٣)

وفي هذا الكتاب نص ابن القيم على هذا التقسيم، فقال: «هذا علم مبني على الإرادة، فهي أساسه، ومجمع بنائه، وهو مشتمل على تفاصيل أحكام الإرادة، وهي حركة القلب، ولهذا سمي علم الباطن، كما أن علم الفقه يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح، ولهذا سموه علم الظاهر». [١]

هذا هو علم الباطن عند الصوفية، ومن شرطه ألا يخالف الظاهر، كما أجمع عليه شيوخ التصوف.

ولهذا كان محققوهم يرون ـ كما نقل عنهم ابن تيمية ـ أن أعلم المسلمين بعلم الباطن هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وأيّد ابن تيمية مذهب الصوفية هذا بإجماع الأمة، فقال في سياق حديثه عن القرامطة الباطنية: «وهؤلاء عكس محققي الصوفية وأئمتهم، فإنهم متفقون على أن أعلم الخلق بالعلم الباطن هو أبو بكر الصديق، وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن أبا بكر أعلم الأمة بالباطن والظاهر، وحكى الإجماع على ذلك غير واحد». [٢]

وقد سبق في حديثنا عن «استمداد التصوف» كلام ابن تيمية حول هذه النقطة، ودفاعه عن الصوفية، ورده على من توهم أن علم الباطن عندهم مخالف لنصوص الكتاب والسنة.

يقول: «الصوفية العارفون الذين لهم في الأمة لسان صدق إذا قالوا «علم الباطن» أو «علوم الباطن» ونحو ذلك، فهم لا يريدون بذلك ما يناقض الظاهر، بل هم متفقون على أن من ادعى باطناً من الحقيقة يناقض ظاهر الشريعة فهو زنديق،

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٥٢)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٢٣٧)

وإنما يقصدون بذلك عمل باطن الإنسان الذي هو قلبه بالأعمال الباطنة، كالمعرفة، والمحبة، والصبر، والشكر، والتوكل، والرضا، ونحو ذلك». [١]

علم الباطن بالمعنى الصوفي عده ابن تيمية أشرف من العلم بشعائر الإسلام الظاهرة، فقال: «علم الباطن الذي هو علم إيمان القلوب ومعارفها وأحوالها هو علم بحقائق الإيمان الباطنة، وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الإسلام الظاهرة». [٢]

ونص على تكفير من أنكره بأغلظ العبارات، فقال: «ومن ادعى أن من الأولياء الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ من له طريق إلى الله لا يحتاج فيه إلى محمد فهذا كافر ملحد، وإذا قال أنا محتاج إلى محمد في علم الظاهر دون علم الباطن، أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة، فهو شر من اليهود والنصارى الذين قالوا إن محمداً رسول إلى الأميين دون أهل الكتاب، فإن أولئك آمنوا ببعض وكفروا ببعض، فكانوا كفاراً بذلك، وكذلك هذا الذي يقول إن محمداً بُعث بعلم الظاهر دون علم الباطن، آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض، فهو كافر، وهو أكفر من أولئك». [٣]

فليقف هنا المتحمسون قليلاً، وليمعنوا النظر في هذا الكلام، ليدركوا أن إنكارهم لعلم الباطن في نظر ابن تيمية ردة وكفر ومروق من الإسلام...!

فيا لله كم يوقع الجهل أصحابه في المهاوي.

وكم يرمي بهم في أودية الهلكة السحيقة وهم يظنون أنهم يقيمون علم الدين وينشرون السنة والتوحيد.

---

(١) «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ١١٣)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٢٥)

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٢٥)

قليلا من العقل أيها الرفاق...!

قليلا من الهدوء والوعي...!

إننا نسأل الله لنا ولكم العافية، وأن يجيرنا وإياكم من هذه الغفلة المهلكة.

* * *

الفرق بين علم الباطن عند الصوفية وعلم الباطن عند الباطنية

والفرق بين علم الباطن عند الصوفية، وعلم الباطن عند الباطنية، أن الباطن عند الصوفية يشترط فيه ألا يخالف الظاهر، ومتى خالفه فهو مردود.

وأما الباطنية فهم لا يلتفتون إلى العلوم الظاهرة، بل يفسرونها بتفسيرات باطنية يختلقونها، لا يدل عليها سياق ولا قرينة، «كقولهم الصلاة معرفة أسرارنا، لا هذه الصلوات ذات الركوع والسجود والقراءة، والصيام كتمان أسرارنا، ليس هو الإمساك عن الأكل والشرب والنكاح، والحج زيارة شيوخنا المقدسين، وأمثال ذلك، وهؤلاء المدعون للباطن لا يوجبون هذه العبادات ولا يحرمون هذه المحرمات، بل يستحلون الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ونكاح الأمهات والبنات، وغير ذلك من المنكرات»، «وبالجملة فعلم الباطن الذي يدعون مضمونه الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، بل هو جامع لكل كفر».[1]

ولهذا انبرى الصوفية للرد عليهم، ويعتبر كتاب «فضائح الباطنية» للإمام الغزالي أشهر الكتب التي تفضح هذا المذهب الخطير على الإطلاق.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٣٣، ١٣٥)

ويعد الغزالي ـ وغيره ـ شيخ ابن تيمية الذي أخذ عنه مهمة فضح الباطنية، ولا شك أن كتابه المذكور حظي باهتمام بالغ من ابن تيمية، فقد استشهد بكلامه في هذا الكتاب ونقل منه.

ومن عبارات الغزالي التي رددها، قوله في الكتاب المشار إليه عن العبيديين: «ظاهرهم الرفض، وباطنهم الكفر المحض».[1]

يقول: «هذا الذي قاله أبو حامد فيهم هو متفق عليه بين علماء المسلمين».[2]

ولهذا عندما يتطرق ابن تيمية لذكر الباطنية ينبه على أن علم الباطن الذي يدعونه يخالف الظاهر، فيقول: «القرامطة هم أشهر الناس بادعاء علم الباطن المخالف للظاهر، ودعوى التأويلات الباطنة، المخالفة للظاهر المعلوم المعقول من الكتاب والسنة».[3]

من جملة مؤلفات ابن تيمية رسالة اسمها «رسالة في علم الباطن والظاهر».

وقد تحدث عن هذه المسألة كما تحدث عنها سائر علماء الصوفية.

وحاصل ما قرره فيها أن علم الباطن:

إما أن يراد به علم الأمور الباطنة، مثل العلم بما في القلوب من المعارف، والأحوال، والعلم بالغيوب التي أخبرت بها الرسل.

فلا ريب أنه يجب الإيمان به، كما تقدم في كلامه.

---

(١) «الرد على المنطقيين» (ص٢٨٠، ١٤٢)، «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٢٣٧) (٣٥/ ١٢٩)
(٢) «الرد على المنطقيين» (ص٢٨٠)، وانظر «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٢٣٧) (٣٥/ ١٢٩)
(٣) «بيان تلبيس الجهمية» (١/ ٤٥٧)

وإما أن يراد به العلم الذي يبطن عن أكثر الناس أو عن بعضهم، وهذا على نوعين:

أحدهما: باطن يخالف العلم الظاهر، فهذا باطل.

والثاني: لا يخالفه.

وحكمه حكم العلوم الظاهرة، فإن كان على سنن العلم فهو مقبول، وإلا وجب رده. [1]

وهذا التفصيل إنما استفاده ابن تيمية من أئمة الصوفية وعلمائهم.

من ذلك قول أبي سعيد الخراز الصوفي: «كل باطن يخالف ظاهرا فهو باطل». [2]

وروي عن أبي بكر الدقاق أنه قال: «كنت ماراً في تيه بني إسرائيل فخطر ببالي أن علم الحقيقة مباين للشريعة، فهتف بي هاتف من تحت شجرة: كل حقيقة لا تتبعها الشريعة فهي كفر».

ويقول الغزالي: «من قال إن الحقيقة تخالف الشريعة، أو الباطن يخالف الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان». [3]

وفي «عدة المريد الصادق» لإمام التصوف العلامة المجتهد أحمد زروق فصل في أدعياء التصوف، الذين ولغوا في البدع لأسباب منها كما قال: «الجهل بأصول الطريقة، واعتقاد أن الشريعة خلاف الحقيقة». قال: «وهو من مبادئ الزندقة، ومنه خرجت الطوائف كلها، وصار الفروعي الجامد لا يتوقف في سب الصوفية،

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٢٣٠)

(٢) «الرسالة القشيرية» (ص٤٠٩)

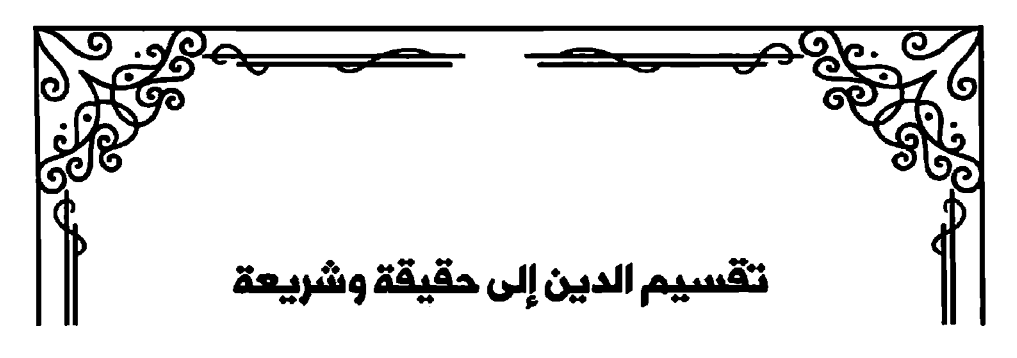
(٣) انظر «تلبيس إبليس» (ص٢٨٧)

والمتصوف الجاهل لا يتوقف في النفور من العلم وأهله، ويخالف ظاهر الشريعة في أمره، ويرى ذلك كمالا في محله». [1]

وهذه مسألة محسومة، لا ينبغي أن تكون محلاً للجدل، لولا أننا في عصر المماحكات وتلفيق التهم السخيفة.

* * *

(١) «عدة المريد الصادق» (ص٤٦)



تقسيم الدين إلى حقيقة وشريعة

من أشهر الاصطلاحات لدى الصوفية تقسيم الدين إلى حقيقة وشريعة، ويعنون بالشريعة الأحكام الظاهرة، أحكام الجوارح، ويعنون بالحقيقة ما يقوم بالقلب من العبادات والمعاني.

يقول الإمام أبو نصر السراج: «فالإسلام ظاهر، والإيمان ظاهر وباطن، والإحسان حقيقة الظاهر والباطن». [1]

والصوفية متفقون على أن كل حقيقة تخالف الشريعة فهي باطلة، فالشريعة هي الأصل الذي تبنى عليه الحقيقة.

وقد رأيت بعض أقوالهم في حديثنا عن الظاهر والباطن.

تلقى علماء الإسلام هذا الاصطلاح بالقبول، ولا يعرف إنكاره عن عالم معتبر، إلا في السنين الغابرة حين خفت نور العلم، وذهب سلطانه، وتصدر من لا معرفة له، فجاؤوا بالبدع القبيحة التي تفسد العلم، وتشوش الأفكار، وتفسد المعتقدات، فادعت نابتةٌ أن هذا التقسيم محدث لا أصل له.

وجهلوا أنه مجرد اصطلاح، ولا مشاحة في الاصطلاح.

وتحامق آخرون فادعوا أن الدين عند الصوفية دينان، حقيقة، وشريعة.

---

(١) «اللمع» لأبي نصر السراج (ص٢٢)

وهي مجازفة قبيحة، تؤكد عدم معرفة أولئك بأبجديات العلوم، ولو ألقوا نظرة سريعة في رسالة القشيري التي لا يجهلها المبتدؤون في علم التصوف لما وقعوا في هذه السقطة.

ولو كان لأهل العلم اعتبار لدى هؤلاء لما تجاوزوا كل علماء الأمة الذين تلقوا هذا الاصطلاح بالقبول، ولم ينكره أحد منهم.

إذا كان هذا موقف معاصرينا الذين يدعون أنهم على طريقة ابن تيمية، فيا ترى ما موقفه رحمه الله من هذا الاصطلاح.

لقد أعلنها ابن تيمية واضحة مدوية صريحة، وأكد أن هذا التقسيم أمر اصطلاحي، وليس ببدعة، كما يتبجح به أولئك، فضلاً عن أن يكون رآه دينين، كما جازف آخرون.

يقول: «تسمية الباطن حقيقة، والظاهر شريعة، أمر اصطلاحي». [1]

وهنا يجب أن تُبلع تلك الألسن التي طالما ولغت في لحوم الأولياء والصالحين، وادعت أنهم يقسمون الدين إلى دينين.

ولا شك أن إثبات دينين ردة ومروق من الإسلام.

فيا ترى ما عساهم يقولون في ابن تيمية الذي يرفض هذا الهراء ويصرح بأن هذا التقسيم مجرد اصطلاح.

يقول رحمه الله: «ومن الناس من يجعل الحقيقة هي الأمر الباطن مطلقاً، والشريعة الأمور الظاهرة، وهذا كما أن لفظ الإسلام إذا قرن بالإيمان أريد به الأعمال

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣١٥)

الظاهرة، ولفظ الإيمان يراد به الإيمان الذي في القلب، كما في حديث جبريل، فإذا جمع بينهما فقيل شرائع الإسلام وحقائق الإيمان كان هذا كلاماً صحيحاً، لكن متى أفرد أحدهما تناول الآخر، فكل شريعة ليس لها حقيقة باطنة فليس صاحبها من المؤمنين حقاً، وكل حقيقة لا توافق الشريعة التي بعث الله بها محمدا ﷺ فصاحبها ليس بمسلم، فضلاً عن أن يكون من أولياء الله المتقين، وقد يراد بلفظ الشريعة ما يقوله فقهاء الشريعة باجتهادهم، وبالحقيقة ما يذوقه ويجده الصوفية بقلوبهم». [1]

إنه كلام ابن تيمية أيها الغيورون.

منطق ابن تيمية الذي لا يلتقي بحال مع منطقكم.

منطق ابن تيمية الذي يلتقي وينسجم انسجاماً تاماً مع أنفاس السادة الصوفية رضي الله عنهم.

وأعيد هنا ما نقلت قريبا، لندرك ـ أكثر ـ مدى تطابق كلام ابن تيمية مع كلام السادة الصوفية:

يقول الغزالي: «من قال إن الحقيقة تخالف الشريعة، أو الباطن يخالف الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان». [2]

وفي «عدة المريد الصادق» لإمام التصوف العلامة المجتهد أحمد زروق فصل في أدعياء التصوف، الذين ولغوا في البدع لأسباب منها كما قال: «الجهل بأصول الطريقة، واعتقاد أن الشريعة خلاف الحقيقة». قال: «وهو من مبادئ الزندقة، ومنه خرجت الطوائف كلها، وصار الفروعي الجامد لا يتوقف في سب الصوفية،

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣١٥)

(٢) انظر «تلبيس إبليس» (ص٢٨٧)

والمتصوف الجاهل لا يتوقف في النفور من العلم وأهله، ويخالف ظاهر الشريعة في أمره، ويرى ذلك كمالا في محله». [1]

وهذا المعنى متواتر عن أئمة الصوفية، وقد نقلت الكثير منه، وهو ما يؤكده ابن تيمية ويكرره في سائر مصنفاته.

ومما قاله في هؤلاء الذين أشار إليهم الغزالي وزروق: «وهؤلاء قد يسمون ما أحدثوه من البدع حقيقة، كما يسمون ما يشهدون من القدر حقيقة، وطريق الحقيقة عندهم هو السلوك الذي لا يتقيد صاحبه بأمر الشارع ونهيه، ولكن بما يراه ويذوقه ويجده، ونحو ذلك». [2]

وهو تطابق يدل ـ بيقين ـ على أن ابن تيمية كان يغرف من أسرار القوم، ويقتفي آثارهم وتعاليمهم، باعتبارهم أئمة هذا العلم الشريف.

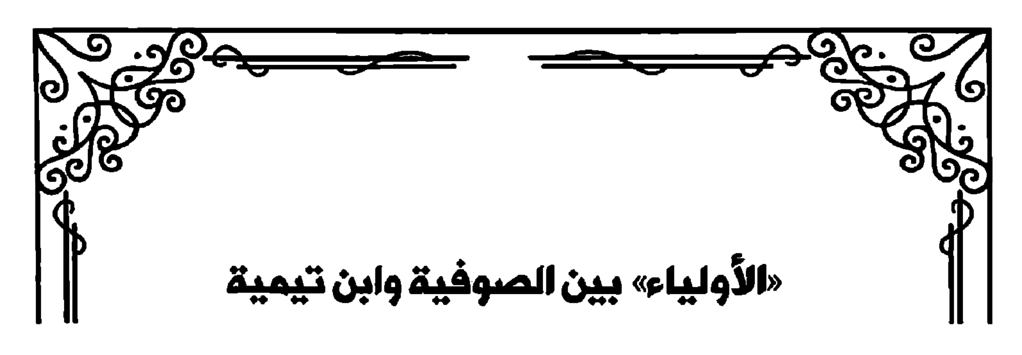
وعليه، فإن إنكار تقسيم الدين إلى حقيقة وشريعة بدعة قبيحة باتفاق أئمة الإسلام المجتهدين المعتبرين، وفي مقدمتهم ابن تيمية، رحمه الله.

* * *

---

(١) «عدة المريد الصادق» (ص٤٦)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٦٩)



«الأولياء» بين الصوفية وابن تيمية

للصوفية مزيد اعتناء بالأولياء، ولعل السبب هو أن هذه الطائفة هي المدرسة التي يتخرج منها أولياء الله الصالحون أصحاب الأحوال والكرامات.

ولا شك أن ولاية الله غاية كل مريد، فبها يظفرون بالفوز الأكبر، ومن الطبيعي أن يشمر السالكون عن سواعدهم للوصول إليها.

وكما هي العادة، فكل غاية لا بد للوصول إليها من شروط، ومراحل، ومحطات، وما كان كذلك فلا بد أن نجد في الطريق إليه ـ بحكم العادة ـ من يحاول الوصول دون أن يفي بتلك الشروط، ومن يريد أن يجتاز إليه دون أن يمر بتلك المحطات.

فكانت مهمة المصلحين والمجددين تتمثل في رد السالك إلى الطريق الصحيح، كي لا يضل ويذهب بعيداً، ويحرم الوصول، فيضيع عمره سدى دون أن يظفر بغايته المنشودة.

وعلى هذا تركزت جهود المصلحين، وكل مصلح منهم تناول الموضوع من الناحية التي رأى أن حاجة المريد إليها أكثر من غيرها.

فمهما تنوعت اهتماماتهم ـ بحسب الظروف والحاجة ـ فهي في الأخير تصب في مصب واحد.

وقد علمت أن جهود ابن تيمية توجهت ـ غالباً ـ نحو قطع الطريق أمام من يحاولون إفساده واتخاذه مطية للتسلل إلى العقائد الإسلامية وترويج بضاعتهم في قالب التصوف.

ومن أخطر جوانب التصوف موضوع «الأولياء»، فقد كان رحمه الله حريصاً على التحذير من الأدعياء الذين يقدمون أنفسهم أو يقدمهم الآخرون على أنهم أولياء، لأنه يدرك أنه في حال تمَّ لهم ما أرادوا فإن ضررهم على المجتمع الإسلامي جد خطير، وذلك لما للأولياء من مكانة روحية كبيرة.

لأجل هذا ألَّف كتابه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» ليكون فرقاناً يفرق به المسلمون بين الولي الحق، والأدعياء الذين يتظاهرون بهذه المنزلة كي يضلوا العباد.

وتركزت جهوده نحو الآتي:

أولاً: تحديد معنى الولاية.

ثانياً: شروط الولي.

ثالثاً: مراتب الأولياء.

رابعاً: عدم عصمة الأولياء.

خامساً: ختم الولاية.

* * *

معنى الولاية

أما الولاية، فهي ضد العداوة، وأصلها المحبة والقرب، وقد قيل إن الولي سمي ولياً من موالاته للطاعات، أي متابعته لها.

لكنه رحمه الله يرجح المعنى الأول، وهو أن الولاية مأخوذة من المحبة والقرب.[1]

والقرب ـ بالطبع ـ لا يناله الولي إلا بمتابعة المرسلين، وهذا هو المعيار الذي يُعرف به الصادق والكاذب في دعوى الولاية، وحينها لا يمكن لأحد انتحال هذا الوصف ما لم يكن سالكا لطريق الأنبياء والمرسلين.

* * *

شروط الولاية

وأما عن شروط الولاية، فالولاية ليست مجرد دعوى، ولا مجرد طقوس ومظاهر يُستغفل بها العوام، ولكنها طريق سلكها الأنبياء، وتبعهم في مدارجها الأولياء، ومن ادعى أن بإمكانه الوصول إلى هذه المرتبة غيرَ ملتزم باتباع الرسول ﷺ، فهو غالط، ولا شك.[2]

وحتى يقطع ألسن المجادلين يؤكد ابن تيمية أنه لم يقل هذا الكلام من عند نفسه، بل إن الصالحين من الأولياء أجمعوا عليه، فيقول: «وهذا الذي ذكرته من أن أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة، وأنه ليس فيهم معصوم يسوغ

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٦١)

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٢٥)

له أو لغيره اتباع ما يقع في قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنة هو مما اتفق عليه أولياء الله عز وجل، ومن خالف في هذا فليس من أولياء الله سبحانه الذين أمر الله باتباعهم».

ويستشهد على ذلك بكلمات شيوخ الصوفية المأثورة، كقول أبي سليمان الداراني: «إنه ليقع في قلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين، الكتاب والسنة».

وقال أبو القاسم الجنيد: «علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم في علمنا. أو قال: لا يقتدى به».

وقال أبو عثمان النيسابوري: «من أمَّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة، لأن الله تعالى يقول في كلامه القديم ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾.».

وقال أبو عمرو بن نجيد: «كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل». (١)

وهذا مجمع عليه إجماعاً قطعياً لدى السادة الصوفية، كما رأيت في مبحث «استمداد التصوف».

فمن كان له طريق غير طريق الرسول ﷺ لا يمكن أن يكون ولياً.

يقول الإمام عبد الوهاب الشعراني: «وغاية أمر الأولياء أنهم يتعبدون بشريعة محمد ﷺ، قبل الفتح عليهم وبعده، ومتى ما خرجوا عن شريعة محمد ﷺ هلكوا وانقطع عنهم الإمداد، فلا يمكنهم أن يستقلوا بالأخذ عن الله». (٢)

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٠٩ـ ٢١٠)

(٢) «اليواقيت والجواهر»(ص٤٣٥)

إلهام الولي

يرى السادة الصوفية أن أكثر ما يمكن أن يناله الولي من الله مباشرة هو الإلهام، لكنه مع ذلك لا غنى له عن الشريعة، ولا عن متابعة الرسول ﷺ، بل يجب عليه عرض ما أُلهِمَ به على الكتاب والسنة، فإن خالفهما وجب رفضه.

يقول الإمام عبد الوهاب الشعراني: «الولي غايته الإلهام الموافق لشريعة محمد ﷺ، فلا يعمل به مستقلاً، لأن نبوة التشريع قد انقطعت بموت رسول الله ﷺ، فيصير ملك الإلهام يفهم ذلك الولي شريعة محمد ﷺ، ويطلعه على أسرارها».[1]

ونص ابن عربي على أن الإلهام لا يعمل به إلا إذا وافق الشريعة.[2]

وهذا ما قرره ابن تيمية مراراً، كما رأيت فيما سبق.

بل إن ابن تيمية ـ هنا ـ بدا مغرقاً في التصوف حتى فاق أئمة الصوفية ومحققيهم، وأعطى للإلهام مساحة واسعة لم يوافقه عليها العديد من محققي الصوفية.

فقد اختار رحمه الله أن الإلهام قد يكون طريقاً صحيحاً مقبولاً للترجيح في المسائل الخلافية بين الفقهاء، كما شرحته في كتابي «الذريعة إلى معرفة الشريعة».[3]

وليس هذا فحسب، بل رد على الإمام الغزالي شيخ الصوفية الذي رأى أن الاعتماد على الإلهام نوع من الهوس، وهو ما لم يقبله ابن تيمية.

---

(١) «اليواقيت والجواهر»(ص٤٣٥)

(٢) انظر «اليواقيت والجواهر»(ص٤٥٦)

(٣) (ص٢٤٢)

ومما قاله في رده عليه: «فإذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن يقيناً أو ظناً فالأمور الدينية كذلك بطريق الأولى، فإنه إلى كشفها أحوج، لكن هذا في الغالب لا بد أن يكون كشفاً بدليل، وقد يكون بدليل ينقدح في قلب المؤمن ولا يمكنه التعبير عنه، وهذا أحد ما فسر به معنى الاستحسان، وقد قال من طعن في ذلك ـ كأبي حامد وأبي محمد ـ: ما لا يعبر عنه فهو هوس، وليس كذلك، فإنه ليس كل أحد يمكنه إبانة المعاني القائمة بقلبه». (١)

وهذه إحدى مسائل التصوف التي فاق فيها ابن تيمية أئمة الصوفية المعتبرين.

* * *

المجانين والأطفال لا يكونون أولياء

ويرى ابن تيمية أن الولاية فرع من فروع الإيمان والتكليف، ومن لم يرق إلى مرتبة التكليف لفقدان العقل أو نقصان الأهلية لا يمكن أن يقفز ويتجاوز مراحل التكليف والإيمان فيصل ـ بدونهما ـ إلى منزلة أولياء الله الصالحين.

وهو يقصد هنا على وجه الخصوص الرد على بعض المتصوفة الذين يعتقدون الولاية في بعض المجانين أو المجاذيب.

ومن المقرر أن مرتبة الولاية لا تمنح بدون الإيمان والتقوى، والإيمان والتقوى لا يصحان إلا مع التكليف، وشرط التكليف البلوغ والعقل.

وعليه فإنه ـ كما يقول ـ «من لا يصح إيمانه وعباداته وإن قدر أنه لا إثم عليه مثل أطفال الكفار ومن لم تبلغه الدعوة ـ وإن قيل إنهم لا يعذبون حتى يرسل إليهم رسول ـ فلا يكونون من أولياء الله، إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين، فمن لم

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٧٦ ـ ٤٧٧)

يتقرب إلى الله لا بفعل الحسنات ولا بترك السيئات لم يكن من أولياء الله، وكذلك المجانين والأطفال، فإن النبي ﷺ قال: «رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ». [١]

وإذا كان الصبي المميز قد تصح منه عباداته ويثاب عليها عند جمهور العلماء، فإن «المجنون الذي رفع عنه القلم لا يصح شيء من عباداته باتفاق العلماء، ولا يصح منه إيمان، ولا كفر، ولا صلاة، ولا غير ذلك من العبادات، بل لا يصلح هو عند عامة العقلاء لأمور الدنيا كالتجارة، والصناعة، فلا يصلح أن يكون بزازاً، ولا عطاراً، ولا حداداً، ولا نجاراً، ولا تصح عقوده باتفاق العلماء، فلا يصح بيعه، ولا شراؤه، ولا نكاحه، ولا طلاقه، ولا إقراره، ولا شهادته، ولا غير ذلك من أقواله، بل أقواله كلها لغو لا يتعلق بها حكم شرعي، ولا ثواب، ولا عقاب، بخلاف الصبي المميز، فإن له أقوالاً معتبرة في مواضع بالنص والإجماع، وفي مواضع فيها نزاع، وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ولا التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل وامتنع أن يكون ولياً، فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولي لله». [٢]

وهذا الذي اختاره ابن تيمية ذهب إليه العديد من محققي الصوفية.

وقد ناقش الإمام أحمد زروق هذه المسألة في عدة مواضع من كتابه الفريد «عدة المريد الصادق»، وذكر أن الصوفية افترقوا إلى فريقين في تقييم أحوال هؤلاء المجاذيب.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٩١)

حديث «رفع القلم»، أخرجه أحمد (رقم ٩٤٠)، وغيره.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٩١ ـ ١٩٢)

فأبناء الدنيا ـ كما سماهم ـ يفضلون طريقة المجاذيب هذه ويعتقدونهم.

وطائفة على العكس، لا يرون المجاذيب شيئاً ولا من يعتقدهم، وهم أسلم من الذين قبلهم، لتمسكهم بظاهر الشرع.

قال: «وأسلم منهما من سلم الأمر، فلم ينتقد إلا بحق، ولا يعتقد إلا بحق، ويترك ما وراء ذلك».

ونقل عن بعض العلماء قوله: ما زال يختلج في نظري أن المجذوب فاقد عقل التكليف الذي يثبت له به أصل الدين، فكيف تثبت له الولاية، وعلى مر الدهور يعتقد ولا نكير، حتى فتح الله بأن عقل تدبير المعاش هو الذي نيط به التكليف، فإذا سقط التكليف فبقي صاحبه كالبهيمة في العالم، غير أنه إن ذهب هذا العقل بخيالات وهمية، كان صاحبه معتوها غير معتبر بوجه ولا بحال، وإن ذهب بحقيقة إلهية اقتضت ذهوله فيها ونحوه، اعتبر صاحبه من حيث أنه ظرف لمعنى شريف، وأن السبب في تعطيل وجوده عن مصالحه ذلك، فإن من كان في الله تلفه كان على الله خلفه، فافهم.

ثم قال معلقا: «قلت: ويعرف كل واحد منهما بإشارته، فمن أشار لحقيقة مجموعة فهو ذاك، وإلا فليس هناك، فإن كان من أهل التجريب فحركاتهم لا تتعدى الصغائر المختلف في إباحتها ونحوها مع ثباتهم، وإلا فهو عصيان إن وقع مرة، وفسق إن تكرر مع الإصرار، وكان عظيمة والعياذ بالله، فافهم».[1]

* * *

---

(١) «عدة المريد الصادق» (ص٦٤ ـ ٦٥)

مراتب الأولياء

أما مراتب الأولياء، فإن أولياء الله عنده طبقتان، سابقون مقربون، وأصحاب يمين مقتصدون، فالسابقون هم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، واجتنبوا المحرمات والمكروهات، والمقتصدون هم الذين فعلوا الواجبات، وتركوا المحرمات، فقط.[1]

ويؤكد على أن الأنبياء هم أفضل الأولياء، ومهما بالغ العبد في الأعمال الصالحة وترقى في مراتب الولاية فإنه لا يمكن أن يرقى إلى مراتب الأنبياء.

يقصد بذلك الرد على الذين يظنون أن للولي مرتبة فوق مرتبة النبي، أو الذين يفضلون الأولياء على الأنبياء.

وقد نُسب هذا القول إلى الشيخ محي الدين بن عربي، وأكثر ابن تيمية من نسبته إليه والتنبيه على بشاعته.

وفي الحقيقة أن هذا القول مكذوب على ابن عربي، وقد صرح في كتبه بما يخالفه، كما قال العلامة الألوسي، أحد أشد المعجبين بابن تيمية.

يقول: «ونسب إليه رضي الله تعالى عنه (يعني ابن عربي) القول بتفضيل الولي على النبي والرسول، وخاض فيه كثير من المنكرين، حتى كفروه ـ وحاشاه ـ بسبب ذلك، وقد صرح في غير موضع من فتوحاته، وكذا من سائر تأليفه بما ينافي هذا القول، حسبما فهمه المنكرون».[2]

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٧٦، ١٨٣)

(٢) «روح المعاني» (١١/ ٢٦٩)

وحقيقة ما قاله ابن عربي هو أن ولاية الرسول أفضل من رسالته، وقد أكد ابن تيمية مراراً على أن أفضل الأولياء هم الأنبياء، وهذا ما قصده ابن عربي، فالرسول ـ إضافة إلى رسالته ـ غير مجرد عن الولاية، بل جمع بين الرسالة والولاية.

فقصد ابن عربي أن ولاية الرسول أفضل من رسالته، لأن رسالته منقطعة، أما الولاية فهي دائمة في الدنيا وفي الآخرة.

وهذا ليس تفسيراً أو فهماً لكلام ابن عربي، بل هو ما صرح به.

وقد ذكر في كتاب «القربة» أنه ينبغي لمن سمع لفظة من عارف متحقق مبهمة كأن يقول «الولاية هي النبوة الكبرى، أو الولي العارف مرتبته فوق مرتبة الرسول» أن يتحقق المراد منها ولا يبادر بالطعن، ثم ذكر في بيان ما ذكر ما نصه: «اعلم أنه لا اعتبار للشخص من حيث ما هو إنسان، فلا فضل ولا شرف في الجنس بالحكم الذاتي، وإنما يقع التفاضل بالمراتب، فالأنبياء صلوات الله تعالى عليهم ما فضلوا الخلق إلا بها، فالنبي ﷺ له مرتبة الولاية والمعرفة والرسالة، ومرتبة الولاية والمعرفة دائمة الوجود، ومرتبة الرسالة منقطعة، فإنها تنقطع بالتبليغ، والفضل للدائم الباقي، والولي العارف مقيم عنده سبحانه، والرسول خارج، وحالة الإقامة أعلى من حالة الخروج، فهو ﷺ من حيثية كونه ولياً وعارفاً أعلى وأشرف من حيثية كونه رسولاً، وهو ﷺ الشخص بعينه واختلفت مراتبه، لا أن الولي منا أرفع من الرسول، نعوذ بالله تعالى من الخذلان، فعلى هذا الحد يقول تلك الكلمة أصحاب الكشف والوجود، إذ لا اعتبار عندنا إلا للمقامات، ولا نتكلم إلا فيها، لا في الأشخاص، فإن الكلام في الأشخاص قد يكون بعض الأوقات غيبة، والكلام على المقامات والأحوال من صفات الرجال، ولنا في كل حظ شرب معلوم ورزق مقسوم»[1].

---

(١) «روح المعاني» (١١/ ٢٧٠)

وقد نقل الإمام عبد الوهاب الشعراني في «اليواقيت والجواهر» العديد من نصوصه التي تقطع الشك باليقين، ونقل بعضها العلامة الألوسي في «روح المعاني».[1]

وهذه المسألة ـ أعني التفضيل بين ولاية النبي ونبوته ـ محل خلاف بين العلماء، بمن فيهم علماء الصوفية.

يقول الإمام المحقق الصوفي العارف أحمد زروق: «اختلف في ولاية النبي ونبوته، أيهما أفضل؟ والصحيح نبوته أفضل».

وقال: «والقول بأن الولي أفضل من النبي كفر، بل نبي واحد أفضل من جميع الأولياء».[2]

وقد جرت عادة بعض الناقمين على الصوفية نسبة هذا القول المكذوب إلى الصوفية عموماً، وهو ما نفاه ابن تيمية نفياً قاطعاً.

يقول: «وشيوخ الصوفية متفقون على تفضيل الأنبياء على الأولياء، كما اتفق على ذلك سائر علماء المسلمين، وقد ذكر أبو بكر الكلاباذي في كتابه اعتقاد الصوفية إجماع الصوفية على ذلك».[3]

وما أقبح افتراء الداعية صاحب «موقف ابن تيمية من الصوفية» على ابن تيمية وعلى الصوفية في آن واحد حين نسب إليهم على لسان ابن تيمية القول بتفضيل الولي على النبي، وأنا أنقل لك كلامه بالنص مع استشهاده بكلام ابن تيمية لترى من الاستخفاف ما لم تكن تظن أن يصدر من داعية أو باحث أو مؤلف.

يقول هذا الباحث: «من مظاهر تقديس الصوفية لشيوخهم اعتقادهم أن الشيخ

---

(١) انظر «اليواقيت والجواهر» (ص٤٣٥ ـ ٤٣٦)، «روح المعاني»(١١/ ٢٦٩)

(٢) «اغتنام الفوائد» (ص١٥٨)

(٣) «الصفدية» (١/ ٢٤٨)

الولي أفضل من النبي، قال الشيخ (يعني ابن تيمية) في معرض رده على الغلاة في المشايخ: «فمن اعتقد في بشر أنه إله، أو دعا ميتاً، أو طلب منه الرزق، والنصر، والهداية، وتوكل عليه، أو سجد له، فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، ومن فضَّل أحداً من المشايخ على النبي ﷺ، أو اعتقد أن أحداً يستغني عن طاعة رسول الله ﷺ، استتيب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه» اهـ».[1]

فابن تيمية يتحدث عن قضية، عن مبدأ، أو حكم عام، ولم يتحدث عن الصوفية، كما تلاحظ.

واستشهاد هذا الباحث بكلام ابن تيمية هذا يعني أن ابن تيمية يكفر الصوفية، وهو كذب مصادم لما قدمناه عنه من كلامه النص الجلي الواضح في تعظيم الصوفية وتبجيلهم، بل وتقديسهم.

وقد رأيت دفاع ابن تيمية عنهم بخصوص هذه المسألة، وكلامهم الواضح الذي يقطع ألسنة المفترين.

* * *

عصمة الأولياء

وأما عن عصمة الأولياء، فهو وهم خاطئ ربما تسرب إلى أذهان من لم يحظ بشيء من علم الشريعة، فيضاهي بذلك الشيعة الإمامية الذين يعتقدون عصمة الأئمة.

وفي الحقيقة أن الولي إنسان عادي يجوز عليه الصواب والخطأ، وبالتالي يجب عرض كل ما يصدر منه على الشريعة، فإن وافقها قُبل، وإلا كان مردوداً.

---

(١) «موقف ابن تيمية من الصوفية» (١/ ٥٦١)

وكلمة ابن تيمية هذه في «مجموع الفتاوى» (٣/ ٤٢٢)

يقول ابن تيمية: «وليس من شرط ولي الله أن يكون معصوماً لا يغلط ولا يخطئ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ومما نهى الله عنه، ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى وتكون من الشيطان، لبسها عليه لنقص درجته، ولا يعرف أنها من الشيطان، وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى، فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».(١)

«ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلط لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله من هو ولي لله لئلا يكون نبياً، بل ولا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يلقى إليه في قلبه، إلا أن يكون موافقا للشرع، وعلى ما يقع له مما يراه إلهاماً ومحادثة وخطاباً من الحق، بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ﷺ، فإن وافقه قبله، وإن خالفه لم يقبله، وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف؟ توقف فيه».(٢)

ويحتج ابن تيمية بحال عمر رضي الله، فقد أخبر الرسول ﷺ أنه محدَّث، فأي محدَّث أو مكاشَف من الأولياء في هذه الأمة فعمر أفضل منه، ومع ذلك فقد كان يعرض ما يقع له على ما جاء به الرسول ﷺ، فتارة يوافقه، فيكون ذلك من فضائل عمر، كما نزل القرآن بموافقته غير مرة، وتارة يخالفه فيرجع عمر عن ذلك، كما رجع يوم الحديبية لما كان قد رأى محاربة المشركين، والحديث معروف في «صحيح البخاري».

وكذلك لما مات النبي ﷺ أنكر عمر موته أولاً، فلما قال أبو بكر إنه مات، رجع عمر. وكذلك في قتال مانعي الزكاة، فقد اشتبه الأمر على عمر، حتى بينه له أبو بكر.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٠١ ـ ٢٠٢)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٠٣)

يقول: «ولهذا نظائر تبين تقدم أبي بكر على عمر، مع أن عمر رضي الله عنه محدَّث، فإن مرتبة الصديق فوق مرتبة المحدَّث، لأن الصديق يتلقى عن الرسول المعصوم كل ما يقوله ويفعله، والمحدث يأخذ عن قلبه أشياء، وقلبه ليس بمعصوم، فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبي ﷺ، ولهذا كان عمر رضي الله عنه يشاور الصحابة رضي الله عنهم، ويناظرهم، ويرجع إليهم في بعض الأمور، وينازعونه في أشياء، فيحتج عليهم، ويحتجون عليه بالكتاب والسنة، ويقررهم على منازعته، ولا يقول لهم أنا محدَّث ملهم مخاطب فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تعارضوني، فأي أحد ادعى أو ادعى له أصحابه أنه ولي لله وأنه مخاطب يجب على أتباعه أن يقبلوا منه كل ما يقوله ولا يعارضوه ويسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة فهو وهم مخطئون». [1]

ويرى ابن تيمية أن الناس في هذا الباب افترقوا إلى طرفين ووسط.

فمنهم من إذا اعتقد في شخص أنه ولي لله وافقه في كل ما يظن أنه حدث به قلبه عن ربه، وسلم إليه جميع ما يفعله.

ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع أخرجه عن ولاية الله بالكلية، وإن كان مجتهداً مخطئاً.

ويرى أن هذين الطرفين ذهبا بعيداً عن الحق، وأن خيار الأمور أوساطها، وهو ألا يُجعل الولي معصوماً، ولا مأثوماً إذا كان مجتهداً مخطئاً، فلا يتبع في كل ما يقوله، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده، والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله، وأما إذا خالف قول بعض الفقهاء ووافق قول آخرين لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف ويقول هذا خالف الشرع. [2]

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٠٧)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤)

وهذا هو ما يقرره علماء الصوفية، وقد تقدم كلام الشعراني بهذا الشأن.

وفي كتابه «اليواقيت والجواهر» حديث طويل حول هذا.

فالصوفية كغيرهم من طوائف العلم لا يرون عصمة أحد غير الأنبياء، ويرون أن الأولياء بشر يخطئون ويصيبون، ويجوزون وقوع المعاصي منهم.

وليس هذا فحسب، بل يجوزن أن يكفروا بعد الإيمان، فضلاً عن المعاصي.[1]

وقد نقل عن الإمام الجنيد أنه سُئل: أيزني العارف.؟!

فأطرق رأسه قليلاً، ثم قال ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا﴾.

نقله أبو القاسم القشيري هو يتحدث عن وهم من يظنون أن الأولياء معصومون.

ومما قال: «فإن قيل: فهل يكون الولي معصوماً؟ قيل: أما وجوباً كما يقال في الأنبياء فلا، وأما أن يكون محفوظاً حتى لا يصر على الذنوب إن حصلت هنات أو آفات أو زلات فلا يمتنع ذلك في وصفهم».[2]

ونقل كلامه هذا بالنص الإمام النووي في «بستان العارفين».[3]

ويقول الإمام المحقق أحمد زروق: «الأنبياء والملائكة معصومون، والأولياء محفوظون، والمعصوم لا يطرأ عليه ذنب البتة، بخلاف المحفوظ فإنه يجوز وقوعه فيه».

ونقل عن القشيري قوله: «ولكنه لا يصر عليه».

ثم قال زروق: «قلت: لأن الإصرار فسوق، والفسوق والولاية لا يجتمعان».[4]

---

(١) انظر «اليواقيت والجواهر» (ص٣١٦)

(٢) «الرسالة القشيرية» (ص ٥٢٤)

(٣) (ص٦٦)

(٤) «اغتنام الفوائد» (ص١٥٨)

إلى أن يصل ابن تيمية إلى إحدى المسائل التي أثارت جدلاً واسعاً، وهي مسألة «ختم الولاية».

يرى ابن تيمية أن أفضل الأولياء بعد الأنبياء هم الصحابة، وأفضلهم على الإطلاق أبو بكر الصديق، فهو أفضل الأولياء عند عامة أهل السنة.

إلا أن نظريةً ظهرت في بداية القرن الرابع تقول إن أفضل الأولياء هو «خاتم الأولياء»، قياساً على خاتم الأنبياء.

يقول: «ولم يتكلم أحد من المشايخ المتقدمين بخاتم الأولياء إلا محمد بن علي الحكيم الترمذي فإنه صنف مصنفاً غلط فيه في مواضع».[(١)]

وعلى فرض كون الأمر كما شرحه ابن تيمية، فإن ما ذهب إليه الحكيم الترمذي رأي شاذ لا يوافقه عليه سائر الصوفية، وقد أجمعوا على أن أفضل أولياء هذه الأمة بعد الأنبياء أبو بكر الصديق، ونصوصهم في هذا أكثر من أن يحاط بها، وقد نقل الإمام الشعراني عن الشيخ محي الدين بن عربي الكثير من كلامه.[(٢)]

وأفاض الشعراني الحديث عن هذه المسألة تحت مبحثين:

«المبحث الثالث والأربعون في بيان أن أفضل الأولياء المحمديين بعد الأنبياء والمرسلين، أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي».

و«المبحث الخامس والأربعون في بيان أن أكبر الأولياء بعد الصحابة رضي الله عنهم القطب، ثم الأفراد، على خلاف في ذلك، ثم الإمامان، ثم الأوتاد، ثم الأبدال».[(٣)]

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٢٣)

(٢) انظر «اليواقيت والجواهر» (ص٤٣٧)

(٣) «اليواقيت والجواهر» (ص٤٣٧، ٤٤٦)

ومن المعلوم أن كتاب «اليواقيت والجواهر» ضمنه الشعراني عقيدة الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي.

وما أكثر المسائل الملفقة المكذوبة التي نسبها الكذابون للصوفية.

وقد رأيت تنزيه ابن تيمية للصوفية عن هذه المقالة الشنيعة.

ومع هذا الانسجام بين ابن تيمية والصوفية في هذا الموضوع الحساس لطَّخ صاحب أطروحة «موقف ابن تيمية من الصوفية» عشرات الصفحات وملأها بالكذب على ابن تيمية، فادعى أن مذهب الصوفية في الولاية والأولياء كما ذكره ابن تيمية يتمثل في مسائل:

أولاً: عصمة الأولياء.

ثانياً: أن الولي يعطى قول «كن». فيكون.

ثالثاً: تفضيلهم الأولياء على الأنبياء

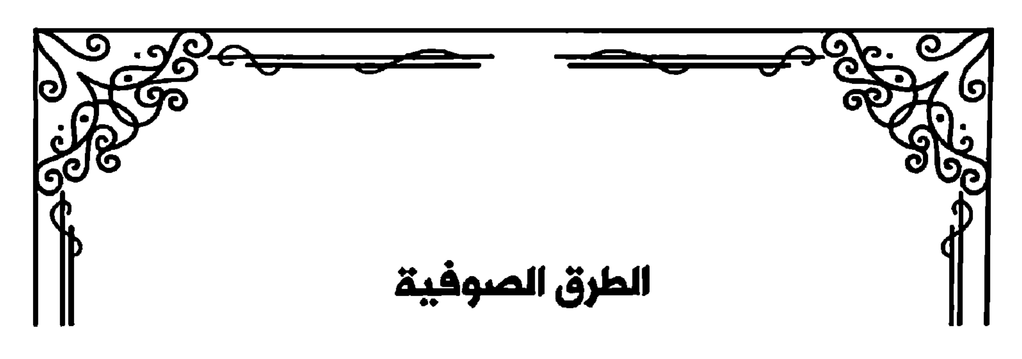
رابعاً: قولهم: كما أن الأنبياء لهم خاتم هو أفضلهم، فكذلك الأولياء لهم خاتم هو أفضلهم، بل هو أفضل من خاتم الأنبياء.

خامساً: عند المتصوفة لا يجب على الولي أن يتلقى من الرسول ﷺ، ولا حرج عليه لو خالف، لأن الولي مع الرسول ﷺ كالخضر مع موسى عليه السلام.[1]

وما قدمناه كاف لبيان حقيقة هذه الدعاوى التي لا تسنيد لشيء من الحقيقة، ولو عدت إلى دراسته المشار إليها لهالك ما فيها من الادعاءات التي لا تلتقي مع الحقيقة، وما فيها من نسبة المقالات والأقوال والمواقف الخاطئة إلى ابن تيمية وإلى الصوفية.

---

(١) انظر «موقف ابن تيمية من الصوفية» (١/ ٧٥٢ ـ ٧٨٠)



الطرق الصوفية

المقصود بالطريقة منهجية متبعة في تربية المريدين وتسليكهم ضمن الأطر العامة للإسلام، فالطريقة مدرسة تربوية تهدف لاختيار أنجع السبل للوصول بالسالك إلى الله.

وتعدد الطرق الصوفية شبيه بتعدد المدراس الفقهية المذهبية، ويخطئ كثيراً من يتوهم أن الطرق تلك طوائف مختلفة، بل هي مدارس متفقة في الموضوع والهدف، وإن كانت كل مدرسة تسلك المنهجية التي تراها مناسبة في التربية والتزكية.

وقد قال بعض السلف من الصوفية: «تتعدد إلى الله الطرائق بعدد أنفاس الخلائق».

وتعدد الأساليب التربوية مشهور في الإسلام، وهو ما يسميه العلماء بـ «اختلاف التنوع»، وله أمثلة لا تخفى.

ومن شأن هذا التنوع المنافسة في الإبداع والاجتهاد، كما أنه يخضع في كثير من الأحيان لظروف النشأة والبيئة والحياة الاجتماعية.

فهو ـ في الجملة ـ جزء من طبيعة الحياة، ولهذا فتح له الإسلام المجال، ولم يضيِّق، لأن الإسلام بطبيعته دين إنساني يراعي الظروف والأمزجة والعادات،

ويؤمن بأهمية تنوع وتعدد أساليب التربية، ويرى أن الجمود على أسلوب واحد تعطيل لملكات العقل الذي من شأنه الإبداع والإثراء.

وقد انتشرت الطرق الصوفية في القديم والحديث في الشرق والغرب، وتلقاها علماء الإسلام بالقبول والترحيب، وعدوها من أحسن المظاهر والروحية التي تميز بها المسلمون، ولم يعرف عن عالم من العلماء إنكار تعدد هذه الطرق، ولا الحكم عليها ـ من حيث أصل الموضوع ـ بالبدعة، كما يفعل اليوم بعض الخاطئين.

ولم يفهم عالم من علماء الإسلام أن هذه الطرق طوائف أو فرق، كما يفهم بعض من يتصدر للإفادة قبل تحصيله لمبادئ العلوم، بل أجمع العلماء على أن تلك الطرق إنما هي أساليب تربوية متنوعة حسب ما سبقت الإشارة إليه.

ودونك كتب العلم في عصور الازدهار العلمي والتحقيق فلن تجد فيها عالماً واحداً وقف من الطرق الصوفية موقف المنكر المعارض، بما فيهم الشيخ تقي الدين الذي طالما تمسحوا به وهم لا يعلمون عنه سوى قشور لا تشكل أي حقيقة علمية.

عاصر ابن تيمية الكثير من الطرق الصوفية، وصاحب الكثير من المنتمين إليها، ولم يجد أي حرج في الانتماء إلى تلك الطرق، ولم يدَّع يوماً أن الانتساب إليها من المحدثات أو البدع، ولم يقل إنها تفرق المسلمين، ولم يعدها جماعات مختلفة متناقضة.

ها هو تراث الشيخ تقي الدين بين أيدينا، ولمحبيه أن يسألوا أنفسهم، هل أفتى يوماً بتحريم الانتساب إلى تلك الطرق، مع كثرتها في زمانه وفي موطنه.؟!

هل يوجد حرف واحد يذم فيه الانتساب إلى الطرق الصوفية؟!

والحق أن ابن تيمية رأى تعدد الطرق الصوفية نوعاً من الثراء والتعدد السلوكي والمعرفي، وعد اختلافها وتعددها من باب «اختلاف التنوع».

فقد قسم الاختلاف إلى «اختلاف تنوع» و«اختلاف تضاد» وذكر صوراً متعددة لخلاف التنوع، منها الانتساب إلى شيء من الطرق الصوفية.

فقال: «ومنه ما يكون طريقتان مشروعتان، ورجل أو قوم قد سلكوا هذه الطريق، وآخرون قد سلكوا الأخرى، وكلاهما حسن في الدين». [1]

فلم يرَ ابن تيمية جواز الانتساب إلى الطرق الصوفية جائز فحسب، بل رآه عملاً محموداً حسناً.

إن أخذ التصوف عن شيخ أو طريقة معتبرة في نظر ابن تيمية ليس مجرد عمل جائز، ولا حسن فحسب، بل إنه يراه حاجة ملحة لتعلم الإيمان والقرآن.

يقول رحمه الله: «وأما انتساب الطائفة إلى شيخ معين فلا ريب أن الناس يحتاجون من يتلقون عنه الإيمان والقرآن، كما تلقى الصحابة ذلك عن النبي ﷺ، وتلقاه عنهم التابعون، وبذلك يحصل اتباع السابقين الأولين بإحسان، فكما أن المرء له من يعلمه القرآن ونحوه، فكذلك له من يعلمه الدين الباطن والظاهر». [2]

والدين الباطن هو التصوف، كما لا يخفى.

ويرى أن الانتساب إلى طريقة من الطرق الصوفية اختيار يجب احترامه، ولا يجوز الاعتراض عليه.

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم»(١/ ١٥٠)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٥١١ ـ ٥١٢)

ولهذا كان يراسل تلك الطرق بلغة راقية مليئة بالاحترام والتقدير، كتلك الرسالة التي أرسلها إلى أتباع الطريقة العدوية.

يقول في مطلعها: «من أحمد ابن تيمية إلى من يصل إليه هذا الكتاب من المسلمين المنتسبين إلى السنة والجماعة المنتمين إلى جماعة الشيخ العارف القدوة أبي البركات عدي بن مسافر». [1]

واستهلال الرسالة بوصف إمام الطريقة بالقدوة فيه إشارة إلى استحسان الاقتداء به، ولو كان في الانتماء إلى طريقته حرج لما وصفه ـ وهو يخاطبهم ـ بهذا الوصف.

كما أنه ـ كما تلاحظ ـ لم يعترض على انتسابهم إلى أهل السنة والجماعة، ولو كان في انتمائهم للطرق الصوفية ما يخدش في هذا الانتساب لما سكت عنه.

وإذا لم يقنعك كل ما تقدم، فاستمع إليه هو يقطع الشك باليقين، فيقول: «الأسماء التي قد يسوغ التسمي بها مثل انتساب الناس إلى إمام، كالحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي، أو إلى شيخ، كالقادري، والعدوي، ونحوهم».

وفي نفس الكتاب ـ وهو الوصية الكبرى ـ يقول بعد أن ساق قوله تعالى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: «فقد أخبر سبحانه أن ولي المؤمن هو الله ورسوله، وعباده المؤمنين وهذا عام في كل مؤمن موصوف بهذه الصفة سواء كان من أهل نسبة أو بلدة أو مذهب أو طريقة أو لم يكن».

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٦٣)

وقال: «لا سيما وقد يكون من يوافقكم في أخص من الإسلام مثل أن يكون مثلكم على مذهب الشافعي، أو منتسباً إلى الشيخ عدي». [1]

ووصف أتباع الطريقة العدوية بالصالحين، فقال: «الشيخ عدي بن مسافر كان رجلاً صالحاً، وله أتباع صالحون». [2]

وفي ثنائه الدائم على الإمام عبد القادر الجيلاني صاحب إحدى أشهر الطرق الصوفية (القادرية) ما يدل على أن الانتساب إلى الطريقة القادرية لا حرج فيه عنده، ولو كان فيه أدنى حرج ـ في نظره ـ لما أكثر من الثناء على صاحبها دون أن ينبِّه على منع الانتماء إلى طريقته.

بل يرى بعض الباحثين أن ابن تيمية قادري الطريقة، وذلك لتأثره الواضح بطريقة عبد القادر الجيلاني، وإقراره بصفاء طريقته وحسن مسلكه في الزهد والتصوف.

وهذا هو ما كتبه الدكتور ماجد عرسان الكيلاني حفيد الإمام عبد القادر في مقدمة تحقيقه لكتاب «الغنية».

ومع موقف ابن تيمية الجلي الواضح من الانتماء إلى الطرق الصوفية، فهو أيضا يعلمنا آداب الانتماء إلى الطرق الصوفية، ويحرص على أداء دوره الإصلاحي في التصوف، كما أداه في الفقه والتوحيد وغيره.

ومن أهم الآداب التي يرى عدم تجاوزها أنه لا يجب الانتساب إلى طريقة معينة دون غيرها، بل كل الأئمة على هدى من ربهم.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٤١٦، ٤١٨، ٤٢١)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٠٣)

ولعله يشير إلى المتعصبين من المتصوفة الجهلة الذين لا يرون التأدب إلا على الطريقة التي سلكوها، وينتقصون سائر الطرق.

يقول رحمه الله: «وليس لأحد أن ينتسب إلى شيخ يوالي على متابعته ويعادي على ذلك، بل عليه أن يوالي كل من كان من أهل الإيمان، ومن عرف منه التقوى من جميع الشيوخ وغيرهم، ولا يخص أحداً بمزيد موالاة، إلا إذا ظهر له مزيد إيمانه وتقواه». [1]

لقد كتب ابن تيمية رداً مشهوراً على العارف بالله أبي الحسن الشاذلي، رضي الله عنه، وهو صاحب طريقة ذائعة الصيت في المشرق والمغرب، ينتسب إليها مئات الآلاف، وتعقبه في عدة مسائل، لكنه لم يقل يوماً إن الانتماء إلى الطريقة الشاذلية بدعة.

وله مع البطائحية منازلات مشهورة، وهي طائفة من الصوفية تنتمي إلى العارف الكبير أحمد الرفاعي، ولهم أحوال غريبة كما شهد بذلك غير واحد من المؤرخين كابن خلكان وغيره، وعندما جاد الزمان بابن تيمية وقف لهم كالصخرة فتحطمت عليها أعمالهم القبيحة التي ألصقوها بالتصوف، في واقعة مشهودة، لكنه لم يأخذ عليهم أبداً انتسابهم إلى الطريقة وتسميهم بـ «الرفاعية»، أو «البطائحية».

* * *

ومن نكد الدنيا أن يتصدر للتأليف والإفادة من لا يحسن التفريق بين الواضحات المتباينات، فإن عدداً ممن يتعنى الكتابة لا يعرف الفَرْق بين الفِرَق والطرق، فيعدون

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٥١٢)

الطرق الصوفية فرقاً، ويعدون ـ قبل ذلك ـ الصوفية فرقة، ثم يفصلون هذه الفرقة إلى فرق كثيرة، هي المعروفة عند أهل العلم بـ «الطرق الصوفية».

وقد جرى على هذا الوهم أحد شيوخ الإعلام في رسالته التي نال بها الدكتوراه «موقف ابن تيمية من الصوفية»[1] محاولاً الإيهام أن ابن تيمية سلك هذا المسلك الخاطئ، فقسم الصوفية إلى فرق متعددة.

وهو تجنٍ قبيح، وتقويل لابن تيمية ما لم يقله، فقد كتب رحمه الله الكثير عن الصوفية، ولم يذكر في شيء من كتاباته أن الصوفية فرقة، ولا أن الصوفية تنقسم إلى طوائف وفرق، ولم يذكر هذا أحد من أهل العلم، فهو مجرد تصور خاطئ خلقه الجهل والبعد عن سير العلماء ومناهجهم.

فالتصوف ـ عند سائر العلماء ـ علم كعلم الفقه والحديث والتفسير، فكما أن الفقهاء والمحدثين والمفسرين ليسوا فرقاً، فكذلك الصوفية.

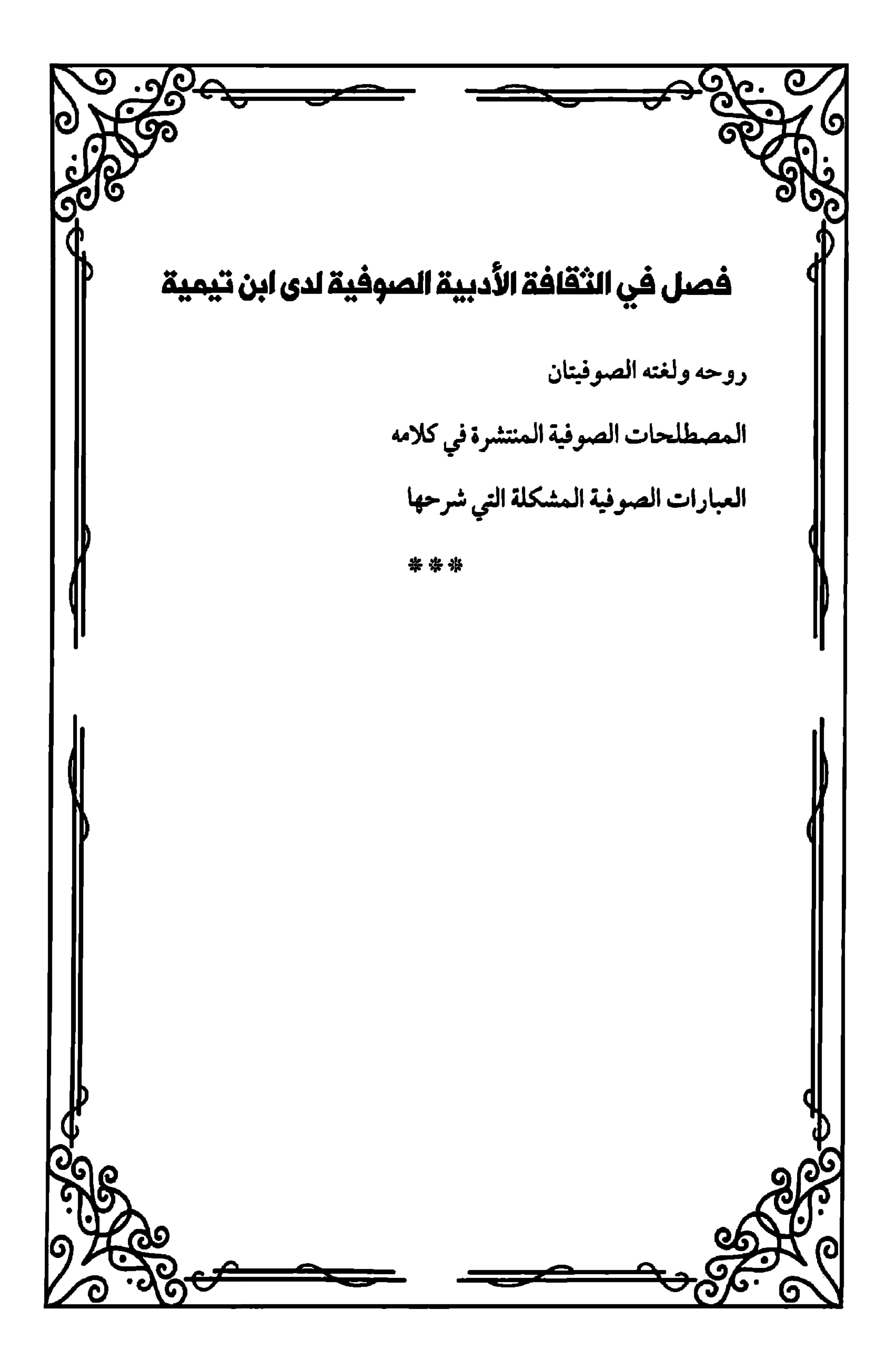
وإنما أشار ابن تيمية إلى بعض الطرق الصوفية، وفرق شاسع بين الطرق الصوفية والفرق المذهبية، فالطرق مدارس تربوية، على غرار المدارس الفقهية الأربع، تتفق في الأصول والمنطلقات العامة، والفرق المذهبية طوائف تختلف في منطلقاتها وأصولها العقدية والفكرية.

وقد رأيت في كلام ابن تيمية عده القادرية والعدوية ونحوهما طرقاً، ولم يعدها فرقاً، كما توهمه الدكتور الذي حاول نسبة هذه الجهالة لهذا العالم الجليل.

* * *

---

(١) (١/ ٢٦٧)



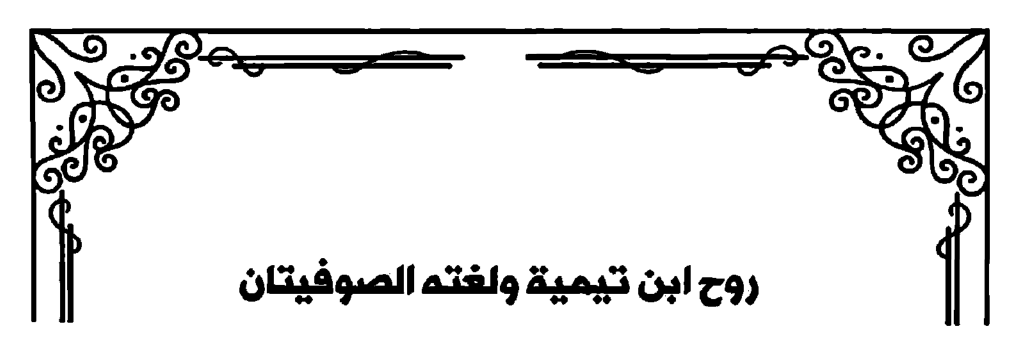
فصل في الثقافة الأدبية الصوفية لدى ابن تيمية

روحه ولغته الصوفيتان

المصطلحات الصوفية المنتشرة في كلامه

العبارات الصوفية المشكلة التي شرحها

* * *



روح ابن تيمية ولغته الصوفيتان

لكل علم لغته وذوقه الأدبي الذي يتميز به عن غيره، إنها روح تتشكل متأثرة بمسائله، حتى يرشح هذا التأثير على سيما المشتغلين بها ظاهراً، وتبدو جلية في ألفاظهم التي ينتقونها من بين عشرات الآلاف من المفردات.

اللغة الصوفية تعتمد على الخيال والاستغراق في معاني الربوبية والتفاني عن النفس، ومشاهدة المعاني والأسرار التي أودعها الخالق في الكون، أو في شريعته على حد سواء.

والروح الصوفية بطبيعتها تميل إلى هذه اللغة التي تعود بها إلى موطنها الأصلي، عالم الملكوت الأعلى.

ولا يتذوق هذه اللغة كل البشر، لأنها لغة خاصة بالنورانيين والروحانيين.

إنها لغة تتحدث عن المقامات، والأحوال، والمنح الإلهية، والفيوضات الربانية، والعلوم اللدنية، والأذواق، والمواجيد، والتجليات، والمشاهدات.

لغة تصف أبناء هذه المدرسة بالسالكين والسائرين والمريدين.

وتصف شيوخها ومعلميها بالعارفين والمربين.

وتصف عبادها بالناسكين والفقراء.

إنها «لغة الروح» ـ إن صح التعبير ـ

وقد تقدم معنا وصف ابن تيمية للعارفين من الصوفية بـ «أرباب المقامات العلية، والأحوال الزكية، وذوي الحقائق الدينية، والمنح الربانية».

ويقول: «وفي المشايخ من يقسم السالكين إلى مريد، ومراد». [١]

ويصف بعض كلام ابن سيناء في النبوات والكرامات ومقامات العارفين بكلام فيه شرف ورفعة بالنسبة إلى كلام المتقدمين. [٢]

«وهذا أصل عظيم من أعظم ما يجب الاعتناء به على أهل طريق الله السالكين سبيل الإرادة: إرادة الذين يريدون وجهه». [٣]

وقال وهو يتحدث عن الفناء في الربوبية: «فهذا حال عارض لبعض السالكين ليس هو من لوازم السلوك، ولا هو غاية للسالكين». [٤]

وكأني به يترنم وهو يردد تفسيره للفناء بـ «أن يغيب بمشهوده عن شهوده، وبمعبوده عن عبادته، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، فيفنى بالمعروف عن المعرفة والعارف». [٥]

وفي نصوصه التي سقناها فيما تقدم من المباحث ما يلقي الضوء على اعتباره للغة والذوق الصوفيين، وكأني به وهو يتحول للحديث عن التصوف يخلع رداء الفقه والتفسير والحديث ويرتدي قميص التصوف، ويتحدث بلسان

---

(١) «الرد على الشاذلي» (ص١١٦)

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٨٥)

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٩)

(٤) «الرد على الشاذلي» (ص٧٠)

(٥) «الرد على الشاذلي» (ص١٠٢)

أهلـه، حديث الـذوق، والفيوضـات، والنورانية، ويسـتصحب اصطلاحات القوم، ومعانيهـم، ومقاصدهم.

ولأن النفس لا تمل من الكلام الروحاني النوراني أعيد هنا نقل كلمته التي تشع نوراً وتصوفاً، لتجد نفسك بين يدي صوفي عارف، أخذ التصوف سلوكاً ولغة وذوقاً.

يقول: «ثم إن كثيراً من أهل التوجه إلى الله إذا أقبلوا على ذكره وعبادته والإنابة إليه شهدوا بقلوبهم هذه الربوبية الجامعة وهذه الإحاطة العامة، فإنه بكل شيء محيط، وهو سبحانه الحق الذي خلق السموات والأرض، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر، ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق، وهو سبحانه نور السموات والأرض ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ الآية، وهو سبحانه ليس عنده ليل ولا نهار، نور السموات من نور وجهه، هكذا قال عبد الله بن مسعود: «لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور ـ أو النار ـ لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه» هكذا قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه عن أبي موسى[1]، فقد يشهد العبد القدر المشترك بين المصنوعات، وهو الحق الموجود فيها الذي هو شامل لها، فيظن أنه الخالق لمطابقته له في نوع من العموم، وإنما هو صنعه وخلقه، ثم قد يرتقي إلى حجاب من حجبه النورية أو النارية، فيظن أنه هو، ثم يرتقي إلى نوره وما يظهر من أثر صفاته، فقد يقع بعض هؤلاء في نحو

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧٩)، ولم أره في «البخاري».

من مذهب أهل الاتحاد المطلق العام، فإن تداركهم الله برحمته فاعتصموا بحبل الله واتبعوا هدى الله علموا أن هذا كله مخلوق لله، وأن الخالق ليس هو المخلوق، وأن جميعهم عباد لله، وربما قد يقع هذا في نوع من الفناء أو السكر فيكون مخطئاً غالطاً وإن كان ذلك مغفوراً له إذا كان بسبب غير محظور، كما ذكرنا نظيره في الاتحاد المعين».[1]

ولن أقتطع شيئاً من وقتي لأنبش كتبه وأستخرج منها ما أدلل به على كلامي، ففي هذا النص، وفيما سقناه غنى وكفاية للراغبين المنصفين.

* * *

إشارات الصوفية (التفسير الإشاري)

تتميز لغة التصوف بأنها لغة الإشارات، وذلك لأن التصوف يعنى بالمعاني اللطيفة التي لا تنسجم معها العبارات الكثيفة، لغة تخاطب الروح، تجعل من الإشارة أكثر انسجاماً مع عالمها.

وإذا كان بعض من يدعي سلوك طريقة ابن تيمية يضيق ذرعاً بشيء في العلم اسمه «الإشارات»، فإن ابن تيمية رحمه الله كان بريئاً من هذه الروح الجامدة التي لم تألف الحياة مع المعاني واللطائف الدقيقة.

ولم يتقبل ابن تيمية إشارات الصوفية ويستعملها فحسب، بل أصَّل لها واستدل لها، ورد على منكريها.

ورأى أنها من باب الاعتبار والقياس وإلحاق ما ليس منصوصاً بالمنصوص.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣)

يقول رحمه الله: «إشارات المشايخ الصوفية التي يشيرون بها تنقسم إلى إشارة حالية ـ وهي إشارتهم بالقلوب ـ وذلك هو الذي امتازوا به، وتنقسم إلى الإشارات المتعلقة بالأقوال، مثل ما يأخذونها من القرآن، ونحوه، فتلك الإشارات هي من باب الاعتبار والقياس، وإلحاق ما ليس بمنصوص بالمنصوص، مثل الاعتبار والقياس الذي يستعمله الفقهاء في الأحكام، لكن هذا يستعمل في الترغيب والترهيب وفضائل الأعمال ودرجات الرجال، ونحو ذلك». [1]

وبالطبع فإن التفسير الإشاري إنما يعتبر مع الإبقاء على المعنى اللفظي للنص، وإلا فإنه تحريف وإلحاد فيه.

يؤكد ابن تيمية على هذه النقطة، ويكرر أن مع دلالة الآية على المعنى الذي يدل عليه لفظها قد يكون فيها إشارة إلى معنى آخر يناسبه، فهذا ـ كما يقول ـ هو القياس والاعتبار، فالذي تريده الصوفية بالإشارة هو الذي يريده الفقهاء بالقياس والاعتبار، وهو صحيح إذا روعيت شروطه عند أكثر العلماء. [2]

واسترواح التفسير الإشاري وقبوله يعني التعايش مع اللغة والخيال الصوفيين، وفهمها بناء على نفسيات وروح أربابها.

لكن مع تحليقه وتعامله مع هذه اللغة الخاصة، لم يغب عن ذهنه ـ وهو العالم الحاذق المتيقظ ـ محاولات الملاحدة الذين يحاولون استغلال أي ثغرة للتسلل منها إلى العقائد والأديان.

فلما كانت لغة الإشارة معتمدة على الإيماءات والإشارات اللطيفة أو الدقيقة

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧)، وانظر (١٠/ ٧٨) (١١/ ٤٢)

(٢) «بغية المرتاد» (ص٣١٤)

ـ التـي لا يدركهـا إلا الخـواص ـ ربما يتكئ عليها بعض المفسـدين للتشـويش على العامة.

وقطعاً للطريق على هؤلاء يقول رحمه الله: «فإن كانت الإشارة اعتبارية من جنس القياس الصحيح كانت حسنة مقبولة، وإن كانت كالقياس الضعيف كان لها حكمه، وإن كان تحريفاً للكلام عن مواضعه وتأويلا للكلام على غير تأويله كانت من جنس كلام القرامطة، والباطنية، والجهمية». [1]

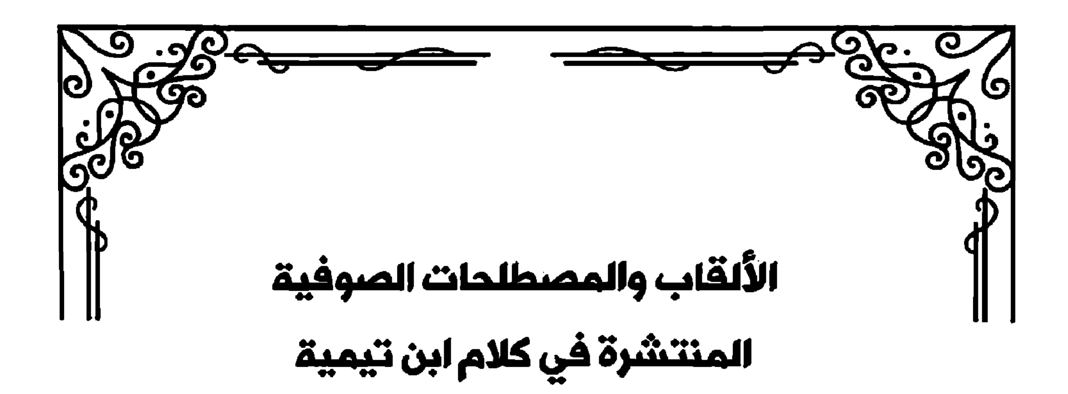
وبكل حال، فإن القارئ للتراث الكبير الذي تركه ابن تيمية يلحظ ـ دون عناء ـ تأثره الثقافي والأدبي بالتصوف، فقد كان يراه علماً معتبراً، ومن المعيب بعالم موسوعي مثله أن تغيب عنه لغة فن من فنون الشريعة وعلومها.

كيف هذا، وتحقيقاته في علم التصوف تدل دلالة واضحة على تضلعه فيه، بل على تحقيقه وتبحره.

* * *

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٣٧٧)



الألقاب والمصطلحات الصوفية المنتشرة في كلام ابن تيمية

التصوف ـ كغيره من العلوم ـ له مصطلحاته الخاصة، والمصطلحات ـ كما هو معلوم ـ ألقاب تواضع العلماء على تحديد معان لها، وهي تمثل العرف الخاص بين أهل الفن.

وعند الحديث عن علم ما لا يصح أن نتجاوز المصطلحات التي تواضع عليها أهله، ولا يجوز أن نفسر معانيها استناداً إلى اللغة.

بل يجب التزام المعاني التي اتفقوا على وضع المصطلح أو اللقب الخاص بها.

واستعمال مصطلحات العلم دون اعتراض اعتراف به، كما لا يخفى.

وقد كان ابن تيمية يتحدث بلغة صوفية أصيلة، ويستعمل جميع المصطلحات الصوفية، دون تحرج.

***

مصطلح التصوف، والصوفي

يأتي في مقدمة المصطلحات مصطلح «التصوف»، أو «الصوفي»، وقد رأيت كلامه فيه، واعتداده بهذا الاصطلاح وتلقيه بالقبول.

مصطلح الفقر

وتقدم أيضاً حديثه عن اصطلاح الصوفية في «الفقر».

* * *

مصطلح علم الباطن

ومر بك حديثه عن مصطلح «علم الباطن» الذي يتحرج منه معاصرونا الناقمون حرجاً شديداً، ويعدونه أحد أخطر المعتقدات الصوفية.

* * *

مصطلح الشريعة والحقيقة

وكذلك تقدم حديثه عن مصطلح «الحقيقة والشريعة».

* * *

مصطلح الفناء

وتقدم شيء من حديثه المستفيض عن الفناء الصوفي، وهو من أشهر المصطلحات التي لن يفهم منها السطحيون إلا معنى الاتحاد الذي أجمعت الصوفية على نفيه ورفضه، بل وتكفير القائلين به.

ويقابل الفناء ـ عند السادة الصوفية ـ البقاء.

يقول ابن تيمية هو يتحدث عن أقسام الفناء: «لفظة الفناء تطلق على ثلاثة أمور: أحدها: أن يفنى العبد بعبادته عن عبادة ما سواه، وبحبه عن حب ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وبرجائه عن رجاء ما سواه، وبخوفه عن خوف ما سواه، فهذا أهل التوحيد والإخلاص كالرسل وأتباع الرسل، وهذا هو أصل ملة إبراهيم، وهو

تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وهذا الفناء مقرون بالبقاء فإن نفي إلهية ما سوى الله مقرون بإثبات إلهيته سبحانه وتعالى، وفي هذا الفناء تكلم طائفة من أكابر المشايخ كالشيخ عبد القادر وغيره، فيأمرون الإنسان أن يفنى عن هواه، وعن الالتفات إلى الخلق بالإخلاص لله والعمل بما أمر به، ويبينون أن أصول السلوك ثلاثة أمور، فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور». [1]

وبرغم ما يقال من إن ابن القيم أكثر تأثراً بالتصوف من شيخه، إلا أن ابن القيم انتقد بعض المصطلحات الصوفية، فيما استعملها شيخه ابن تيمية وقبلها، وجرت على قلمه كما جرت على أقلام غيره من علماء الصوفية.

***

مصطلح السكر

وذلك كمصطلح «السكر»، الذي يعني الغياب عن الخلق بسبب قوة الوارد، فقد رأى ابن القيم أنه لا ينبغي استعماله لكونه لم يذكر في الشريعة إلا على وجه الذم.

أما ابن تيمية فقد استعمله ما لا أحصي، وفي كتابه «الاستقامة» فصل خاص بالسكر الصوفي، وقد سبق الكثير من كلامه حوله.

ومما قاله: «فمن السالكين من إذا حصل له سكر حصل له فيه منفعة وإيمان، وان كان فيه من النقص وعدم التمييز مما يحتاج معه الى العقل ما فيه، فيكون خيراً من صحو ليس فيه الا الغفلة عن ذكر الله، وقسوة القلوب، والكفر، والفسوق، والخيلاء، ونحو ذلك من ترك الحسنات وفعل السيئات». [2]

---

(١) «الرد على الشاذلي» (ص٢١١)

(٢) «الاستقامة» (٢/ ١٦٧)

مصطلح الاصطلام

ويذكر مع «السكر» مصطلح «الاصطلام»، وهو بمعنى الفناء، إلا أن الفناء أعم منه.

ويرى ابن تيمية أن الاصطلام نوع من الفناء، وهو الفناء عن شهود السوى.[1]

يقول العلامة التهانوي: «الاصطلام هو الوله الغالب على القلب، وهو قريب من الهيمان، كذا في الاصطلاحات الصوفية».[2]

* * *

مصطلح الذوق والوجد

ومنها «الذوق والوجد» ولفظ «الذوق»، يراد به الذوق باللسان، إلا أنه في استعمال القرآن والسنة أعم، فقد استعملاه بمعنى إدراك الملائم والمنافر.[3]

والمراد بـ «الذوق» في العرف الصوفي المعاني التي تفيض على القلب، فصفاء معاملاتهم توجب لهم ذوق المعاني، كما قال أبو القاسم القشيري.[4]

يرى ابن تيمية أن الناس فيما يجده أهل الإيمان ويذوقونه من حلاوة الإيمان وطعمه على ثلاث درجات:

الأولى: من علم ذلك، مثل من يخبره به شيخ له يصدقه، أو يبلغه ما أخبر به العارفون عن أنفسهم، أو يجد من آثار أحوالهم ما يدل على ذلك.

---

(١) «الرد على الشاذلي»(ص١٠٢، ٢١١)، «مجموع الفتاوي» (٢/ ٣١٣، ٣٧٠)

(٢) «كشاف اصطلاحات الفنون»(ص٢١٢)

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٣٤، ٣٣٥)

(٤) انظر «الرسالة القشيرية» (ص٧٢)

والثانية: من شاهد ذلك وعاينه، مثل أن يعاين من أحوال أهل المعرفة والصدق واليقين ما يعرف به مواجيدهم وأذواقهم ـ هكذا يقول ـ وإن كان هذا في الحقيقة لم يشاهد ما ذاقوه ووجدوه، ولكن شاهد ما دل عليه لكن هو أبلغ من المخبر والمستدل بآثارهم.

والثالثة: أن يحصل له من الذوق والوجد في نفسه ما كان سمعه، كما قال بعض الشيوخ: «لقد كنت في حال أقول فيها إن كان أهل الجنة في الجنة في مثل هذا الحال إنهم لفي عيش طيب».

وقال آخر: «إنه ليمر على القلب أوقات يرقص منها طرباً».

وقال الآخر: «لأهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم».[1]

ثم إن ابن تيمية كغيره من أئمة الصوفية لا يرون الاستقلال بالذوق، بل تحاكمه إلى الكتاب والسنة هو الواجب.[2]

فـ «الذوق والوجدان إن لم يكن موافقاً للعقل والنظر وإلا لزم فسادهما أو فساد أحدهما».[3]

ويقول ـ وما أعظم قوله ـ: «فالذوق والوجد هو يرجع إلى حب الإنسان، ووجده بحلاوته، وذوقه، وطعمه، وكل صاحب محبة فله في محبوبه ذوق ووجد».[4]

---

(١) «جموع الفتاوى» (١٠/ ٦٤٦ـ ٦٤٧)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٧١)

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٩٩)

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٧٣)

مصطلح السالك

ومنها: مصطلح «السالك»، وهو كثير في كلامه، والسلوك عبارة عن تهذيب الأخلاق، وتطهير النفس عن الأخلاق الذميمة، مثل حب الدنيا والجاه، ومثل الحقد والحسد والكبر والبخل والعجب والكذب والغيبة والحرص والظلم، ونحوها من المعاصي، ويتصف بالأخلاق الحميدة، مثل العلم والحلم والحياء والرضاء والعدالة ونحوها. (١)

ومن كلمات ابن تيمية التي تشع تصوفاً، قوله: «لابد للسالك إلى الله من همة تسيره وترقيه، وعلم يبصره ويهديه». (٢)

وفي رسالته إلى نصر المنبجي يصفه ابن تيمية بـ «الشيخ العارف القدوة السالك الناسك». (٣)

ووصف بها «معمر بن أحمد الأصبهاني شيخ الصوفية في حدود المائة الرابعة في بلاده»، وهذا لفظه. ووصف بها أيضا الإمام عبد القادر الجيلاني، والإمام عدي بن مسافر، والإمام كمال الدين المراغي. (٤)

ويتبع ابن تيمية أئمة الصوفية في تقسيم السلوك، إلى قسمين:

سلوك الأبرار أهل اليمين وهو أداء الواجبات، وترك المحرمات باطناً وظاهراً.

---

(١) انظر «كشاف اصطلاحات العلوم»(ص ٩٦٩)

(٢) «المستدرك على مجموع الفتاوى» (١/ ١٤٣)

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٥٢)

(٤) «الفتاوى الكبرى» (١/ ٣٧٣)، «بيان تلبيس الجهمية» (١/ ٢١٢، ٢١٤) (٣/ ٤٠٢)، «درء تعارض العقل والنقل» (٦/ ٢٥٦)، «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٤٤) (٣/ ٢٦٤، ٣٦٣)

والثاني: سلوك المقربين السابقين، وهو فعل الواجب والمستحب، بحسب الإمكان، وترك المكروه والمحرم، كما قال النبي ﷺ «إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[1]

يقول رحمه الله: «وكلام الشيوخ الكبار كالشيخ عبد القادر، وغيره يشير إلى هذا السلوك، ولهذا يأمرون بما هو مستحب غير واجب، وينهون عما هو مكروه غير محرم، فإنهم يسلكون بالخاصة مسلك الخاصة، وبالعامة مسلك العامة».[2]

***

مصطلح العارف

ومصطلح «العارف» من أشهر الاصطلاحات الصوفية، وذكره في كلام ابن تيمية لا يكاد يحصى.

ومن أقوله: «العارف يسير إلى الله عز وجل بين مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس».

وقال: «العارف لا يرى له على أحد حقاً، ولا يشهد له على غيره فضلاً، ولذلك لا يعاتب، ولا يطالب، ولا يضارب».[3]

***

(١) «صحيح البخاري» (رقم ٧٢٨٨)، «صحيح مسلم» (رقم١٣٣٧)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٦٤)

(٣) «المستدرك على مجموع الفتاوى» (١/ ١٤٣)

مصطلح المريد

ومنها: «المريد»، وإنما أطلق عليه الصوفية هذا الاسم لأن طريقتهم مبنية على صحة الإرادة في التوجه إلى الله، كما أشار إليه ابن تيمية. [1]

يقول: «وفي المشايخ من يقسم السالكين إلى مريد، ومراد». [2]

***

مصطلح الغيرة

ومن المصطلحات الصوفية التي شرحها مصطلح «الغيرة».

فيشير إلى الغيرة في اصطلاح طائفة من أهل الطريق، كما سماهم، وينقل عن الإمام أبي القاسم القشيري قوله: «الغيرة كراهة مشاركة الغير، وإذا وصف الحق بالغيرة فمعناه أنه لا يرضى بمشاركة الغير معه فيما هو حق له تعالى من طاعة عبده له».

يقول ابن تيمية: «فقوله «الغيرة كراهة مشاركة الغير» أشار بلفظ الغير إلى اشتقاق لفظ الغيرة، وهذا أقرب، فإن الغيرة إما من تغير الغائر، وإما من مزاحمة الغير».

ويستدرك ابن تيمية عليه بأن قوله «كراهة مشاركة الغير» هو اصطلاح خاص، ليس بمطابق لاصطلاح الشارع، بل هو أعم منه من وجه، وأخص منه من وجه.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٨٦)

(٢) «الرد على الشاذلي» (ص١١٦)

ثم أفاض في شرح استدراكه، وفي بيان مذاهب شيوخ الصوفية في الغيرة، ولو لا تجنب الإطالة لنقلت من كلامه الكثير الطيب.[1]

* * *

مصطلح العلم عند الصوفية

وأفاض بشرح معنى «العلم» عند الصوفية بما لا تجده عند غيره.

ومما قاله: «العلم في لسان الصوفية ووصاياهم كثيراً ما يريدون به الشريعة كقول أبي يعقوب النهرجوري: «أفضل الأحوال ما قارن العلم».

ثم نقل العديد من أقوال أئمة الصوفية، إلى أن قال: «وسبب تعبيرهم عن الشريعة بالعلم أن القوم أصحاب إرادة وقصد وعمل وحال».[2]

* * *

مصطلح الأحوال والمقامات

ومن أشهر المصطلحات الصوفية التي تنتشر في كلامه مصطلحا «الأحوال والمقامات»، وفي كتابه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» أفاض في بيان الفرق بين الأحوال الرحمانية، والأحوال والشيطانية.[3]

ومما قاله: «وهذا كحال كثير من الصالحين والصادقين وأرباب الأحوال والمقامات يكون لأحدهم وجد صحيح وذوق سليم، لكن ليس له عبارة تبين كلامه».[4]

---

(١) انظر «الاستقامة» (١/ ١١)

(٢) «الاستقامة» (ص٥٩، ٦١)

(٣) «الفرقان» (ص٨٤، ١١١، ١٦٦)

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٩٩)

وفي مقدمة كتاب «السلوك» - كما في مجموع الفتاوى -: «فهذه كلمات مختصرات في أعمال القلوب - التي قد تسمى «المقامات والأحوال» - وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين». [1]

***

مصطلح الفتوة

ومنها: مصطلح «الفتوة»، وهو - بنظره - مصطلح مقبول استعمله شيوخ الصوفية بمعنى المتصف بمكارم الأخلاق، ومنه قول بعض الشيوخ: «طريقنا تفتي، وليس تنصر».

يعني استعمال مكارم الأخلاق، ليس هو النسك اليابس.

ومنه قول أبي إسماعيل الأنصاري: «الفتوة أن تقرب من يقصدك، وتكرم من يؤذيك، وتحسن إلى من يسيء إليك، سماحة لا كظما، ومودة لا مصابرة».

ونقل عن أحمد بن حنبل أنه قال: «الفتوة ترك ما تهوى لما تخشى». [2]

***

مصطلح الوارد

ومر في كلامه استعمال مصطلح «الوارد»، ومعناه عند الصوفية ما يرد على القلب من الخواطر المحمودة مما لا يكون بتعمد العبد. [3]

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥)

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» (١١/ ٨٣ - ٨٤، ٩١)

(٣) انظر «الرسالة» للقشيري (ص٨٥)

ويكرر الشيخ تقي الدين قوله إن أصحاب الفناء معذورون لقوة الوارد، وأن هذا الوارد إنما يرد على الصالحين الذين يفقدهم الوعي، ويوقعهم في الدهشة، وربما سبب لهم شيئاً من الغشيان وفقدان العقل.[1]

***

مصطلح الجمع والفرق

ومنها مصطلح «الجمع والفرق»، وهو من أشهر الاصطلاحات لدى الصوفية، وقد نوه به ابن تيمية في مواضع عديدة، فمن ذلك وهو يتحدث عن بعض السالكين أنهم إذا شهدوا الربوبية العامة والقيومية الشاملة لكل شيء وشهدوا الحقيقة الكونية ورأوا توحيد الربوبية ظنوا أن الكمال هو في الفناء في توحيد الربوبية، وهذا ـ كما يقول ـ غلط عظيم وضلال مبين وقع فيه كثير من السالكين.

قال: «وكان قد وقع بين الجنيد وأصحابه وبين طائفة من الصوفية في زمانه كلام في هذا المقام وهم يسمونه الجمع، فقال الجنيد بعد هذا المقام الفرق الثاني تحقيق العبودية لله، وهذا الفرق الذي انتقل إليه المؤمن، فإن العبد كان في الفرق الأول يشهد أكثر المخلوقات، فانتقل إلى الجمع، فيشهد وحده الربوبية الشاملة لكل شيء، ثم بعد هذا عليه أن يشهد الفرق الثاني، وهو الفرق بين المؤمن والكافر والبر والفاجر، وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وبين المفسدين في الأرض، فيشهد أن لا إله إلا الله، فيفرق بينه وبين ما سواه بأنه هو الإله الذي يستحق العبادة دون ما سواه، وأن عبادته بطاعة رسله، فيعبد الله بطاعة رسوله، فهذا فرق إلهي نبوي شرعي، وبه بعث الله الرسل وأنزل الكتب».[2]

---

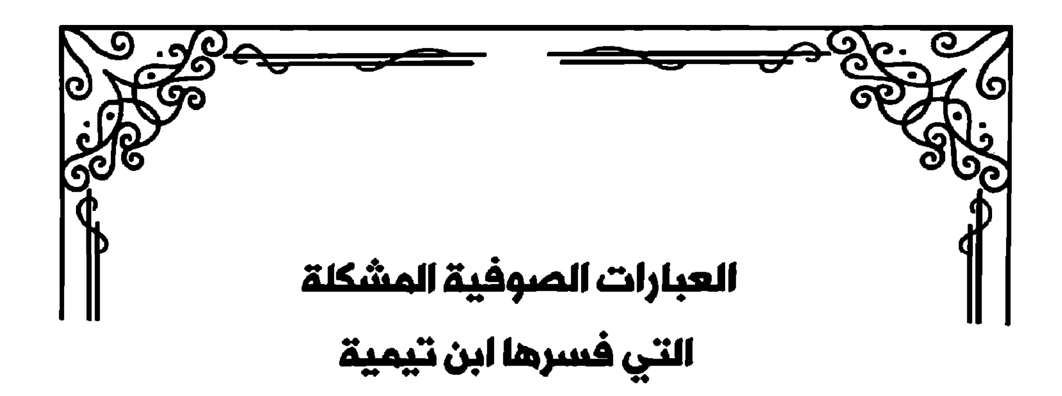
(١) انظر «الرد على الشاذلي» (ص ٦٩)، «مجموع الفتاوى» (١/ ٩٠) (١٠/ ٣٤٩) (١١/ ١٠)

(٢) «الرد على الشاذلي» (ص٦٩)

والمقام يطول، وبالإمكان الرجوع إلى أي كتاب في مصطلحات الصوفية، ثم تتبعها في كتب ابن تيمية، لنجد أنه يستخدمها كما استخدمها سائر علماء التصوف، لا فرق، وتداولها باعتبارها مصطلحات علم معتبر، كما تداول مصطلحات الفقه والحديث والتفسير والكلام.

ولا أتذكر أنه رحمه الله انتقد شيئاً من مصطلحات الصوفية، ولا فسرها تفسيرياً حرفياً، بل فسرها حسبما تواضع عليه أهل التصوف، ولم يقف عند شيء منها إلا بمقدار الشرح والبيان.

* * *



العبارات الصوفية المشكلة التي فسرها ابن تيمية

عندما توجه ابن تيمية لتعقب بعض جهلة الصوفية ورد بعض الآراء التي لا أصل لها في الشريعة لم يكن يعتقد أنه يخوض معركة مع التصوف، وإنما كان يرى أنه يحارب دفاعاً عنه.

وكما وقف حارساً عند باب التصوف ليمنع الخرافيين والجاهلين من الدس فيه، فقد وقف أيضاً في وجه علماء الصوفية الكبار الذين انتقدوا بعض العبارات أو المواقف الصوفية، فدافع عنها دفاع الصوفي العارف المستميت.

واستبق الحدث، فقطع الطريق أمام الإشكالات التي قد تتولد بسبب بعض العبارات المشكلة لأئمة الصوفية، وفسرها تفسير العالم الخبير بالفن وبمقاصد أئمته.

عاب رحمه الله على بعض الصالحين قصورهم في التعبير عن المعاني الذي أحدث إشكالات فكرية كثيرة لدى المريدين، فقال: «كثير من الصالحين والصادقين وأرباب الأحوال والمقامات يكون لأحدهم وجد صحيح وذوق سليم، لكن ليس له عبارة تبين مراده، فيقع في كلامه غلط وسوء أدب، مع صحة مقصوده».[1]

---

(١) «الاستقامة» (ص٣٢٨ ـ ٣٢٩)

وقد أصل رحمه الله أصلاً علمياً متيناً لتفسير ما ورد من العبارات المشكلة على لسان أئمة الصوفية، ورأى أن تفسير كلماتهم المشكلة لا يجوز أن يتم بعيداً عن مراعاة الخلفية الدينية والسلوكية والمعرفية لأولئك الأئمة، فعلى ضوئها يتم تفسير كلماتهم، وإلى صفاء ونقاء مسالكهم يجب رد ما أوهم من العبارات، مهما كانت ظاهرة في المعنى الخاطئ.

يقول: «الشيوخ الذين عُرف صحة طريقهم علم أنهم لا يقصدون ما يعلم فساده بالضرورة من العقل والدين». [1]

* * *

شرحه لقولهم «فسخ العزائم ونقض الهمم»

من الكلمات الصوفية التي شرحها ووجهها التوجيه الحسن ما نقل عن بعض الصوفية أنه قيل له: بمَ عرفت الله؟، فقال: «بفسخ العزائم، ونقض الهمم».

والمقصود بها ـ كما أشار ـ أن عزم السالك على بعض المجاهدات أو الأحوال قد لا يستمر، فيضعف عنه، وهذه طبيعة الإنسان.

يقول: «فالعزم قد يدوم، وقد ينفسخ، وما أكثر انفساخ عزائم الناس، وخصوصاً الصوفية، ولهذا قيل لبعضهم: بم عرفت ربك،». [2]

وبهذا فسر ما نقل عن أبي سليمان الداراني: «لو أنه أدخلني النار لكنت بذلك راضياً».

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٣٩٣)

(٢) «الاستقامة» (ص٣٢٠)

فإنه مجرد عزم على الرضا، وقد ينفسخ، واستشهد ابن تيمية بعدة آيات، منها قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾.

ثم قال: «فهؤلاء الذين كانوا قد عزموا على الجهاد وأحبوه لما ابتلوا به كرهوه وفروا منه، وأين ألم الجهاد من ألم النار وعذاب الله الذي لا طاقة لأحد به».

وذكر من أمثلة انفساخ العزائم ما نقل عن سمنون المحب (هكذا سماه) أنه كان يقول:

فليسَ لـيْ فـي سِـواكَ حَظٌّ ... فكيـفَ مـا شِـئْتَ فاختبرنـي

فأخذه الأسر من ساعته، أي حصر بوله، فكان يدور على المكاتب، ويفرق الجوز على الصبيان، ويقول: «ادعوا لعمكم الكذاب».

وحكى أبو نعيم الأصبهاني عن أبي بكر الواسطي أنه قال: قال سمنون: «يا رب قد رضيت بكل ما تقضيه عليَّ».

فاحتبس بوله أربعة عشر يوماً، فكان يتلوى كما تتلوى الحية على الرمل، يتلوى يميناً وشمالاً، فلما أطلق بوله قال: «يا رب تبت اليك».

قال أبو نعيم: «فهذا الرضا الذي ادعى سمنون ظهر غلطه فيه بأدنى بلوى»

قال ابن تيمية: «هذا مع أن سمنون كان يضرب به المثل في المحبة، وله مقام مشهور». [1]

---

(١) «الاستقامة» (ص ٣٢٠ ـ ٣٢٢)

ومع أن مثل هذه الكلمات لا تخلو من كراهة إلا أن ابن تيمية لحظ الدافع لها، وهو صدق المحبة.

يقول: «وهذه الكلمات التي تصدر عن صاحب حال لم يفكر في لوازم أقواله وعواقبها لا تجعل طريقة، ولا تتخذ سبيلاً، ولكن قد يستدل بها على ما لصاحبها من الرضا والمحبة، ونحو ذلك».[1]

إن الشيخ تقي الدين يعلمنا كيف نكون إيجابيين حتى عند النظر إلى السلبيات، يعلمنا كيف نلحظ الجوانب المشرقة من الأعمال التي قد لا تنسجم مع الشريعة.

وهو بهذا يرسل رسائل إلى الظلاميين الذين يرون كل شيء أسود، ويزجون بالصوفية في خانة الخرافة بمثل هذه العبارات، ولا يلحظون ـ لغلظ أكبادهم ـ ما يقوم بقلوبهم من الحب والوله والعشق للخالق جل جلاله.

إن القارئ لفكر ابن تيمية وتراثه يدرك أنه كان شديد الحرص على ملاحظة الجوانب الإيجابية في أي قول أو عمل يصدر من راغب في السلوك والهداية، مهما كان احتماله ضعيفاً.

وهذه منهجية التزمها في ردوده وتعقباته عموماً.

وأذكر هنا مسألة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، فمع أنه لم يكن يرى مشروعية الاحتفال به، إلا أنه لحظ النية التي تدفع المسلم إلى الاحتفال، وهي حب الرسول ﷺ، حتى جزم بأن المحتفل الذي اتخذه موسماً قد يكون له أجر عظيم، فقال: «فتعظيم المولد، واتخاذه موسماً، قد يفعله بعض الناس، ويكون له فيه أجر عظيم، لحسن قصده، وتعظيمه لرسول الله ﷺ».[2]

---

(١) «الاستقامة»(ص٣٢٣)

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ١٢٦)

توجيهه لكلمة الشبلي «أين من يريد الله»

ومن الأمثلة أن أبا بكر الشبلي الصوفي المشهور أثر عنه أنه سمع قارئاً يقرأ ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ فصرخ: «أين من يريد الله».

وقد يفهم البعض أن هذه الكلمة فيها تعريض بالصحابة، وإساءة لهم، ومع ذلك التمس له ابن تيمية وجهاً يحمد عليه، فقال: «فيحمد منه كونه أراد الله، ولكن غلط في ظنه أن الذين أرادوا الأخرة ما أرادوا الله، وهذه الآية في أصحاب النبي ﷺ الذين كانوا معه بأحد، وهم أفضل الخلق، فإن لم يريدوا الله أفيريد الله من هو دونهم، كالشبلي وأمثاله». [1]

ومما يشهد لهذه المنهجية في التعاطي مع الآخرين حديث الإسرائيلي الذي أوصى أولاده بحرقه خوفاً من عذاب الله في الآخرة، وهو حديث مشهور أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «كان رجل يسرف على نفسه، فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر عليَّ ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً، فلما مات فعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: مخافتك يا رب، فغفر له». [2]

لقد اعتقد هذا الإسرائيلي الكفر، وهو عدم قدرة الله على جمعه، لكن الرحمن الرحيم لم يعامله بظنه هذا، وإنما نظر إلى الجانب الإيجابي فيه، وهو خوفه ووجله. فتأمل.

---

(١) «الاستقامة» (ص٣٢٩)

(٢) البخاري (رقم ٣٤٨١)، مسلم (رقم ٢٧٥٦)

لقد كان ابن تيمية رغم حدته ملازماً لهذه الروح الربانية التي تغيب عنها المساوئ وتأبى إلا أن ترى النور في أشد ساعات الليل ظلاماً، إننا أمام رجل يبحث عن المعاذير والإيجابيات ويستخرجها بالمنقاش، ولا يسمح بالتصورات الظلامية أن تسيطر على عقله وروحه.

إنها ليست مجرد ثقافة، وإنما خلق وسلوك سار عليه هذا العالم الخلوق.

ويتجلى هذا الأدب السامي والخلق العالي في قصته مع جماعة من السفهاء الذين تعرضوا له واعتدوا عليه بالضرب، وعندما علم محبوه وأنصاره كادوا أن يتحولوا إلى حمم تحرق الأخضر واليابس، وكاد الغضب أن يفتك بهم، وما زال ابن تيمية يعمل على تهدئتهم، وتسكين نيرانهم.

حتى إنه رحمه الله رأى أن ضربهم له قد يكون سبباً لنيلهم الأجر والمثوبة.

هل تصدقون هذا.؟!

أي نعم، لقد قال لأنصاره هكذا.

فقد قال لأصحابه الغاضبين إن الذين اعتدوا عليه بالضرب قد يكونون مأجورين، لأنهم لم يضربوه إلا غضباً لله، كما يرى، حيث كانوا مجتهدين، والمجتهد في طاعة الله مأجور ولو أخطأ.

يا لها من نفس صوفية عجيبة.

يحكي ابن ناصر الدين الدمشقي أن أصحابه قالوا له وهم يجادلونه في شأن هؤلاء الذين اعتدوا عليه بالضرب: فهذا الذي فعلوه معك هو حلال لهم.؟!

قال: هذا الذي فعلوه قد يكونون مثابين عليه مأجورين فيه.

قالوا: فتكون أنت على الباطل، وهم على الحق، فإذا كنت تقول إنهم مأجورين فاسمع منهم ووافقهم على قولهم.

فقال لهم: «ما الأمر كما تزعمون، فإنهم قد يكونون مجتهدين مخطئين، ففعلوا ذلك باجتهادهم، والمجتهد المخطىء له أجر». [1]

***

شرحه لقولهم «الرضا ألا تسأل الله الجنة، ولا تستعيذ به من النار»

من الكلمات المشكلة قول أبي سليمان الداراني: «الرضا ألا تسأل الله الجنة، ولا تستعيذ به من النار». [2]

وأجاب عنها ابن تيمية بأن القشيري ساقها في رسالته بدون إسناد، وإنما ذكرها مرسلة، فلا تثبت، وليس لها أصل عن أبي سليمان الداراني.

ولعل ـ كما يرى ابن تيمية ـ بعض الناس سمع كلمة أبي سليمان هذه «لو أنه أدخلني النار لكنت بذلك راضياً» فحكاها حسبما فهمه من المعنى أنه قال: «الرضا ألا تسأل الله الجنة، ولا تستعيذه من النار».

قال: «وتلك الكلمة التي قالها أبو سليمان مع أنها لا تدل على رضاه بذلك، ولكن تدل على عزمة بالرضا بذلك، ونحن نعلم أن ذلك العزم لا يستمر، بل ينفسخ، وأن مثل هذه الكلمة كان تركها أحسن من قولها، وأنها مستدركة كما استدركت دعوى سمنون ورويم، وغير ذلك، فإن بين هذه الكلمة وبين تلك فرقا عظيماً، فإن تلك الكلمة مضمونها أن من سأل الله الجنة واستعاذه من النار لا يكون راضياً،

---

(١) «العقود الدرية» (ص٢٣٢)

(٢) «الرسالة» لأبي القاسم القشيري (ص١٩٥)

وفرق بين من يقول أنا إذا فعل بي كذا كنت راضياً، وبين من يقول لا يكون راضياً إلا من لا يطلب خيراً، ومن لا يهرب من شر، وبهذا وغيره يعلم أن الشيخ أبا سليمان كان أجل من أن يقول مثل هذا الكلام، فإن الشيخ أبا سليمان من أجلاء المشايخ وساداتهم، ومن اتبعهم للشريعة». [1]

* * *

قولهم «ما عبدتك شوقاً إلى جنتك، ولا خوفاً من نارك»

ومن العبارات المشكلة قول بعض الصوفية: «**ما عبدتك شوقاً إلى جنتك، ولا خوفاً من نارك**».

وقد ساقها ابن تيمية بهذا اللفظ: «ما عبدتك شوقاً الى جنتك، ولا خوفاً من نارك، ولكن لأنظر إليك أو إجلالاً لك».

ثم فسرها بقوله: «مقصودهم بذلك طلب ما هو أعلى من الأكل والشرب والتمتع بالمخلوق». [2]

وكلمة ابن تيمية هذه حل للإشكال الكبير لدى خصوم الصوفية ممن يزعمون أنهم على طريقته، حيث يعدون هذه الكلمة المنقولة عن شيوخ الصوفية من أكبر ما يؤاخذونهم به، ويستدلون بها على مخالفة الصوفية للشريعة التي أمرت بعبادة الله طلباً للثواب، وخوفاً من العقاب.

والحق أن هؤلاء المنكرين يسيرون في سكة لا يسلكها أحد من علماء الإسلام، وهذا ابن تيمية الذي يعدون آراءه معيار الحق والباطل ينضم إلى السادة الصوفية،

---

(١) «الاستقامة» (ص٣٢٤)

(٢) «الاستقامة» (ص٣٢٨)

ويرى سداد هذه الكلمة، ويشير إلى أن همم السادة الصوفية تسامت على مجرد طلب المتع المادية إلى عبادة الله حباً وتقديساً وإجلالاً له.

والحقيقة أن هذه ليست مجرد كلمة أو مقالة رويت عن شيوخ الصوفية، بل هي قاعدة في العبادة، لا عند الصوفية فحسب، بل وعند غيرهم من الفقهاء والمتكلمين، حتى إن الإمام الفخر الرازي كان يرى بطلان عبادة من عبد الله طلباً للثواب أو خوفاً من العقاب، وقال: لو قال المصلي: أصلي لطلب الثواب، أو للخوف من العقاب. لم تصح صلاته.

إلا أن المحققين من أصحابنا الشافعية استدركوا عليه هذا الرأي، ولم يروا بطلان العبادة،[1] وإن كانوا لا يخالفون في كون من عبد الله طلباً للثواب،

---

(١) انظر «تفسير الرازي» (١/ ١٤٥)، «مغني المحتاج» (١/ ٣٤٤)

وتمام كلام الفخر الرازي: «من الناس من يعبد الله لطلب الثواب وهو جهل وسخف، ويدل عليه وجوه:

الأول: أن من عبد الله ليتوصل بعبادته إلى شيء آخر كان المعبود في الحقيقة هو ذلك الشيء، فمن عبد الله لطلب الثواب كان معبوده في الحقيقة هو الثواب، وكان الله تعالى وسيلة إلى الوصول إلى ذلك المعبود، وهذا جهل عظيم.

الثاني: أنه لو قال: أصلي لطلب الثواب أو للخوف من العقاب، لم تصح صلاته.

الثالث: أن من عمل عملاً لغرض آخر كان بحيث لو وجد ذلك الغرض بطريق آخر لترك الواسطة، فمن عبد الله للأجر والثواب كان بحيث لو وجد الأجر والثواب بطريق آخر لم يعبد الله، ومن كان كذلك لم يكن محباً لله، ولم يكن راغباً في عبادة الله، وكل ذلك جهل، ومن الناس من يعبد الله لغرض أعلى من الأول، وهو أن يتشرف بخدمة الله، لأنه إذا شرع في الصلاة حصلت النية في القلب، وتلك النية عبارة عن العلم بعزة الربوبية وذلة العبودية، وحصل الذكر في اللسان، وحصلت الخدمة في الجوارح والأعضاء، فيتشرف كل جزء من أجزاء العبد بخدمة الله، فمقصود العبد حصول هذا الشرف».

أو خوفاً من العقاب، قد أخطأ الكمال في العبادة، كما أشار إليه ابن تيمية في كلمته السابقة، وهي متطابقة مع ما يقوله المحققون في هذا الباب.

عندما ردد السادة الصوفية هذه الكلمة «ما عبدناك خوفا من نارك ولا طمعا في جنتك» لم يكونوا يقصدون الاستغناء عن فضل الله وجزائه الذي وعد به الصالحين من عباده، وحاشاهم من ذلك، وإنما قصدوا أن الحق جل جلاله يستحق العبادة لذاته، لا بمقابل الجزاء، بل هو سبحانه مستحق للعبادة ولو لم يكن للعبادة ثواب، كما أوضحه عدد من العلماء المحققين، أمثال شيخ الإسلام الإمام المجتهد تقي الدين السبكي في «فتاويه»[1]

ولهذا قال أهل التحقيق ـ كما حكاه الفخر الرازي وغيره ـ: العبادة لها ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أن يعبد الله طمعاً في الثواب، أو هرباً من العقاب، وهذه الدرجة نازلة ساقطة جداً، لأن معبوده في الحقيقة هو ذلك الثواب، وقد جعل الحق وسيلة إلى نيل المطلوب.

والدرجة الثانية: أن يعبد الله لأجل أن يتشرف بعبادته، أو يتشرف بقبول تكاليفه، أو يتشرف بالانتساب إليه، وهذه الدرجة أعلى من الأولى، إلا أنها أيضا ليست كاملة، لأن المقصود بالذات غير الله.

والدرجة الثالثة: أن يعبد الله لكونه إلهاً وخالقاً، ولكونه عبداً له، والإلهية توجب الهيبة والعزة، والعبودية توجب الخضوع والذلة، وهذا أعلى المقامات وأشرف الدرجات، وهذا هو المسمى بالعبودية.[2]

---

(١) انظر «فتاوى السبكي» (٢/ ٥٥٩ ـ ٥٦٠)

(٢) انظر «تفسير الرازي» (١/ ٢١٤)، «حاشية البجيرمي على الخطيب» (١/ ١٨)

شرحه لقولهم «طريقنا تفتي، وليس تنصر»

ومن العبارات الصوفية التي شرحها ابن تيمية، وأزال منها اللبس، قول بعضهم «طريقنا تفتي، وليس تنصر»، وفسرها بمعنى استعمال الأخلاق.[1]

* * *

«لولا محمد ما خلق الله الخلق، أو ما خلق العرش ولا الكرسي».

ومنها ما يتردد على لسان بعض المتصوفة، فيقولون: **«لولا محمد ما خلق الله الخلق، أو ما خلق العرش ولا الكرسي»**.

وهي عبارة يستشنعها البعض، لكن ابن تيمية صاحب الروح الصوفية استطاع أن يجد لها تفسيراً حسناً وذهب إلى أنها كقوله تعالى ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وقوله ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ وأمثال ذلك من الآيات التي يبين فيها الحق تبارك وتعالى أنه خلق المخلوقات لبني آدم، ومعلوم أن لله فيها حكماً غير ذلك، وأعظم من ذلك، ولكن يبين لبني آدم ما فيها من المنفعة، وما أسبغ عليهم من النعمة.[2]

ويضيف: **«فإذا قيل: فعل كذا لكذا، لم يقتض ألا يكون فيه حكمة أخرى، وكذلك قول القائل: «لولا كذا ما خلق كذا» لا يقتضي ألا يكون فيه حكم أخرى، بل يقتضي إذا كان أفضل صالحي بني آدم محمد وكانت خلقته غاية**

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (١١/ ٨٣)

(٢) «مجموع الرسائل» (١/ ١٦٥)

مطلوبة وحكمة بالغة مقصودة أعظم من غيره، صار تمام الخلق ونهاية الكمال حصل بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم».

«فإذا كان الإنسان هو خاتم المخلوقات، وآخرها، وهو الجامع لما فيها، وفاضله هو فاضل المخلوقات مطلقاً، ومحمد إنسان هذا العين، وقطب هذه الرحى، وأقسام هذا الجمع، كان كأنها غاية الغايات في المخلوقات، فلا ينكر أن يقال: إنه لأجله خلقت جميعها، وإنه لولاه لما خلقت».

قال: «فإذا فسر هذا الكلام ونحوه بما يدل عليه الكتاب والسنة قُبل ذلك».[1]

***

قولهم «أول المعرفة الحيرة، وآخرها الحيرة»

ومنها قول بعضهم «أول المعرفة الحيرة، وآخرها الحيرة»، وهي عبارة قد يفهما البعض على أن فيها ذماً للمعرفة، ويستدل بها على منابذة الصوفية للعلم والمعرفة.

والمراد بها ـ حسب ابن تيمية ـ أن الإنسان قبل أن يُحصِّل شيئاً من المعارف يكون حائراً، للجهل، وهذا طبيعي، وعندما يحصِّل شيئاً من المعرفة يبقى أيضاً حائراً، لأنه مهما حوى من العلم تبقى معرفته محدودة، ويبقى في حيرة وتطلع إلى تحصيل المزيد من المعرفة.

وعليه، فهذه الكلمة ليس فيها ذم للمعرفة، وإنما على العكس تماماً، فإن فيها الحث البالغ عليها.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٩٦ ـ ٩٨)

وعندما فسرها بهذا المعنى، قال في أول كلامه: «فأما قول القائل أول المعرفة الحيرة، وآخرها الحيرة، فقد يريد بذلك معنى صحيحاً»، ثم ذكر معنى ما قدمته.[1]

وتأمل قوله «فقد يريد بذلك معنى صحيحاً»، فهو يعكس الحرص على التماس المخارج والمعاذير والبحث عن أحسن المحامل التي تجنب الصوفية التغليط فضلاً عن التضليل أو التكفير الذَين ولع بهما بعض من يدعون أنهم على منهجه وطريقته.

* * *

قولهم « العارف كلما انتقل من حال إلى حال استقبلته الدهشة والحيرة»

ونحوه قول بعضهم «العارف كلما انتقل من حال إلى حال استقبلته الدهشة والحيرة» فهذا الكلام ـ كما قال ـ قد يراد به أنه كلما انتقل إلى مقام من المعرفة واليقين حصل له تشوق إلى مقام لم يصل إليه من المعرفة، فهو حائر بالنسبة إلى ما لم يصل إليه دون ما وصل إليه.[2]

* * *

قولهم «أعرف الناس بالله أشدهم فيه تحيراً»

وكذلك قول آخر «أعرف الناس بالله أشدهم فيه تحيرا»، أي أطلبهم لزيادة العلم والمعرفة، فإن كثرة علمه ومعرفته توجب له الشعور بأمور لم يعرفها بعد، بل هو حائر فيها، طالب لمعرفتها والعلم بها، ولا ريب أن أعلم الخلق بالله قد

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٣٨٦)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٣٩١)

قال «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[1] والخلق ما أوتوا من العلم إلا قليلاً».[2]

كما نُقلت عن بعض الشيوخ كالجنيد وغيره عبارات قريبة من هذه، فسرها ابن تيمية تفسيراً مقارباً.

* * *

قولهم: «حسنات الأبرار سيئات المقربين»

ومن أشهر العبارات المشكلة التي جرت على ألسنة الصوفية، قولهم: **«حسنات الأبرار سيئات المقربين»**.

وقد رويت هذه العبارة عن الرسول ﷺ، لكنها لا تثبت عنه، ولا عن أحد من سلف الأمة وأئمتها، كما أفاد ابن تيمية.

وهي مروية عن أبي سعيد الخراز، كما في «تاريخ بغداد». [3]

ويرى ابن تيمية أن هذه الكلمة لها معنى صحيح، وقد تحتمل معنى فاسداً أيضاً.

أما معناها الصحيح فله وجهان:

أحدهما: أن الأبرار يقتصرون على أداء الواجبات وترك المحرمات، وهذا الاقتصار سيئة في طريق المقربين، ومعنى كونه سيئة أن يخرج صاحبه عن مقام المقربين فيحرم درجاتهم، وذلك مما يسوء من يريد أن يكون من المقربين، فكل

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦)

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٣٩١)

(٣) (٥/ ٤٥٤)

من أحب شيئاً وطلبه إذا فاته محبوبه ومطلوبه ساءه ذلك، فالمقربون يتوبون من الاقتصار على الواجبات، لا يتوبون من نفس الحسنات التي يعمل مثلها الأبرار، بل يتوبون من الاقتصار عليها، وفرق بين التوبة من فعل الحسن، وبين التوبة من ترك الأحسن والاقتصار على الحسن.

الثاني: أن العبد قد يؤمر بفعل يكون حسناً منه، إما واجباً، وإما مستحباً، لأن ذلك مبلغ علمه وقدرته، ومن يكون أعلم منه وأقدر لا يؤمر بذلك، بل يؤمر بما هو أعلى منه، فلو فعل هذا ما فعله الأول كان ذلك سيئة.

وضرب على ذلك مثلاً بالعامي الذي يجب عليه تقليد العلماء، وهي حسنة في حقه، مع أن التقليد في حق العالم المجتهد سيئة.

وأما المعنى الفاسد فهو أن يظن الظان أن الحسنات التي أمر الله بها أمراً عاماً يدخل فيه الأبرار ويكون سيئات للمقربين.

وذلك مثل من يظن أن الصلوات الخمس ومحبة الله ورسوله والتوكل على الله وإخلاص الدين لله ونحو ذلك سيئات في حق المقربين.[1]

وهذا باب واسع.

والمقصود أن عالمنا الجليل كان عارفاً بلغة الصوفية، عالماً بمعاني عباراتهم، حريصاً على تصحيح الأفهام الخاطئة لما يصدر عنهم من عبارات لم يألفها غيرهم، ممن ليس له خبرة بهذا العلم الشريف.



(١) انظر «مجموع الرسائل» (١/ ٢٥١ ـ ٢٥٥)



فصل في سيرة ابن تيمية الصوفية

عائلته الصوفية

تألهه وتصوفه

ثناء علماء الصوفية عليه

ثناؤه على أعيان الصوفية

أعيان الصوفية الذين نقدهم

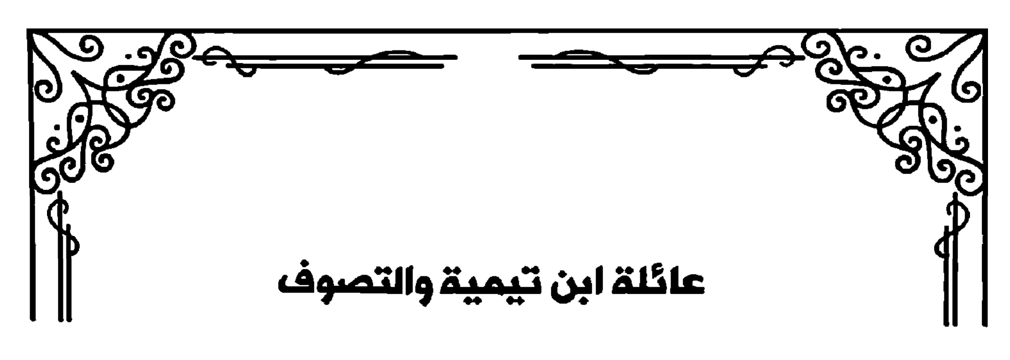
وصفه بأوصاف الصوفية العارفين

أصحابه المتصوفون

منزلته في المجتمع الصوفي

مرقده الأخير في مقبرة الصوفية

* * *



عائلة ابن تيمية والتصوف

نشأ ابن تيمية في بيت علم وصلاح ودين، وكان التصوف أحد المميزات البارزة لهذه الأسرة العريقة، إضافة إلى التبحر في العلوم والمعارف.

وقد وصف التاج السبكي هذا البيت بـ «بيت الفضل والخير والدين». [1]

وذلك ابتداء من أصله الأول، والده الإمام العلامة المحقق عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية أبو محمد شهاب الدين الحراني الحنبلي.

كان فقيهاً فاضلاً، قدم دمشق بعد استيلاء التتار على حران، واستوطنها إلى أن توفي بها، ودفن بمقابر الصوفية، وقد نيف على الستين رحمه الله وهو من بيت العلم، والحديث، والديانة، وله شهرة ببلده، وكان والده مجد الدين عبد السلام من الأعيان، وكذلك غير واحد من أهل بيته رحمهم الله تعالى. [2]

قال الذهبي: «كان إماماً محققاً، كثير الفنون، له يد طولى في الفرائض، والحساب، والهيئة، ديِّناً، متواضعاً، حسن الأخلاق، جواداً، من حسنات العصر، تفقه عليه ولداه أبو العباس وأبو محمد، وحدثنا عنه على المنبر ولده، وكان قدومه إلى دمشق بأهله وأقاربه، مهاجراً سنة سبع وستين، وكان من أنجم الهدى، وإنما اختفى من نور القمر وضوء الشمس».

---

(١) «معجم الشيوخ» للسبكي (ص ٢١٤)

(٢) «مرآة الزمان»(٤/ ١٨٦)

يشير إلى أبيه وابنه.[1]

وكان عبد الله أخو ابن تيمية إماماً عالماً محققاً متصوفاً، صاحب صدق وإخلاص، قانعاً باليسير، شريف النفس، شجاعاً، مقداماً، مجاهداً، زاهداً، ورعاً، عابداً، يخرج من بيته ليلاً ويأوي إليه نهاراً، ولا يجلس في مكان معين بحيث يقصد فيه، لكنه يأوي المساجد المهجورة خارج البلد، فيختلي فيها للصلاة، والذكر.

وكان كثير العبادة، والتأله، والمراقبة، والخوف من الله تعالى، صاحب كرامات ومكاشفات، كما نقله ابن رجب، وغيره، وكثير الصدقات والإيثار بالذهب والفضة في حضره وسفره، مع فقره وقلة ذات يده، وكان رفيقه في المحمل في الحج يفتش رحله فلا يجد فيه شيئاً، ثم يراه يتصدق بذهب كثير جداً، وهذا أمر مشهور معروف عنه.

وحج مرات متعددة، وكان له يد طولى في معرفة تراجم السلف ووفياتهم في التواريخ المتقدمة والمتأخرة، وجلس مع أخيه الشيخ تقي الدين مدة في الديار المصرية، وقد استدعي غير مرة وحده للمناظرة، فناظر وأفحم الخصوم، وسئل عنه الشيخ كمال الدين بن الزملكاني، فقال: هو بارع في فنون عديدة، من الفقه، والنحو، والأصول، ملازم لأنواع الخير، وتعليم العلم، حسن العبارة، قوي في دينه، مليح البحث، صحيح الذهن، قوي الفهم.

صلى عليه أخواه تقي الدين، وعبد الرحمن، وغيرهما، ثم صلي عليه مرة ثالثة ورابعة، وحمل على الرؤوس والأصابع، فدفن في مقابر الصوفية.[2]

---

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (٤/ ١٨٧)، «شذرات الذهب» (٧/ ٦٥٧)

(٢) «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٤٦٨)، «ذيل طبقات الحنابلة» (٤/ ٤٧٨)، «الوافي بالوفيات» (١٧/ ١٢٦)، «أعوان النصر» (٢/ ٦٩٣)، «شذرات الذهب» (٨/ ١٣٧)

وأما أخوه عبد الرحمن[1] المشار إليه فقد كان هو الآخر مثالاً للصوفي العابد المجاهد الصالح القانت، أجمع كل من ترجم له على تألهه، وتزهده، ومجاهداته.

قال فيه التاج السبكي: «رجل مبارك، من بيت الفضل والخير والدين واشتغل هو بالكسب والتجارة، وسافر في ذلك، وهو مشهور بالديانة والأمانة، وحسن السيرة، وصلاح السريرة». [2]

ويقول الحافظ ابن حجر: «وهو خيِّر، ديِّن، حبس نفسه مع أخيه بالإسكندرية، وبدمشق محبة له، وإيثاراً لخدمته، ولم يزل عنده ملازماً معه للتلاوة والعبادة إلى أن مات الشيخ، وخرج هو، وكان مشهورا بالديانة، والأمانة، وحسن السيرة، وله فضيلة، ومعرفة». [3]

وممن دفن في مقابر الصوفية من أخوة ابن تيمية أبو القاسم بن محمد بن خالد بن إبراهيم، الحراني، الفقيه التاجر، بدر الدين، وهو أخو ابن تيمية من أمه، دفن من يومه بمقابر الصوفية عند والدته. [4]

هكذا في ترجمته، وفيه أن والدة ابن تيمية رحمها الله هي الأخرى دفنت إلى جانب السادة الصوفية، وهو ما يدل على تجذر التصوف في هذه الأسرة الكريمة، من منبعيها وأصليها.

وفيه إشارة أيضاً إلى تصوف أخوال ابن تيمية وأقارب أمه، وهو ما أشير إليه

---

(١) انظر «الدرر الكامنة» (٣/ ١١٨)

(٢) «معجم الشيوخ» (ص ٢١٤)

(٣) «الدرر الكامنة» (٣/ ١١٨)

(٤) «ذيل طبقات الحنابلة»(٤/ ٤٢٤)

في ترجمة خاله علي بن عبد الرحمن بن علي بن عبد الرحمن بن علي بن عبدوس، الشيخ أبي الحسن ابن الحلاوي الحراني.

فقد كان زاهداً صوفياً.

قال فيه الذهبي: «الزاهد، الصوفي، خال شيخنا ابن تيمية».

وقال: «صحب المشايخ، وتجرد، وسافر، ولقي الكبار، وحفظ عنهم كثيرا من أخبار الصوفية وآدابهم، وأنفق ماله في وجوه الخير، واختل عقله مرة من الذكر والعبادة، وعولج، ثم تماثل، وكان مقيماً بالخانكاه الأسدية».[1]

والخانكاه، هي زاوية أو دويرة الصوفية.

ومن عائلة ابن تيمية المشهورين بالتصوف محمد بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله، الإمام فخر الدين أبو عبد الله ابن تيمية، الحراني الفقيه الحنبلي الواعظ المفسر، صاحب الخطب، شيخ حران وعالمها.

وهو تلميذ العالم الصوفي سعد الله بن نصر الدجاجي، وسمع أيضاً من إمام الصوفية أبي نجيب السهروردي.[2]

وممن دفن في مقابر الصوفية عبد اللطيف بن عبد العزيز ابن الشيخ مجد الدين عبد السلام بن عبد الله، ابن تيمية، الخطيب، العدل، نجم الدين الحراني، الحنبلي.

قال الذهبي: «دفن بمقابر الصوفية إلى جانب عمه الإمام شهاب الدين ابن تيمية».[3]

---

(١) «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٩٢٠)

(٢) «تاريخ الإسلام» (١٣/ ٧٢٣)

(٣) «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٩١٧)

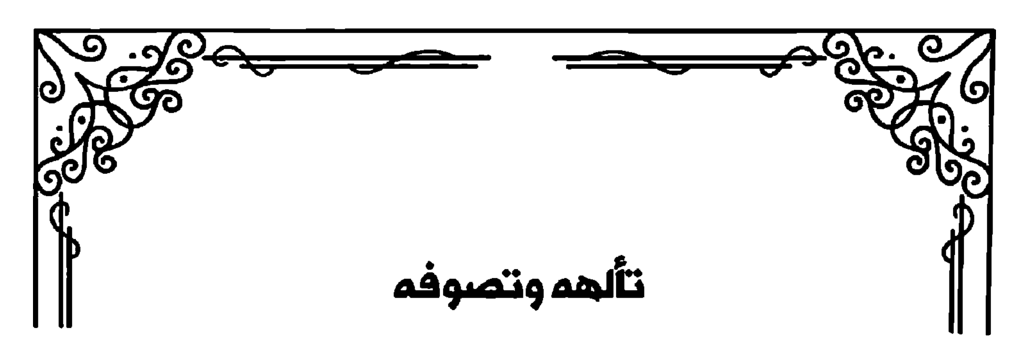
ومنهم أبو القاسم بن عبد الغني بن محمد بن الخضر ابن تيمية الحراني، قال الذهبي وابن كثير: «دفن بمقابر الصوفية».[1]

فهـذه أسـرة ابـن تيميـة أو بعضها، ممن وقـع لي في كتـب التراجـم، دفنوا في مقابـر الصوفيـة، وعاشـوا متصوفين متنسـكين، ولو لـم نقف إلا على هـذا الجانب العائلـي لـكان كافيـاً لندرك مـدى تأثير التصـوف في شـخصية هذا الإمـام، ودوره في بناء شـخصيته.

* * *

---

(١) «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٣٣٣)، «البداية والنهاية» (١٧/ ٥٠٧)



تألهه وتصوفه

لا شك أن للنشأة وللأسرة أثرها في بناء الإنسان، وقد كان لهذا الجانب الروحي الصوفي الأسري الذي تميزت به عائلة ابن تيمية أثره الظاهر على شخصيته وسلوكه.

وقد أجمع كل من ترجم له على أنه كان فريداً في تألهه وزهده وعبادته وانقطاعه إلى الله وإعراضه عن الدنيا، وأنه كان كثير المناجاة والتبتل، قوي الإيمان، شديد الثقة بالخالق الديان، وهو الأمر الذي أورثه شجاعة مفرطة، كما شهد له بذلك خصومه قبل مريديه ومحبيه.

وصفه الحافظ ابن رجب بقوله: «له يد طولى في الكلام على المعارف والأحوال». [1]

ومن أبرز ملامح التصوف لدى ابن تيمية إدمان الذكر الذي انفرد به السادة الصوفية عن الفقهاء والمحدثين، وغيرهم، وقد أخذ منه ابن تيمية ما أخذه أئمة الصوفية السابقين.

يقول ابن القيم: «حضرت شيخ الاسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلي وقال: «هذه

---

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (٤/ ٥٠١)

غدوتي، ولو لم أتغذ الغداء سقطت قوتي».

ونقل عنه أنه قال له مرةً: «لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر».

وكان يقول: «الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء». [1]

إنها روح صوفية، وليست بروح فقيه ولا محدث، مع أنه كان في الفقه والحديث إماماً مقدماً، كما هو شأنه في التصوف.

وفي هذا السياق يصف الحافظ الذهبي شيئاً من أحواله وطريقته في التصوف، فيقول: «وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة، فينجيه الله، فإنه دائم الابتهال، كثير الاستغاثة، والاستعانة به، قوي التوكل، ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يدمنها بكيفية وجمعية». [2]

وقد أفاض الأئمة في ترجمة هذا العالم الجليل، ونقل كل منهم جوانب من تصوفه وتألهه، ولعلنا إذا ذهبنا ننبش كتب التاريخ لنثبت هنا ما سجلوه سيطول بنا المقام، ولكننا لن نخلي هذا الكتاب من الإشارة إلى شيء من الجانب الإلهي الصوفي في حياة العالم الذي غيبت نزاعاته مع الفقهاء والمتكلمين هذا الجانب الروحي المشرق من حياته.

هذا الجانب الروحي الذي حول حياة ابن تيمية في أحلك الظروف وأقساها إلى جنة نعيم يتمتع بها بين نكد الحياة وضنك العيش فيها.

---

(١) انظر «الوابل الصيب» (ص٤٢)

(٢) «ذيل طبقات الحنابلة» (٤/ ٥٠٦)

لقد زُجَّ به في أقبية السجون التي يضيق فيه الرحب الواسع، ولكنه كان خبيراً بما يصيرها أكثر رحابة وسعة، فقد كان يلجأ بالدرجة الأولى إلى تلاوة القرآن والإكثار منه، حتى أنه ختم في سجن القلعة ثمانين ختمة.

قال ابن كثير: «كنت فيمن حضر هناك مع شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزي رحمه الله تعالى، وكشفت عن وجه الشيخ، ونظرت اليه، وقبلته، وعلى رأسه عمامة بعذبة مغروزة، وقد علاه الشيب أكثر مما فارقناه، وأخبر الحاضرين أخوه زين الدين عبد الرحمن أنه قرأ هو والشيخ منذ دخلا القلعة ثمانين ختمة، وشرعا في الحادية والثمانين، فانتهيا فيها الى آخر ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ و﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ فشرع عند ذلك الشيخان الصالحان الخيران عبد الله بن المحب، وعبد الله الزرعي الضرير، وكان الشيخ رحمه الله يحب قراءتهما، فابتدآ من أول سورة الرحمن، حتى ختما القرآن، وأنا حاضر، أسمع، وأرى». [1]

والقرآن وحده كاف لتحويل حياة هذا السجين إلى ربيع مزهر باسم، كما قال رسول الله ﷺ: «ما قال عبد قط إذا أصابه هم وحزن: اللهم إني عبدك، وابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله عز وجل همه، وأبدله مكان حزنه فرحاً». [2]

ولهذا كان يقول: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة».

---

(١) انظر «الرد الوافر»(ص١٥٦)

(٢) أخرجه أحمد (رقم ٣٧١٢)، من حديث عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه.

ويحكي ابن القيم أنه قال له ذات مرة: «ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة».

وكان يقول في محبسه في القلعة: «لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة».

أو قال: «ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير، ونحو هذا».

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: «اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك، ما شاء الله».

وقال ذات مرة مخاطباً تلميذه ابن القيم المسجون معه: «المحبوس من حُبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه».

ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه، وتلا قوله تعالى ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾.

هذا الروح المتدفقة إيمانا وثقة بالخالق العظيم جديرة بأن تفيض بالثقة والشجاعة ورباط القلب على الخائف المحزون، وتبدل أحزانه إلى سعادة لا يمكن لمن لم يذقها أن يستوعبها.

نلمس هذا جلياً في كلام تلميذه ابن القيم الذي صحبه في أعسر لحظات حياته، يقول:

«وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق،

وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه».

وأضاف ابن القيم قائلاً: «وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحاً، وقوة، ويقيناً، وطمأنينة».

ثم يعلق ابن القيم قائلاً: «فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

وكان بعض العارفين يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

وقال آخر: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها؟ قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى، ومعرفته، وذكره.

أو نحو هذا.

وقال آخر: إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً.

وقال آخر: إنه لتمر بي أوقات أقول إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب». [1]

وكان كثيرا ما ينشد:

تمــوتُ النفــوسُ بأوصابهــا ولــم تشــكُ عُوّادهــا مــا بهــا

---

(١) «الوابل الصيب» (ص٤٨)، «مدارج السالكين» (١/ ٤٥٢)

وما أنصفت مُهجةٌ تشتكي أذاها إلى غير أحبابها

ومن نظمه على لسان الفقراء الصوفية المُجردين وغيرهم:

واللهِ ما فَقرُنا اختيارُ وإنما فَقرُنا اضطِرارُ

جماعةٌ كلُّنا كَسالى وأكلُنا كله عيارُ

تسمعُ منّا إذا اجتمعنا حقيقةً كُلُّها فُشَارُ[1]

وكان يكثر أن يقول:

أنا المُكدِّي وابن المُكدي وهكذا كان أبي وجدِّي

قلت: ومن له معرفة بأشعار الصوفية، علم أن هذا الشعر ليس بشعر أديب، ولا بشعر فقيه، بل شعر صوفي عارف.

وكان يقول: «بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين».

وكان يقول: «لا بد للسالك الى الله من همة تسيره وترقيه، وعلم يبصره ويهديه».

وقال: «العارف يسير الى الله عز وجل بين مشاهدة المنة، ومطالعة عيب النفس».

وكان يقول: «العارف لا يرى له على أحد حقاً، ولا يشهد على غيره فضلاً، ولذلك لا يعاتب، ولا يطالب، ولا يضارب».[2]

---

(١) انظر «أعوان النصر» (١ ٢٤٦)، «الوافي بالوفيات» (١٧/ ١٩)، «الدرر الكامنة» (١/ ١٧٥)

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٩)

كان يتمثل كثيراً:

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذْ عَوَى ... وصوَّت إنسانٌ فكدتُ أطيرُ

وكان يتمثل أيضاً:

وأخرجُ مِنْ بينِ البيوتِ لعلَّني ... أُحَدِّثُ عنكَ النفسَ في السِّرِّ خَاليًا[1]

ومن شعره الروحاني الصوفي رضي الله عنه:

أنا الفقيرُ إلى ربِّ البريَّاتِ ... أنا المُسيكينُ في مجموعِ حَالاتي

أنا الظلومُ لنفسي وَهْيَ ظالمتي ... والخيرُ إنْ يأتِنا مِنْ عندِهِ ياتي

لا أستطيعُ لنفسي جَلْبَ منفعةٍ ... ولا عَنِ النفسِ لِيْ دفعَ المضرَّاتِ

وليسَ لِيْ دونَهُ مَولى يُدبِّرُني ... ولا شفيعٌ إذا حاطتْ خطيئاتي

إلا بإذنٍ من الرحمنِ خالقِنا ... إلى الشفيعِ كما جاءَ في الآياتِ

ولستُ أملكُ شيئاً دونَهُ أبداً ... ولا شريكٌ أنا في بعضِ ذرَّاتِ

ولا ظهيرٌ له كي يستعينَ بهِ ... كما يكونُ لأربابِ الولاياتِ

والفقرُ لي وصفُ ذاتٍ لازمٌ أبداً ... كما الغنى أبداً وصفٌ له ذاتي

وَهذهِ الحَالُ حَالُ الخَلقِ أجمَعِهِمْ ... وَكلُّهُم عِندهُ عَبدٌ لَهُ آتي

فمَنْ بَغَى مَطْلَبا مِنْ غيرِ خالِقِهِ ... فهوَ الجهولُ الظلومُ المشركُ العاتي

والحمدُ للهِ ملءَ الكونِ أجمَعِهِ ... مَا كَانَ منْهُ وما مِنْ بَعْدُ قَدْ ياتي[2]

---

(١) انظر «الوابل الصيب» (ص٧)، «الرد الوافر» (ص ٦٩)

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١)

ونقل عنه ابن القيم أنه قسم «الغنى العالي» على ثلاث درجات:

الدرجة الأُولى: غنى القلب، وهو سلامته من السبب، ومسالمته للحكم، وخلاصه من الخصومة.

والدرجة الثانية: غنى النفس، وهو استقامتها على المرغوب، وسلامتها من الحظوظ، وبراءَتها من المراءَاة.

والدرجة الثالثة: الغنى الحق وهو ثلاث مراتب:

الأُولى شهود ذكره إياك.

والثانية: دوام مطالعة أَوليته.

والثالثة: الفوز بوجوده.[1]

وفي سيرته تطابق لافت مع بعض كلمات ومواقف أئمة التصوف التي ربما استنكرها بعض من يدعي التسنن.

فقد أثر عن جماعة من أئمة الصوفية أنهم أعلنوا تجديد إسلامهم، كما نقل عن أبي القاسم النصراباذي، وأبي عثمان المغربي، وبعضها علق عليها ابن تيمية في كتاب «الاستقامة».

فقال فيما روي عن أبي القاسم النصراباذي: «لعله كان عنده بعض شبهة أو رأي فاسد في خلقها كما يعرض مثل ذلك لبعض الناس».[2]

وقد كان ابن تيمية إذا أُثني عليه في وجهه يقول: «والله إني إلى الآن أجدد

---

(١) انظر «طريق الهجرتين» (ص٣٤)

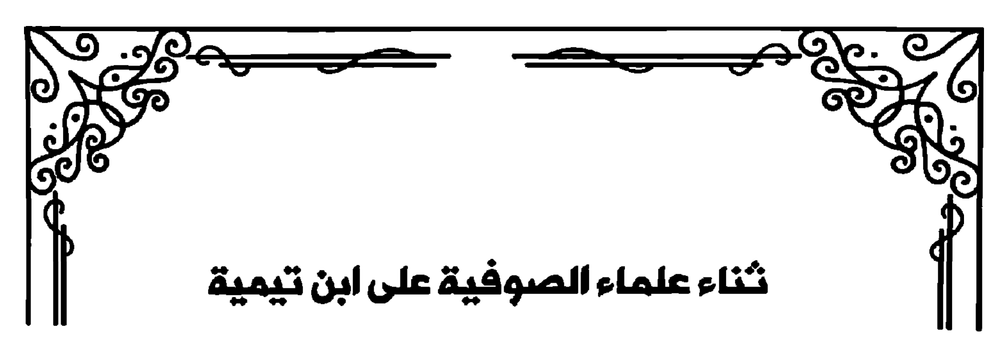
(٢) «الاستقامة» (١/ ١٨٤)

إسـلامي كل وقت، وما أسـلمت بعد إسـلاما جيدا». [1]

وهـو تطابـق عجيـب، يـدل علـى أن ابـن تيميـة كان شـديد التأثـر بالصوفيـة والتصـوف.

* * *

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٠)



ثناء علماء الصوفية على ابن تيمية

رغم خروج ابن تيمية عن أهل العلم في العديد من المسائل التي حُكي فيها الإجماع، ورغم خلافه الشديد مع كثير من الأئمة المتبوعين المعتبرين الذين لهم لسان صدق وقبول وإجلال وتقدير لدى جميع العلماء، حتى وصل الحال بالبعض منهم إلى تكفيره، إلا أن كثيراً من علماء الصوفية ظل مقدراً له شديد الإعجاب بعلمه الزاخر، وورعه النادر، وزهده في الحياة وتبتله وتألهه الذي انفرد به.

حتى وصفه بعضهم ـ كابن الزملكاني ـ بـ «**العارف**».

وهو من أجل مراتب الصوفية.

ويحكي الحافظ ابن رجب أن الأئمة العارفين كانوا يبالغون في تعظيمه. [١]

ويحسن أن نستعرض بعض مواقف العلماء الذين لهم علاقة متينة بالتصوف لننظر كيف كانوا يرون ابن تيمية.

ابن دقيق العيد

فقد أثنى عليه الإمام المجتهد الأوحد شيخ شيوخ الإسلام ابن دقيق العيد.

ومما قاله فيه بعدما سمعه: «ما كنت أظن أن الله بقي يخلق مثله». [٢]

---

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (٤/ ٥٠٤)

(٢) انظر «الرد الوافر»(ص١٠٨)

ولا تخفى منزلة ابن دقيق العيد في التصوف، فقد كان معظماً معتقداً لهم، وكيف لا وهو أجل تلاميذ الإمام الصوفي الكبير العارف عز الدين بن عبد السلام.

وكان يقول في أبي الحسن الشاذلي: «ما رأيت أعرف بالله من الشاذلي». [1]

وقد ترجم له العلامة المناوي في «طبقات الصوفية»، ومما قاله فيه: «كان مبرزاً في المدارك النظرية، والأثرية، والمسالك الصوفية، والحقيقية، زكياً غواصاً على المعاني». [2]

عفيف الدين اليافعي

ويكفي ابن تيمية تصوفاً أن يثني عليه مثل الإمام الصوفي العارف الكبير عبد الله بن أسعد اليافعي، فإنه أحد أقطاب وأولياء الصوفية العظماء، فقد وصفه بـ «الشيخ، الإمام، العلامة»، و«الإمام الكبير»، و«الشيخ، الحافظ، الكبير». [3]

تقي الدين السبكي

وقال فيه العلامة الإمام قاضي القضاة تقي الدين السبكي: «فالمملوك يتحقق أن قدره وزخارة بحره وتوسعته في العلوم الشرعية والعقلية وفرط ذكائه واجتهاده بلغ من ذلك كل المبلغ الذي يتجاوزه الوصف، والمملوك يقول ذلك دائماً، وقدره في نفسي أكثر من ذلك وأجل، مع ما جمعه الله تعالى من الزهادة، والورع، والديانة، ونصرة الحق، والقيام فيه لا لغرض سواه، وجريه على سنن السلف

---

(١) «شذرات الذهب» (٧/ ٤٨٢)، «حسن المحاضرة» (١/ ٥٢٠)، «الطبقات الكبرى» للشعراني (٢/ ٤)

(٢) «طبقات الصوفية» للمناوي (٣/ ٧٩)

(٣) «مرآة الجنان» (٤/ ٢٠٩)

وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى وغرابة مثله في هذا الزمان، بل في أزمان».[1]

وكان الإمام السبكي صوفياً، تلقى التصوف على الطريقة الشاذلية، كما هو معروف.

قال ابن قاضي شهبة في ترجمته: «صحب في التصوف الشيخ تاج الدين بن عطاء».[2]

ابن الزملكاني

من ذلك ما كتبه الإمام كمال الدين بن الزملكاني على كتاب «رفع الملام عن الأئمة الأعلام»، ولفظه: تأليف الشيخ، الإمام، العالم، العلامة، الأوحد، الحافظ، المجتهد، الزاهد، العابد، القدوة، إمام الأئمة، قدوة الأمة، علامة العلماء، وارث الأنبياء، آخر المجتهدين، أوحد علماء الدين، بركة الإسلام، حجة الإسلام، حجة الأعلام، برهان المتكلمين، قامع المبتدعين، محي السنة، ومن عظمت به لله علينا المنة، وقامت به على أعدائه الحجة، واستبانت ببركته وهديه المحجة، تقي الدين بن تيمية».

ثم قال:

مـاذا يقـولُ الواصـفـونَ لَـهُ ... وصفاتُهُ جَلَّـتْ عَـنِ الحَصْـرِ

هُـوَ حُـجَّـةٌ للهِ قـاهـرةٌ ... هُوَ بيننـا أعجوبـةُ الدهْـرِ

هُـوَ آيـةٌ للحـقِ ظـاهـرةٌ ... أنوارُها أربتْ علـى الفجـرِ[3]

---

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (٤/ ٥٠٣)، «الدرر الكامنة» (١/ ١٨٦)، «المقصد الأرشد» (١/ ١٣٦)، «الرد الوافر» (ص٩٧)، «شذرات الذهب» (٨/ ١٤٦)

(٢) «طبقات الشافعية» (٣/ ٣٨)

(٣) «المنهل الصافي» (١/ ٣٦١)

قال ابن الوردي: « تنقص مرة بعض الناس من ابن تيمية عند قاضي القضاة كمال الدين بن الزملكاني وهو بحلب وأنا حاضر، فقال كمال الدين: ومن يكون مثل الشيخ تقي الدين في زهده وصبره وشجاعته وكرمه وعلومه، والله لولا تعرضه للسلف لزاحمهم بالمناكب». [1]

ومما كتبه ابن الزملكاني على كتاب «بيان الدليل على بطلان التحليل»: «من مصنفات سيدنا، وشيخنا، وقدوتنا، الشيخ، الإمام، العالم، العلامة، الأوحد، البارع، الحافظ، الزاهد، الورع، القدوة، الكامل، العارف، تقي الدين، شيخ الإسلام، سيد العلماء، قدوة الأئمة الفضلاء، ناصر السنة، قامع البدعة، حجة الله على العباد، راد أهل الزيغ والعناد، أوحد العلماء العاملين، آخر المجتهدين، أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله ابن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني، حفظ الله على المسلمين طول حياته، وأعاد عليهم من بركاته، إنه على كل شيء قدير». [2]

وكان ابن الزملكاني عالماً، متبحراً، وصوفياً، عارفاً، من المعظمين للشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي، ومن كلامه في ابن عربي، قوله: «كان الشيخ ابن عربي بحرا زاخراً في المعارف الإلهية». [3]

ويقال إن ابن الزملكاني قد غيَّر رأيه في ابن تيمية، وأن مدائحه هذه إنما كانت قبل ظهور آراء ابن تيمية التي شذ فيها. [4]

---

(١) «تاريخ ابن الوردي»(٢/ ٢٧٩)

(٢) «الرد الوافر» (ص١٠٥)

(٣) انظر «عين الحياة» لأبي الفتح البكري (ص٢٩)

(٤) انظر «الدرر الكامنة» (١/ ١٧٥)

والجواب عنه من وجهين:

الأول: أن تغيّر ابن الزملكاني - إن ثبت - إنما هو لمسائل محدودة، ومعروفة، ولا علاقة لها بالتصوف.

والثاني: أن المسائل التي أخذت على ابن تيمية قد تراجع عن رأيه فيها، وهي ما يتعلق بالجهة، وبعض مسائل علم الكلام، والاستغاثة، وهي التي أوجبت على بعض العلماء اتخاذ موقف قاس منه، ومتى ما تراجع عنها فقد عادت إليه مكانته العليا عند العلماء والأئمة وبقي حقيقياً بتلك المدائح التي قل أن نراها في تراجم العلماء.

أما عودته إلى مذهب أهل السنة الأشاعرة فقد نقله الحافظ ابن حجر في «الدرر الكامنة». [1]

وأما تراجعه عن رأيه في مسألة الاستغاثة فقد نقله عنه جلٌّ من ترجم له من تلاميذه وغيرهم. [2]

---

(١) قال الحافظ ابن حجر: «فأخرج في ربيع الأول في الثالث وعشرين منه، وأُحضر إلى القلعة، ووقع البحث مع بعض الفقهاء، فكتب عليه محضر بأنه قال: أنا أشعري. ثم وُجد خطه بما نصه: الذي اعتقد أن القرآن معنى قائم بذات الله، وهو صفة من صفات ذاته القديمة، وهو غير مخلوق، وليس بحرف، ولا صوت، وأن قوله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ ليس على ظاهره، ولا أعلم كنه المراد به، بل لا يعلمه إلا الله، والقول في النزول كالقول في الاستواء، وكتبه أحمد بن تيمية. ثم أشهدوا عليه أنه تاب مما ينافي ذلك مختاراً، وذلك في خامس عشر ربيع الأول سنة ٧٠٧ وشهد عليه بذلك جمع جم من العلماء وغيرهم، وسكن الحال وأُفرج عنه، وسكن القاهرة». «الدرر الكامنة» (١/ ١٧٢/ ١٧٣)

(٢) انظر «البداية والنهاية» (١٨/ ٧٤)، «العقود الدرية» لابن عبد الهادي (ص٢٨٦)، ذيل طبقات الحنابلة» (٤/ ٥١٥)، «الدرر الكامنة» (١/ ١٧٣)

علاء الدين القونوي

قد تعجب بعدما علمت موقف ابن تيمية من ابن عربي والتصوف الفلسفي عندما تسمع أن عالماً صوفياً شديد الصلة بهذا النوع من التصوف كان يذود عن ابن تيمية ويحبه ويعظمه ويدافع عنه.

إنه العالم الكبير الإمام الفرد علاء الدين القونوي الفقيه الشافعي المفسر صاحب كتاب «التصرف في شرح التعرف»، وهو شرح كتاب «التعرف لمعرفة التصوف» للكلاباذي.

كان القونوي صوفياً كبيراً، يلازم لبس العمامة الصوفية، وكان يميل إلى الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، مع أن له تصانيف في الرد على الاتحادية.

قال فيه الحافظ ابن حجر: «تقدم علاء الدين المذكور في معرفة التفسير، والفقه، والأصول، والتصوف».[1]

وكان أيضاً معظماً لابن تيمية، ويرى أن الناقمين عليه لم يرتقوا إلى فهم كلامه.

في «الدرر الكامنة» للحافظ ابن حجر: «ولما خرج ابن قيم الجوزية من القلعة أتاه، فبش به وأكرمه، ووصله، وكان يثني على بحوثه، وحضر عنده ابن جملة فحط على ابن تيمية، فقال القونوي بالتركي: هذا ما يفهم كلام الشيخ تقي الدين».[2]

---

(١) «الدرر الكامنة» (٤/ ٢٩)

(٢) «الدرر الكامنة»(٤/ ٢٩ ـ ٣٢)

بهاء الدين أبو البقاء محمد بن عبد البر السبكي

قال الذهبي: «إمام، متبحر، مناظر، بصير العلم، محكم للعربية، مع الدين، والتقى، والتصوف». [1]

كان يقول: «لا يبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى».

ويحلف على ذلك. [2]

محمد بن طغريل ابن الصيرفي

الإمام الناسك العابد.

وصفه الذهبي وابن ناصر الدين الدمشقي بـ «المتصوف».

وكان يثني على ابن تيمية ويصفه بـ «سيدنا، الشيخ، الإمام، العلامة، الصدر الكبير، الكامل، القدوة، الحافظ، الزاهد، العابد، الورع، شيخ الاسلام، مفتي الفرق، حجة المذهب، مقتدى الطوائف، لسان الشريعة، مجتهد العصر، وحيد الدهر، إمام الائمة». [3]

ابن شيخ الحزاميين

وأما الإمام عماد الدين ابن شيخ الحزاميين الصوفي الكبير فقد كان من المعظمين له، وكان يراه من أئمة الصوفية الجامعين بين علوم الظاهر وأسرار الباطن، حيث وصفه بـ «الجامع بين الظاهر والباطن». [4]

---

(١) «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (٣/ ١٢٨)

(٢) انظر «الرد الوافر» (ص٥٦، ٩٦)

(٣) انظر «المعجم المختص بالمحدثين» للذهبي (ص٢٣٤)، «الرد الوافر» (ص٨٩)

(٤) انظر «العقود الدرية» (ص٢٣٧)

وهي شهادة غالية من عارف بالله، وشيخ الصوفية بلا منازع.

يقول الحافظ ابن رجب: «والشيخ عماد الدين الواسطي كان يعظمه جداً، وتتلمذ له، مع أنه كان أسن منه، وكان يقول: قد شارف مقام الأئمة الكبار، ويناسب قيامه في بعض الأمور الصديقيين.

وكتب رسالة إلى خواص أصحاب الشيخ يوصيهم بتعظيمه واحترامه، ويعرفهم حقوقه، ويذكر فيها أنه طاف أعيان بلاد الإسلام، ولم ير فيها مثل الشيخ علماً، وعملاً، وحالاً، وخلقاً، واتباعاً، وكرماً، وحلماً، في حق نفسه، وقياماً في حق الله تعالى، عند انتهاك حرماته، وأقسم على ذلك بالله ثلاث مرات.

ثم قال: أصدق الناس عقداً، وأصحهم علماً وعزماً، وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه، وأسخاهم كفا، وأكملهم اتباعاً لنبيه محمد ﷺ ما رأينا في عصرنا هذا من تستجلي النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل، بحيث يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الاتباع حقيقة، ولكن كان هو وجماعة من خواص أصحابه ربما أنكروا من الشيخ كلامه في بعض الأئمة الأكابر الأعيان، أو في أهل التخلي والانقطاع ونحو ذلك». [١]

السيوطي

من علماء الصوفية الذين بالغوا في الثناء عليه الحافظ جلال الدين السيوطي

ومما قاله: «الشيخ، الإمام، العلامة، الحافظ، الناقد، الفقيه، المجتهد، المفسر، البارع، شيخ الإسلام، علم الزهاد، نادرة العصر، تقي الدين أبو العباس أحمد بن

---

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (٤/ ٥٠٤ـ ٥٠٥)

المفتي شهاب الدين عبد الحليم، ابن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني أحد الأعلام... وعني بالحديث، وخرَّج، وانتقى، وبرع في الرجال، وعلل الحديث، وفقهه، وفي علوم الإسلام، وعلم الكلام، وغير ذلك، وكان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين والزهاد والأفراد».[١]

القاضي ابن مجلي

القاضي الصدر الرئيس، رئيس الكتاب، شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب بن جمال الدين فضل الله بن مجلي القرشي، العدوي.

قال ابن كثير: « كانت له عقيدة حسنة في العلماء، ولا سيما في ابن تيمية وفي الصلحاء». [٢]

القسطلاني

ومن علماء الصوفية الذين أكثروا الاستشهاد بكلام ابن تيمية والنقل عنه الإمام العلامة العارف شهاب الدين القسطلاني، صاحب «إرشاد الساري». [٣]

الكوراني

وممن أثنى عليه وبالغ في مدحه والذب عنه الإمام المحقق العالم المجتهد المسند العارف النسابة جامع أشتات العلوم الصوفي إبراهيم بن حسن

---

(١) «طبقات المفسرين» للسيوطي(ص٥٢٠)

(٢) «البداية والنهاية»(١٨/ ١٧٢)

(٣) انظر «إرشاد الساري» (٣/ ١٤٩، ١٥٠، ٤٦٣)(٥/ ٢٤٩)(٦/ ١١٧)(١٠/ ٤٧٢)، «المواهب اللدنية» (١/ ٣٣٣)(٢/ ١٠٣، ٢٥٩)(٣/ ٣٣٠)

الكوراني الشهرزوري الشهراني الشافعي، أحد الأئمة الصوفية النقشبندية.[1]

وهو من العلماء الذين رفضوا وصف ابن تيمية بالتجسيم، قال: «إن ابن تيمية ليس قائلاً بالتجسيم، فقد صرح بأن الله تعالى ليس جسماً، في رسالة تكلم فيها على حديث النزول».

وقال: «بل هو على مذهب السلف قائل بأن الله تعالى فوق العرش حقيقة، مع نفي اللوازم، ونقل عليه إجماع السلف، صرح به في الرسالة القدرية. انتهى».[2]

علي القاري

وممن أثنى عليه الإمام العلامة محقق الصوفية علي القاري، ووصفه هو وابن القيم بالولاية، ونفى عنهما التشبيه والتجسيم، ومما قاله فيهما: «ومن طالع شرح منازل السائرين لنديم الباري الشيخ عبد الله الأنصاري الحنبلي ـ قدس الله تعالى سره الجلي ـ وهو شيخ الإسلام عند الصوفية حال الإطلاق بالاتفاق، تبين له أنهما كانا من أهل السنة والجماعة، بل ومن أولياء هذه الأمة».[3]

ويا له من مقام عال، ويالها من شهادة له عالم صوفي محقق متبحر.

الألوسي

وأثنى عليه العلامة المفسر الصوفي شهاب الدين الألوسي، وأكثر من النقل عنه في «تفسيره» ووصفه بـ«شيخ الإسلام»، وهو من أشد المعجبين به.[4]

---

(١) انظر «سلك الدرر» للحسيني (١/ ٥)

(٢) نقله القاسمي في «تفسيره» (٥/ ٨٢ـ٨٣)

(٣) «مرقاة المفاتيح» (٧/ ٢/ ٧٧/ ٨)

(٤) انظر «روح المعاني» (١٢/ ٢٩٣)(١٥/ ٢٥٩، ٤٨٠)

فهذه نماذج من إشادات العلماء في ابن تيمية، ولكل منهم سبب ونسب في التصوف، ولم نرد الحصر أو الإحاطة، فإن قصد هذا يطول.

ويكفيه تعظيم تاج الدين الفزاري له.

يقول الذهبي: «كان الشيخ تاج الدين الفزاري، يبالغ في تعظيمه».[1]

ويقول الصفدي: «كان يخالف الشيخ تقي الدين بن تيمية في مسائل، وما تهاجرا قط، وكل منهما يحترم صاحبه إذا اجتمعا، ولما بلغته وفاته استرجع وشيع جنازته».[2]

والفزاري هو عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع بن ضياء العلامة الإمام مفتي الإسلام فقيه الشام، كما وصفه الصفدي، وكان أكبر من الإمام النووي وأذكى منه وأفقه منه نفسا وأقوى مناظرة، وله كتاب «كشف القناع في حل السماع».[3]

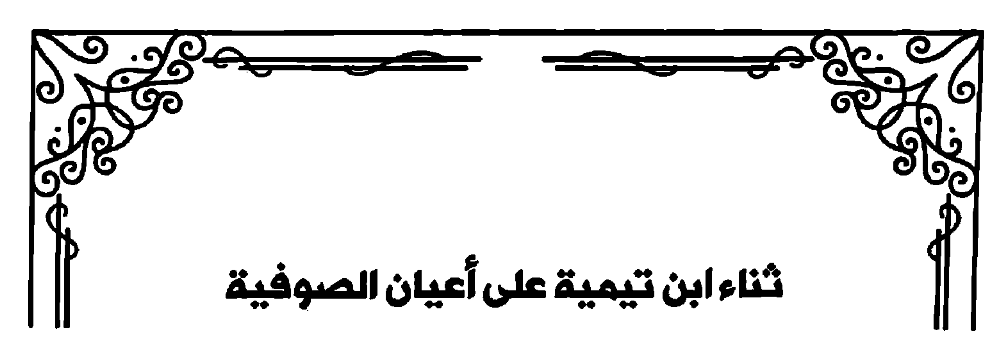
* * *

---

(١) «طبقات المفسرين» للداوودي (١/ ٤٨)

(٢) «أعيان العصر» (١/ ٨٦١)

(٣) انظر «الوافي بالوفيات» (١٨/ ٥٩)



ثناء ابن تيمية على أعيان الصوفية

من الطبيعي أن يطلق ابن تيمية لقلمه العنان للثناء على شيوخ الصوفية بعد أن علمت أن التصوف في نظره علم أصيل، وقد رأيت كيف يتفانى في الذب عنهم، وكيف حمل على عاتقه مهمة الدفاع عن التصوف، فكان بحق حارسه الأمين.

وأرباب العلوم هم أنجم الهدى الذين يهتدي بهم السائرون إلى الله، وهم بلا شك حريون بالثناء والتبجيل والإطراء.

وقد تقدم من كلام الشيخ تقي الدين ما هو بالغ الثناء على هذه الطائفة، غير أني أعيد وأذكر بكلمته البريقة التي يجب ألا تغيب عنا، إذ تختصر كل ما قاله هذا العالم الجليل في الصوفية.

يقول رحمه الله: «كان مشايخ الصوفية العارفون أهل الاستقامة يوصون كثيراً بمتابعة العلم ومتابعة الشرع، لأن كثيراً منهم سلكوا في العبادة لله مجرد محبة النفس وإراداتها وهواها، من غير اعتصام بالعلم الذي جاء به الكتاب والسنة، فضلوا بسبب ذلك ضلالا يشبه ضلال النصارى». [1]

وقال: «كان الشيوخ العارفون المستقيمون من مشايخ التصوف وغيرهم يأمرون أهل القلوب أرباب الزهد والعبادة والمعرفة والمكاشفة بلزوم الكتاب والسنة». [2]

---

(١) «منهاج السنة» (٥/ ٣٣١)

(٢) «الرد على المنطقيين» (ص٥١٤ ـ ٥١٥)

ومن أجلّ نصوصه رحمه الله في تزكيته للصوفية وشهادته لهم بشدة تمسكهم بالكتاب والسنة، قوله: «فالذين يتكلمون في الأمور الباطنة من الأعمال والعلوم لكن مع قولهم إنها توافق الظاهر، ومع اتفاقهم على أن من ادعى باطناً يناقض الظاهر فهو منافق زنديق، فهؤلاء هم المشهورون بالتصوف عند الأمة، وهم في ما يتكلمون فيه من الأعمال الباطنة وعلم الباطن يستدلون على ذلك بالأدلة الشرعية من الكتاب والسنة، كما يستدلون بذلك على الأعمال الظاهرة، وذلك في علم الدين والإسلام كما للإنسان بدن وقلب، وهؤلاء من أعظم الناس إنكاراً على من يخالف الظاهر ممن فيه نوع تجهم، دع الباطنية الدهرية، وهم أشد إيمانًا بما أخبر به الرسول ﷺ باطناً وظاهراً من غيرهم، وأشد تعظيما للأعمال الظاهرة مع الباطنة من غيرهم».[1]

من الصعوبة بمكان إحصاء المواضع التي نثر فيها ابن تيمية مدائحه وتزكياته على الصوفية، ولا نريد إثبات كل اسم من أسماء أئمة التصوف الذين ردد الثناء عليهم، وإنما نسلط الضوء على بعض ما قاله، لنستدل على ما غاب عنا، وليكون منارة أخرى من منائر التصوف عند هذا العالم الكبير.

يتميز ثناؤه على الصوفية بملاحظة الجانب الوجداني الروحي كما هي طبيعة هذا الفن، فيصفهم بالزهد والإمامة والمشيخة والدين والورع والسلوك والنسك، وغيرها من الألقاب الشريفة.

فمن أئمة التصوف الذين أغدق عليهم المدائح والثناء، إبراهيم بن أدهم، وأبو القاسم الجنيد، وإبراهيم الخواص، وذو النون المصري، وسهل بن عبد الله التستري،

---

(١) «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ١٦٩ ـ ١٧٠)

وأبو سليمان الداراني، وأحمد بن أبي الحواري، وبشر الحافي، وشقيق البلخي، واليونيني، وغيرهم من أئمة التصوف المتقدمين، وعدهم من مشايخ الإسلام وأئمة الهدى الذين جعل الله لهم لسان صدق.[1]

ونص على أن شيوخ الصوفية الذين ذكرهم السلمي في «طبقاته»، وأبو القاسم القشيري في «رسالته» على سيرة سوية على مذهب أهل السنة والجماعة، ومذهب أهل الحديث.

يقول: «والشيوخ الأكابر الذين ذكرهم أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية وأبو القاسم القشيري في الرسالة كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة ومذهب أهل الحديث، كالفضيل بن عياض والجنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله التستري، وعمرو بن عثمان المكي، وأبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي، وغيرهم، وكلامهم موجود في السنة، وصنفوا فيها الكتب، لكن بعض المتأخرين منهم كان على طريقة بعض أهل الكلام في بعض فروع العقائد، ولم يكن فيهم أحد على مذهب الفلاسفة».[2]

أبو يزيد البسطامي

أثنى ابن تيمية على أبي يزيد البسطامي في عدة مواضع من كتبه، فوصفه بالعلم والدين، وقال: «ولهذا قال أهل العلم والدين كأبي يزيد البسطامي وغيره».[3]

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٧٤)

(٢) «الصفدية» (١/ ٢٦٧)

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٦٦)

أحمد بن أبي الحواري

الإمام الصوفي الشهير.

قال فيه ابن تيمية: «إنه من أتبع المشايخ للسنة». [1]

وعده من أكبر الشيوخ الصالحين. [2]

سهل بن عبد الله التستري

وصفه ابن تيمية بـ «الإمام العظيم». [3]

الجنيد

أما ثناء ابن تيمية على الإمام الجنيد والتنويه بمكانته في العلم واتباع السنة والدين والزهد والورع وتحقيق العبودية فهو أشهر من نار على علم.

وكان يسميه «سيد الطائفة». [4]

ولا أجد ثناء أبلغ مما تقدم عن ابن تيمية حيث جزم بأن من سلك طريق الجنيد فقد نجا وسعد.

أبو عثمان النيسابوري

أبو عثمان هذا هو سعيد بن إسماعيل النيسابوري

---

(١) «الاستقامة» (٢/ ٩٥)

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» (١١/ ٥٦٩)

(٣) انظر «شرح حديث النزول» (ص١١٨)

(٤) انظر «الاستقامة» (٢/ ٨١)، «مجموع الفتاوى» (٥/ ٤٩١) (١١/ ١٨)، «منهاج السنة» (٥/ ٣٣٩)

مـن جلـة شـيوخ القـوم وعارفيهم، عـده مـن مشـايخ الصوفيـة العارفين أهل الاستقامة.[1]

قال: «وكان يقال: في الدنيا ثلاثة، لا رابع لهم: أبو عثمان النيسابوري بنيسابور، والجنيد ببغداد، وأبو عبد الله بن الجلا بالشام، وله كلام رفيع عال في التصوف والمعرفة، وكان شديد الوصية باتباع السنة، وتحكيمها ولزومها، ولما حضرته الوفاة مزق ابنه قميصا على نفسه، ففتح أبو عثمان عينيه، وهو في السياق. فقال: يا بني خلاف السنة في الظاهر، علامة رياء في الباطن».[2]

أبو علي الروذباري

قال ابن تيمية: «هو أجل المشايخ الذين صحبوا الجنيد».[3]

أبو الحسن بن سالم، شيخ الطريقة «السالمية»

وهو شيخ أبي طالب المكي، صاحب «قوت القلوب».

أثنـى عليـه ابـن تيمية وعلـى أتبـاع طريقته فقـال: «لهم مـن المعرفـة والعبادة والزهـد واتبـاع السـنة والجماعـة في عامة المسـائل المشـهورة لأهل السـنة ما هم معروفـون بـه، وهـم منتسـبون إلـى إماميـن عظيميـن فـي السـنة، الإمـام أحمد بن حنبـل، وسـهل بـن عبد الله التسـتري، ومنهـم من تفقـه على مذهب مالـك بن أنس كبيـت الشـيخ أبي محمـد وغيرهم، وفيهـم من هو علـى مذهب الشـافعي، فالذين ينتسـبون إليهـم، أو يعظمونهـم، ويقصـدون متابعتهـم، أئمـة هـدى، رضـوان الله

(١) انظر «منهاج السنة» (٥/ ٣٣١)

(٢) «مدارج السالكين»

(٣) «الاستقامة» (١/ ١١٤)

عليهم أجمعين، وهم في ذلك كأمثالهم من أهل السنة والجماعة».[1]

أبو طالب المكي

وأما أبو طالب المكي، فقد عده من مشايخ الإسلام وأئمة الهدى.[2]

وقال: «فإن أبا طالب أخبر بذوق الصوفية حالا، وأعلم بكلامهم وآثارهم سماعاً، وأكثر مباشرة لشيوخهم الأكابر».[3]

أبو عبد الرحمن السلمي

وأثنى ـ مراراً ـ على أبي عبد الرحمن السلمي، ووصفه بالعلم والفقه والدين، وعدَّ علمه بالتصوف إحدى أهم مناقبه، ومما قاله فيه: «كان الشيخ أبو عبد الرحمن رحمه الله فيه من الخير، والزهد، والدين، والتصوف، ما يحمله على أن يجمع من كلام الشيوخ والآثار التي توافق مقصوده كل ما يجده، فلهذا يوجد في كتبه من الآثار الصحيحة والكلام المنقول ما ينتفع به في الدين».[4]

معمر الأصبهاني

ووصف معمر الأصبهاني، بالإمام العارف، فقال: «الإمام العارف معمر بن أحمد الأصبهاني مفتي الصوفية العارفين».[5]

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٤٨٣)، «شرح حديث النزول» (ص١١٨)

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٧٤)

(٣) «شرح العقيدة الأصفهانية» (ص٢٠٠)

(٤) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٥٧٨)

(٥) «تلبيس الجهمية» (١/ ٢١٢)

حماد الدباس

وأثنى على العارف الكبير حماد الدباس، وذكره في المشايخ أهل الاستقامة.[1]

يقول الإمام اليافعي في حماد الدباس: «الشيخ الكبير، الولي الشهير، العارف بالله، الخبير ذو الكرامات الكريمات، والأحوال العظيمات، والمقامات العلية، والطريقة السنية، أبو عبد الله حماد بن مسلم الدباس، كان أمياً، وفتح عليه بالمعارف والأسرار، وصار قدوة للمشايخ الكبار، وكبرت به الأصاغر، وهو الشيخ الذي خضعت له رقاب الشيوخ الأكابر محيي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلاني ـ رضي الله تعالى عنهم، ونفعنا بهم آمين ـ ولكل واحد من الكرامات ما لا يسعه إلا مجلدات».[2]

عبد القادر الجيلاني

وأما عبد القادر الجيلاني، إمام الطريقة القادرية، فقد أسهب في ذكره والثناء عليه ووصفه بالإمامة والعرفان، ونوه كثيراً بمكانته في العلم والدين واتباع الشريعة.[3]

وصفه بـ «الشيخ الإمام العارف»، ووصفه بـ «قطب العارفين».[4]

وكان يقول: «كرامات الشيخ عند القادر ثابتة بالتواتر».[5]

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥١٦)

(٢) «مرآة الجنان» (٣/ ١٨٥)

(٣) «بيان تلبيس الجهمية» (١/ ٢١٤)، «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٥٨)

(٤) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٨٥)، «الاستقامة» (١/ ٨٥)، «بيان تلبيس الجهمية» (١/ ٢١٤)

(٥) «تاريخ ابن الوردي» (٢/ ٧٠)

الهكاري

علي بن أحمد بن يوسف بن جعفر بن عرفة الهكاري.

قال الحافظ ابن حجر: «كان صالحاً، زاهداً، ربانياً، ذا وقار وهيبة وأتباع ومريدين».[١]

كانت له عند الملوك مرتبة عالية، لكنه انقطع في الجبال، وبنى الربط والزوايا التي يأوي إليها الفقراء.[٢]

وقال يحيى بن مندة: قدم علينا أبو الحسين الهكاري أصبهان وكان صاحب صلاة وعبادة واجتهاد، مشهور معروف، أحد كبراء الصوفية.

قال ابن النجار: كان يسكن جبال الهكارية بقرية اسمها دارس، وقد ابتنى هناك أربطة ومواضع، سمع الحديث الكثير، وسافر في طلبه، وجمع كتباً في السنة والزهد وفضائل الأعمال، وحدث بالكثير، وانتقى عليه محمد بن طاهر، وكان الغالب على حديثه الغرائب والمنكرات، وفي ذلك متون موضوعة مركبة، رأيت بخط بعض المحدثين أنه كان يضع الحديث.[٣]

وصفه ابن تيمية بأنه «من أولياء الله المتقين من له لسان صدق في العالمين».

وذكر أنه كان يلقب بـ«شيخ الإسلام».[٤]

---

(١) «إنباء الغمر» (٢/ ٣٥٢)

(٢) انظر «الوافي بالوفيات» (٢٠/ ١٢٠)

(٣) «تاريخ الإسلام» (٣٣/ ١٢٩)

(٤) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٧٧)

عقيل المنبجي

وصفه ابن تيمية بالشيخ العارف، وذكر أنه هو الذي ألبس عدي بن مسافر خرقة التصوف، وأنه لبسها من يد الشيخ مسلمة المردجي، والشيخ مسلمة لبس الخرقة من يد الشيخ أبي سعيد الخراز. [1]

عدي بن مسافر

وكذلك إمام الطريقة العدوية الإمام عدي بن مسافر، ومما قاله فيه: «والشيخ عدي قدس الله روحه كان من أفاضل عباد الله الصالحين، وأكابر المشايخ المتبعين، وله من الأحوال الزكية، والمناقب العلية ما يعرفه أهل المعرفة بذلك، وله في الأمة صيت مشهور، ولسان صدق مذكور، وعقيدته المحفوظة عنه لم يخرج فيها عن عقيدة من تقدمه من المشايخ الذين سلك سبيلهم». [2]

قال فيه أيضاً: «الشيخ، العارف، القدوة».

وأضاف ابن تيمية: «وعقيدته المحفوظة عنه لم يخرج فيها عن عقيدة من تقدمه من المشايخ الذين سلك سبيلهم كالشيخ الإمام الصالح أبي الفرج عبد الواحد بن محمد بن علي الأنصاري الشيرازي ثم الدمشقي، وكشيخ الإسلام الهكاري، ونحوهما، وهؤلاء المشايخ لم يخرجوا في الأصول الكبار عن أصول أهل السنة والجماعة، بل كان لهم من الترغيب في أصول أهل السنة والدعاء إليها والحرص على نشرها ومنابذة من خالفها مع الدين والفضل

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٠٣)

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٧٧)

والصلاح ما رفع الله به أقدارهم، وأعلى منارهم، وغالب ما يقولونه في أصولها الكبار جيد»[1]

شهاب الدين السهروردي

الإمام العارف أبو حفص، صاحب «عوارف المعارف» أشهر من نار على علم، وصفه ابن تيمية بالاتباع والعلم بالسنة، وشهد له بالخيرية، وأشار إلى صفاء عقيدته، واستشهد بكلامه مراراً. [2]

محمد بن طاهر المقدسي

الإمام الحافظ الحجة المشهور، كان حافظاً، ناقداً، صوفياً.

قال فيه ابن تيمية: «الحافظ الصوفي المشهور الذي صنف للصوفية كتاب صفة التصوف، ومسألة السماع، وغير ذلك». [3]

أبو محمد بن عبد البصري

ومنهم الشيخ أبو محمد بن عبد البصري المالكي، وذكر أن طريقته طريقة أبي الحسن بن سالم وأبي طالب المكي، وأمثالهما من المنتسبين إلى السنة والمعرفة والتصوف، هكذا قال. [4]

أبو الفرج الأنصاري

ومنهم أبو الفرج عبد الواحد بن محمد بن علي الأنصاري الشيرازي.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٧٧)

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» (٧/ ٥٩٤) (١١/ ٣٢٠) (٣٥/ ١٦٣)

(٣) «الاستقامة» (ص٩٧)

(٤) «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٥٠٢)

أثنى على عقيدته وعلى طريقته ووصفه بـ «الشيخ، الإمام، الصالح».[1]

وقال في هؤلاء الثلاثة، ومن كان مثلهم: «وهؤلاء المشايخ لم يخرجوا في الأصول الكبار عن أصول أهل السنة والجماعة، بل كان لهم من الترغيب في أصول أهل السنة والدعاء إليها والحرص على نشرها ومنابذة من خالفها مع الدين والفضل والصلاح ما رفع الله به أقدارهم وأعلى منارهم».[2]

أبو مدين المغربي

ومنهم أبو مدين المغربي، وهو شعيب بن حسين الأندلسي، كان كبير الصوفية العارفين في عصره، كما قال الذهبي.[3]

أثنى عليه ابن تيمية، وكرر ذكره في كبار الشيوخ المستقيمين المقتدى بهم.[4]

وذكره ضمن «مشايخ الإسلام وأئمة الهدى الذين جعل الله تعالى لهم لسان صدق في الأمة».[5]

أبو إسماعيل الهروي

ومنهم: الإمام الصوفي الكبير أبو إسماعيل الأنصاري الهروي، صاحب «منازل السائرين»، وكان ابن تيمية يعظمه كثيراً، وكلامه فيه مشهور، كقوله فيه: «شيخ الإسلام مشهورٌ، معظم عند الناس، هو إمام في الحديث، والتصوف، والتفسير».[6]

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٧٧)

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٧٧)

(٣) «تاريخ الإسلام» (٤١/ ٣٩٩)

(٤) انظر «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٢٧)

(٥) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٧٤)

(٦) «ذيل طبقات الحنابلة»(١/ ١٤٧)

أبو عبد الله القرشي

ومنهم: الإمام العارف صاحب الكرامات أبو عبد الله القرشي محمد بن أحمد بن إبراهيم الأندلسي الصوفي.

يقول فيه ابن تيمية: «أحد العارفين وصاحب الكرامات والأحوال، له كلمات وجمل في آداب المعاملات وطرائق أهل الرياضات، جمعها بعض تلاميذه في كتاب الفصول أقام بمصر مدة، وسكن القدس». [١]

رسلان الدمشقي

ومنهم: رسلان الدمشقي، أحد أشهر شيوخ الصوفية المجمع على جلالتهم.[٢]

ذكره ابن تيمية ضمن «مشايخ الإسلام وأئمة الهدى الذين جعل الله تعالى لهم لسان صدق في الأمة». [٣]

أبو البيان

ومنهم: أبو البيان، شيخ الطريقة البيانية.

ذكره ضمن «مشايخ الإسلام وأئمة الهدى الذين جعل الله تعالى لهم لسان صدق في الأمة». [٤]

---

(١) « قاعدة جامعة في توحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة واستعانة» (ص٨٦)

(٢) تنظر «شذرات الذهب» (٧/ ٧٨٢)

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٧٤)

(٤) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٧٤)

نصر المنبجي

أبو الفتح نصر بن سلمان المنبجي، كانت له زاوية، وهي التي دفن فيها، وكان معظماً لابن عربي.[1]

في إحدى الرسائل التي بعثها إليه ابن تيمية يقول فيها: «من أحمد بن تيمية إلى الشيخ، العارف، القدوة، السالك، الناسك، أبي الفتح نصر فتح الله على باطنه وظاهره ما فتح به على قلوب أوليائه».[2]

وقال فيها: «فالشيخ أحسن الله إليه قد جعل الله فيه من النور والمعرفة الذي هو أصل المحبة والإرادة ما تتميز به المحبة الإيمانية المحمدية المفصلة عن المجملة المشتركة».[3]

أبو الثناء الأصبهاني

الشيخ الإمام العالم العلامة المحقق المتفنن الفريد الحجة، جامع أشتات الفضائل، وارث علوم الأولين، حجة المتكلمين، إمام الفقهاء ـ كما وصفه الصفدي ـ محمود بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن علي العلامة شمس الدين **أبو الثناء الأصفهاني**.

أحد أجل علماء الصوفية، بنى له قوصون الخانقاه ورتبه شيخاً بها، وكان يواظب على تلاوة القرآن وتدريس الطلاب عند قبر زكريا عليه السلام.

---

(١) انظر «اعوان النصر»(٥/ ٥٠٢)، «شذرات الذهب» (٨/ ٩٥)

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٥٢)

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٥٥)

كان ابن تيمية يبالغ في تعظيمه، وقال مرة: «اسكتوا حتى نسمع كلام هذا الفاضل الذي ما دخل البلاد مثله».[1]

تقي الدين السبكي

ومع الخلاف الحاد الذي نشب بين ابن تيمية والتقي السبكي، إلا أن الرجلين كان كل منهما يحفظ مكانة الآخر العلمية والروحية.

وقد سبق ثناء السبكي على ابن تيمية.

وأما ابن تيمية فقد كان مقراً بفضائل السبكي وعلومه وتبحره وتفوقه على أقرانه.

يقول التاج السبكي في ترجمه والده تقي الدين: «وصح من طرق شتى عن الشيخ تقي الدين بن تيمية أنه كان لا يعظم أحداً من أهل العصر كتعظيمه له، وأنه كان كثير الثناء على تصنيفه في الرد عليه».[2]

صدر الدين ابن الوكيل

الإمام العلامة الكبير البارع.

لما بلغت وفاته ابن تيمية قال: «أحسن الله عزاء المسلمين فيك يا صدر الدين».[3]

قال ابن كثير: «كان ينصب العداوة للشيخ ابن تيمية، ويناظره في كثير من المحافل والمجالس، وكان يعترف للشيخ تقي الدين بالعلوم الباهرة ويثني عليه،

---

(١) انظر «أعوان النصر» للصفدي (٥/ ٤٠٠ ـ ٤٠١)، «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (٣/ ٧١ ـ ٧٢)، «الدرر الكامنة» (٦/ ٨٥)

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى» (١٠/ ١٩٥)

(٣) «الدرر الكامنة»(٥/ ٣٨٢)

ولكنه كان يجاحف عن مذهبه، وناحيته، وهواه، وينافح عن طائفته، وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية يثني عليه، وعلى علومه، وفضائله». [1]

وكان ابن تيمية يقول عنه: «ابن الوكيل ما يرضى لنفسه أن يكون في شيء إلا غاية، ثم يُعدد أنواعاً من الخير والشر فيقول: كان في كذا غاية، وفي كذا غاية». [2]

حماد الحلبي

الشيخ الصالح الزاهد حماد الحلبي

كان كثير التلاوة والصلاة، مواظباً على الإقامة بجامع التوبة بالعقيبة بالزاوية الغربية الشمالية، يقرئ القرآن، ويكثر الصيام، ويتردد الناس إليه للزيارة.

كان ابن تيمية يعظمه ويعترف بصلاحه. [3]

ابن شيخ الحزاميين

أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن مسعود بن عمر الواسطي الحزامي، الزاهد القدوة العارف، عماد الدين أبو العباس، ابن شيخ الحزاميين.

وكان أبوه شيخ الطائفة الأحمدية، وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يعظمه ويجله، ويقول عنه: هو جنيد وقته.

وكتب إليه كتاباً من مصر أوله «إلى شيخنا، الإمام، العارف، القدوة، السالك».

قال البرزالي عنه: «رجل صالح عارف، صاحب نسك وعبادة، وانقطاع وعزوف عن الدنيا، وله كلام متين في التصوف الصحيح». [4]

---

(١) «البداية والنهاية» (١٨/ ١٦١)

(٢) «أعوان النصر» (٥/ ١٥)

(٣) انظر «البداية والنهاية» (١٧/ ٢٧٣)، «أعوان النصر» (٢/ ٢٩٦)، «الدرر الكامنة» (٢/ ١٩٣)

(٤) «ذيل طبقات الحنابلة» (٤/ ٣٨٣)

إسماعيل بن عز القضاة

كان صوفياً عالماً زاهداً، اجتمع بالشيخ محيي الدين ابن سراقة فقال له: إن أردت هذا المعنى فعليك بتصانيف محيي الدين ابن العربي.

فلما رجع إلى دمشق انقطع ولزم العبادة، وأقبل على كتب ابن العربي فنسخها وتلذذ بها، وكان يلازم زيارة قبره ويبالغ في تعظيمه.

وكان ابن تيمية يعظمه ويبالغ، حتى وقف له على أبيات أولها:

وحياتِكُمْ ما إِنْ أرى لكُمُ سِوى إِذْ أنتُمُ عينُ الجوارحِ والقُوى

فتألم له وقال: «هذا الشعر عين الاتحاد».

قال الذهبي: «قلت: إنما أراد أن ينظم قوله: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به...». الحديث، فقال: سياق الحديث يدل على بطلان هذا، وهو قوله: «فبي يسمع وبي يبصر»، وما في الحديث أن الباري تعالى يكون عين الجوارح، تعالى الله عن ذلك».

قال الذهبي: «قلت: لم أجد هذه اللفظة «فبي يسمع، وبي يبصر».»[1].

وهذا باب واسع.

ومن الأخبار المشهور عن ابن تيمية أن السلطان استفتاه في قتل بعض خصومه من الأشاعرة والمتصوفة.

قال: ففهمت مقصوده، وأن عنده حنقاً شديداً عليهم لما خلعوه وبايعوا الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، فشرعت في مدحهم والثناء عليهم وشكرهم،

---

(١) «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٦٢٨)

وأن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك، أما أنا فهم في حل من حقي ومن جهتي. وسكنت ما عنده عليهم.

فكان القاضي زيد الدين ابن مخلوف قاضي المالكية يقول بعد ذلك: ما رأينا أتقى من ابن تيمية، لم نبق ممكنا في السعي فيه، ولما قدر علينا عفا عنا.[1]

وهذا غيض من فيض، كما يقال.

فهل يعقل أن يبالغ ابن تيمية في الثناء على أئمة الصوفية وهو يراهم مبتدعة ضلالاً.؟!

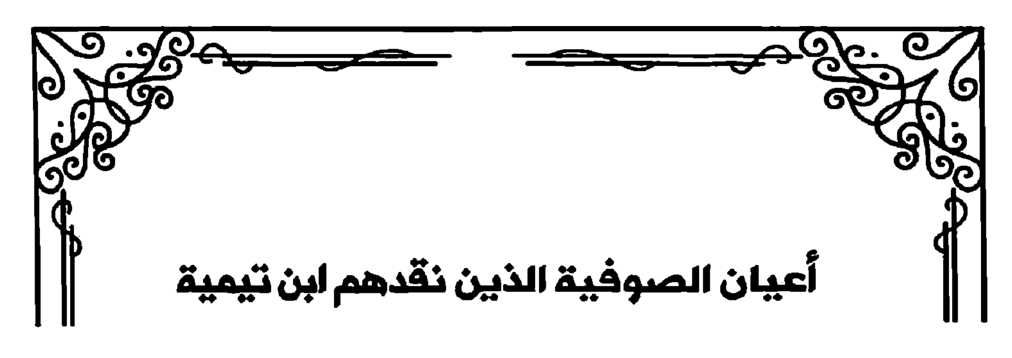
لو لم نعثر على شيء يثبت تصوف ابن تيمية إلا هذا الموقف وهذا الثناء الكبير على أئمة الصوفية لكان كافيا لإثبات صلته الوطيدة بالصوفية والتصوف، ودليل على تعظيمه وتبجيله لهم.

ولا شك أن ابن تيمية لن يعظم ويجود بالمدح والإطراء إلا على من يراهم معالم هدى، لا أئمة ضلال، كما يصفهم بعض من يدعون أنهم على منهجه وعقيدته.

***

---

(١) «العقود الدرية» (ص٢٢٩)



أعيان الصوفية الذين نقدهم ابن تيمية

استشعر ابن تيمية مدى ما وصلت إليه العلوم الإسلامية من التدهور والتراجع بسبب ما أدخله فيها الجاهلون أو المفسدون من مسائل وقضايا لا تمت إليها بصلة، ولا يكاد يوجد علم من العلوم سلم من هذه الإشكالية الكبيرة، في نظر ابن تيمية.

كان لا بد لعالم مثله أن يقوم بمسؤوليته لإعادة العلوم الدينية إلى صفائها الأول، والقيام بهذه المهمة يتطلب الحديث عن العلوم من جوانب متعددة، من أهمها الحديث عن حملة العلم، أو العلماء والأعيان الذين كان لهم إسهامات سلبية أثرت في خروج العلم عن صفائه، وبيان الأسباب والدواعي والملابسات التي جعلت هؤلاء يسلكون الطريق المكدر للعلوم.

وهذه مهمة العلماء، كل العلماء، وطريقة سلكها ابن تيمية وغير ابن تيمية، وفي جميع العلوم والتخصصات، محدثين، وفقهاء، ومفسرين، وصوفيين، ولغويين، ونحويين، وغيرهم، وليست ظاهرة تيمية، بل سلوك عام لدى سائر العلماء.

ربما يكون ابن تيمية تعاطى معها بنوع من القسوة أو المبالغة وخرج عن الأسلوب الهادئ المعتاد لدى العلماء، لكن ما لا شك فيه أنه سار في طريق مسلوك منذ قرون.

والعلماء في كل زمان يتقبلون هذا النوع من النقد، ولا يجدون فيه أي غضاضة، طالما أنه ملتزم بالآداب المرعية.

غير أن الحديث عن العلماء وتقييم جهودهم وآرائهم يختلف من علم إلى علم، فنقد الفقيه أو المحدث يختلف عن نقد الصوفي في القبول والتلقي، وذلك لما للصوفي من مكانة روحية لدى العلماء والعامة، فهاهنا مجال كبير للحساسية.

ولهذا نجد العلماء يصرفون النظر عن أساليب قاسية في نقد الفقهاء والمحدثين وغيرهم، وكثيراً ما يعتذرون للنقاد مع تجاوزهم في الأسلوب والعبارة التي يستخدمونها، لكن عند نقد الصوفية لا نجد لهم تلك الروح، حتى ولو كان النقد مهذباً.

أتذكر هنا موقف العلامة المناوي من الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله الذي ترجم لمئات الأعيان من الصوفية، وناقش كثيراً من أقوالهم وأعمالهم بروح الناقد الصريح الذي ينظر إلى الحقيقة بغض النظر عن الأشخاص.

كان الحافظ العسقلاني رحمه الله سيء الرأي في أصحاب التصوف الفلسفي، ولا يستطيع إخفاء رأيه هذا إذا مر بأحدهم، حتى قال في ترجمة التوروزي: «كنت أبغضه في الله تعالى».[1]

وكان التوروزي داعية إلى مقالة ابن عربي.

أسلوب الحافظ هذا أثار حفيظة العلامة المناوي فعده مبغضاً للصوفية، كثير التعصب ضدهم، كما تراه في ترجمة محمد بن عمر الغمري من «طبقات الصوفية».[2]

---

(١) «إنباء الغمر» (٢/ ٣٠)

(٢) «طبقات الصوفية» (٣/ ٣٤٢)

لكن المناوي لم يقدم أي إثبات على دعواه تلك، وإنما وصفه بالتعصب لكونه يتعامل مع الصوفية بالمنطق الذي أشرت إليه. [1]

وهذا يعني أن الإقدام على الكلام في أئمة الصوفية وأعيانهم مدعاة لاستجلاب غضب العلماء.

ولا يعني أن علماء الصوفية فوق النقد، بل العكس هو الصحيح، فقبول النقد وتلقيه إحدى أهم الآداب التي أوصى بها علماء الصوفية.

ومن كلماتهم المشهور «الصوفية بخير ما تنافروا»، يعني ما اختلفوا وتناصحوا.

ولعل الصوفية في تلقي النقد وقبوله يتفوقون على سائر طوائف العلماء، إذ أنهم يعتبرون نقدهم إحساناً إليهم، حتى قال محققهم الإمام زروق: «ما أُلِّف من الكتب للرد على القوم فهو نافع في التحذير من الغلط». [2]

بناءً عليه، لم يتردد ابن تيمية في انتقاد شيوخ الصوفية ـ كما انتقد غيرهم ـ غير أن نقده توجه في بعض الأحيان إلى ما يشبه الخصومة الشخصية.

ويتسم نقده أيضاً بالحدة، ولعله يكون معذوراً في هذا الجانب، فالوضع الذي وصل إليه التصوف وطبيعة الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية أثرت في نفسيته، وأكسبتها الحدة والقسوة في النقد، مع ما كان يمتاز به من لين الجانب وحب الناس والتفاني في خدمتهم وسلامة الصدر مع العدو والصديق.

لكنه لم يكن العالم الوحيد الذي يقسو ويحتد، فهذه طبيعة يشترك فيها كثير

---

(١) وانظر ترجمة بن وفا في «إنباء الغمر» (٢/ ٣٠٨) إنكار الحافظ ابن حجر على أصحابه بسبب السجود له.

(٢) «قواعد التصوف» (ص١٣٢)

من البشر، وقد كان في علماء الصوفية من هو أكثر قسوة وشدة، ومع ذلك فهم معدودون في جملة الصوفيين العارفين.

ولنا أن نذكر بعض الأمثلة.

فقد نقل عن طوائف من الصوفية طعنهم في الإمام رويم بن أحمد، ورموه بترك التصوف بعد أن تولى بعض الوظائف.(١)

وكان ابن يزدانيار متقدما في التصوف، وكان كثير الإنكار على الصوفية، ومما أثر عنه قوله: «يقول تراني تكلمت بما تكلمت به إنكارا على التصوف والصوفية، والله ما تكلمت إلا غيرةً عليهم حيث أفشوا أسرار الحق، وأبدوها إلى غير أهلها، فحملني ذلك على الغيرة عليهم والكلام فيهم، وإلا فهم السادة وبمحبتهم أتقرب إلى الله تعالى».(٢)

ومنهم الإمام أبو إسماعيل الهروي الأنصاري، فقد كان شديدا على الأشعرية والمتكلمين، حتى أنه كان يلعن الإمام الأشعري.

وكان الشيخ الأكبر ابن عربي سيء الرأي في الإمام أبي القاسم الجنيد، كما نقله عنه ابن تيمية.

ومنهم الإمام العلاء البخاري، وهو من أجل علماء الصوفية في زمانه، وكان يكفر ابن عربي، ويعادي من لم يكفره، وله في هذا قصص مشهورة، وكان يكفر ابن تيمية وابن عربي في آن واحد، فيقول: «ابن عربي كافر وابن تيمية كافر».

وعلى طريقته كان غير واحد من علماء الصوفية.

---

(١) انظر «المنتظم» (١٣/ ١٦٢)، «الفتاوى الكبرى» لابن تيمية (٢/ ٤٠٠)

(٢) «طبقات الصوفية»(ص٣٠٧)

ومنهم الإمام العارف تقي الدين الحصني صاحب «كفاية الأخيار»، ومع أن كتابه هذا في الفقه إلا أنه شن هجمات قوية على جهلة المتصوفة والمتظاهرين بالنسك وعلى أئمة الجور والحكام الفاسدين.

ومنهم الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي، فقد كان لاذعا، ولا تخفى كتبه التي رد فيها على خصومه بعناوينها العجيبة، مثل «الكاوي في تاريخ السخاوي».

وكان شديداً على الإمام الصوفي الشهاب القسطلاني، حتى إن القسطلاني جاءه فدق عليه الباب ليطيب خاطره، فلم يفتح له، ورده ولم يقابله. [1]

وإذا ما قسنا موقف ابن تيمية ممن انتقدهم بمواقف هؤلاء وغيرهم من علماء الصوفية سنجد أن ابن تيمية أرق عبارة منهم، وأهدأ نفسا، وأكثر إجلالاً لمن انتقدهم من المتصوفة، كالقشيري والغزالي، وهم الصوفية المتكلمون.

ومع ذلك فقد وصفه غير واحد من العلماء بأنه كان يطعن في علماء الصوفية وأئمتهم.

وأجل من وصفه بذلك الإمام عبد الله بن أسعد اليافعي، في «مرآة الجنان»، فقال: «وله مسائل غريبة أنكر عليه فيها، وحبس بسببها مباينة لمذهب أهل السنة، ومن أقبحها نهيه عن زيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام، وطعنه في مشايخ الصوفية العارفين، كحجة الإسلام أبي حامد الغزالي، والأستاذ الإمام أبي القاسم القشيري، والشيخ ابن العريف، والشيخ أبي الحسن الشاذلي، وخلائق من أولياء الله الكبار الصفوة الأخيار». [2]

---

(١) انظر «شذرات الذهب» (١٠/ ١٧٠)

(٢) «مرآة الجنان» (٤/ ٢٠٩)

وأنت تلاحظ أن الإمام اليافعي لم يذكر فيهم الحلاج ولا ابن عربي ولا ابن الفارض، ونحوهم، مع أنه كان يعتقد ولايتهم وعرفانهم، وذلك لأن الصوفية أنفسهم مختلفون فيهم اختلافاً شديداً.

ابن تيمية والغزالي

بخصوص الإمام الغزالي فإن أكثر ما أخذه عليه ابن تيمية التصوف الفلسفي الذي أنكره عامة علماء المسلمين، مع إقراره بإمامته وفضله، واعترافه بعلومه التي أودعها كتبه لا سيما «إحياء علوم الدين» الذي وصفه بـ «أجل كتبه». [1]

والحقيقة أن ابن تيمية لم ينفرد بنقد الغزالي، بل نقده علماء آخرون، لهم في التصوف قدم صدق، على رأسهم تلميذه الإمام أبو بكر بن العربي المالكي الذي أنكر عليه إيغاله في التصوف، وهو يقصد بالطبع التصوف الفلسفي فيقول: «كان أبو حامد تاجاً في هامة الليالي، وعقداً في لبة المعالي، حتى أوغل في التصوف، وأكثر فيه التصرف، فخرج عن الحقيقة، وحاد عن أكثر أحواله عن الطريقة، وجاء بألفاظ لا تطاق، ومعان ليس لها مع الشريعة انتظام ولا اتساق، فكان علماء بغداد يقولون: لقد أصابت الإسلام فيه عين». [2]

وترجم الإمام النووي في كتابه «مختصر طبقات الفقهاء» للغزالي، وذكر في ترجمته فصلاً لبيان ما أُخذ عليه، فقال: «فصل لبيان أشياء مهمة أنكرت على الإمام الغزالي في مصنفاته ولم يرتضها أهل مذهبه وغيرهم من الشذوذات في متصرفاته». [3]

---

(١) «الاستقامة» (ص٥٣)

(٢) «العواصم والقواصم» (ص١٠٧)

(٣) «مختصر طبقات الفقهاء» (ص٢٦٩)

ثم أطال بالنقل عن المازري وغيره في ذات الموضوع الذي أطال فيه ابن تيمية، وهو تأثر الغزالي السلبي بالفلسفة.

وأنت تلاحظ من كلام النووي أن أهل مذهبه الشافعية أيضا أنكروا على الغزالي، ومع هذا يتم توجيه اللوم لابن تيمية فقط.

وهذا يذكرني بكلمة طالما سمعتها من شيخي العلامة الفقيه علي بن سالم بكير الحضرمي ـ أطال الله في عمره ـ وهي للعلامة الكبير السيد ابن عبيد الله السقاف عندما نقل المنع من شد الرحال لزيارة قبور الأنبياء عند عدد من الفقهاء الذين وافقوا ابن تيمية في رأيه، ثم قال: «ولكنهم خصوه باللوم والقول واحد!».[1]

على أن ابن تيمية استند في موقفه هذا إلى ما كتبه المازري والطرطوشي، كما تراه في كتابه «بغية المرتاد».[2]

لم يكن موقف ابن العربي والمازري والنووي ـ وغيرهم ممن آخذ الإمام الغزالي ـ بسبب تصوفه، وإنما بسبب خروجه عن التصوف، كما رأوا.

وعليه، يجب أن يسجل موقف ابن تيمية من الغزالي كأحد مواقفه الكثيرة في الدفاع عن التصوف.

ابن تيمية والقشيري

وأما ما أشار إليه الإمام اليافعي من طعن ابن تيمية في أبي القاسم القشيري، فهو محل نظر أيضاً.

---

(١) الكلمة هذه قالها ابن عبيد الله في كتابه «إدام القوت»، وليس هو بين يدي الآن كي أنقل منه.

(٢) «بغية المرتاد» (ص٢٨٠)

يكاد يكون كتاب «الاستقامة» لابن تيمية مخصصاً لمناقشة القشيري في بعض المواضيع التي طرقها في كتابه «الرسالة».

وأبرز المسائل التي لاحظها ابن تيمية على القشيري في الرسالة تقريره لمذهب المتكلمين، ونسبته العقيدة الكلابية والأشعرية إلى الصوفية، وقد قارعه ابن تيمية في هذا، وحاول إثبات أن الصوفية على طريقة السلف أهل الحديث، وأن طريقة الأشعرية في الاعتقاد مرفوضة عند أئمة التصوف، بل إنهم كانوا ـ كما يقول ـ يرونها طريقة مبتدعة، وأن علم الكلام ليس من علوم السالكين.

ولعله لهذا ثارت ثائرة الإمام اليافعي فعده طاعناً في القشيري، فقد كان اليافعي أشعرياً شديد المنافحة عن طريقة الأشاعرة.

مع أن ابن تيمية أكد على أن أكثر ما جاء في العقيدة التي ذكرها القشيري موافق لأصول السف وأهل السنة والجماعة.

ومما قاله: «وما ذكره أبو القاسم في رسالته من اعتقادهم وأخلاقهم وطريقتهم فيه من الخير والحق والدين أشياء كثيرة، ولكن فيه نقص عن طريقة أكثر أولياء الله الكاملين، وهم نقاوة القرون الثلاثة ومن سلك سبيلهم». [١]

ولم أر في ردود ابن تيمية على أبي القاسم القشيري طعناً، وهو في غالبها يحاكمه إلى اعتقاد أئمة الصوفية، كما نقله الكلاباذي في «التعرف»، وغيره، ويحتج عليه بموقف شيخه أبي عبد الرحمن السلمي من الكلابية وغيرهم من المتكلمين.

وأما ابن العريف فلم أقرأ لابن تيمية عنه شيئاً فيما أذكر الآن.

---

(١) «الاستقامة» (ص٥٧)

ابن تيمية والشاذلي

أما أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه، فقد تعقب ابن تيمية حزبه المشهور، وألّف في الرد عليه كتاباً، وأخذ عليه أن فيه «أدعية فيها اعتداء»، وأنه «يوجد في كلامه وكلام غيره أقوال وأدعية تستلزم تعطيل الأمر والنهي»، وتعقبه في بعض العبارات التي رأى أنه لا معنى لها، أو أنها تخالف ما ثبت في نصوص الشريعة، وأخذ عليه قبوله لأصول الفلسفة المخالفة للإسلام.

وغيرها من المسائل، وهي قضايا محل نظر، وليست قطعية.

وقد كان ابن تيمية إماماً مجتهداً، يحق له التعقب والاستدراك، وأبو الحسن الشاذلي وإن كان من الأولياء، فإن الولاية لا تعني العصمة من الخطأ، كما هو قول سائر الأئمة، ومنهم الصوفية.

وهذا ما أشار إليه ابن تيمية، فقال: «وإن كان قائله فيه زهد وعبادة، وله دين وإرادة، وكان له نوع من المكاشفات وخوارق العادات، فهذا لا يوجب عصمة صاحبه، ولا علمه بأسرار العبادات، ولا أن يستن شيئا من الأذكار والدعوات، إذ السنن المشروعة في أمور الدين للأنبياء والمرسلين لا لآحاد الصالحين». [1]

كما أن ابن تيمية كان منصفاً إلى حد ما، فقد أكد أن ما نقل عن الشاذلي، «لا يخلو من شيئين: إما كذب من الناقل، وإما خطأ من القائل». [2]

إضافة إلى أن جانباً كبيراً من رده على حزب الشاذلي توجه إلى المريدين الذين أساؤوا العمل بهذا الحزب.

---

(١) «الرد على الشاذلي» (ص٤٩)

(٢) «الرد على الشاذلي» (ص١٥)

أي نعم، بالغ ابن تيمية في تفسير بعض المواضع من كلام الشاذلي وفسرها تفسيرا حرفيا، وحاكمه إلى مجرد قناعات رآها، وحاد فيها عن الموضوعية، وهذه سلبية قل أن يسلم منها أحد.

ولهذا غمزه ابن الملقن، فقال في ترجمة الشاذلي: «وقد انتصب بعض الحنابلة إلى حربه، فرد عليه، وما هو من حزبه». [1]

***

وأما قول اليافعي: «وخلائق من أولياء الله الكبار الصفوة الأخيار»، فإذا كان يقصد بأولياء الله أمثال الحلاج وابن عربي فقد علمت اختلاف الصوفية فيهم.

وأما غيرهم من الأولياء فلا بد من تسمية كل واحد منهم وإثبات الطعن من كلام ابن تيمية، وإن كان يغلب على ظني أن الطعن المقصود هو مجرد الردود التي كتبها ابن تيمية وآراؤه في المسائل والأقوال المنقولة عن هؤلاء.

وعلى كل حال، فإذا ثبت حقاً أن ابن تيمية طعن في بعض الصوفية المتبوعين فإنه لا يعني عداوته للصوفية وللتصوف عموماً.

وقد كان ابن تيمية يحط على عدد من صوفية عصره لاطلاعه على بعض أحوالهم التي خفيت على غيره، مثل الشيخ كريم الدين الرملي، وكان موصوفا بالولاية والعرفان، ثم اطلع الصوفية على حاله وأنكروه.

قال الذهبي: «أثبت الصوفية فسقه من ستة عشر وجهاً، وأخرج من الخانقاه». [2]

---

(١) «طبقات الأولياء» (ص٤٥٩)

(٢) «أعيان العصر» (٣/ ١٣٤)، «الوافي بالوفيات» (١٩/ ٥٤)

وإذا ما أردنا إجمال الموضوع فإن ابن تيمية لم يطلق يوماً لسانه في التصوف أو الصوفية، ولكنه نقد بعض الجوانب أو بعض الآراء والأفكار التي ألصقت بالتصوف، وبالأخص التصوف الفلسفي، فهو الذي اتخذه عدواً، ولم يتسامح معه، بل حمل عليه بخيله ورجله.

وهذا واضح فيما تقدم من محطات الكتاب.

ويكفي لمعرفة هذه الحقيقة عندما تقرأ كلمة ابن تيمية في أبي الحسن الحرالي[1]:

---

(١) أبو الحسن علي بن أحمد بن حسن التجيبي، الأندلسي.
وحرالة قرية من عمل مرسية، ولد بمراكش، وأخذ النحو عن ابن خروف، ولقي العلماء، وجال في البلاد، ولهج بالعقليات، وسكن حماة، وعمل تفسيرا عجيبا ملأه باحتمالات لا يحتمله الخطاب العربي أصلا، وتكلم في علم الحروف والأعداد، وزعم أنه استخرج منه وقت خروج الدجال ووقت طلوع الشمس من مغربها، ووعظ بحماة، وأقبلوا عليه، وصنف في المنطق، وفي شرح الأسماء الحسنى، وكان شيخنا مجد الدين التونسي يتغالى في تعظيم (تفسيره)، ورأيت علماء يحطون عليه ـ والله أعلم بسره ـ وكان يضرب بحلمه المثل.
مات: سنة سبع وثلاثين وست مائة.
وممن يعظمه شيخنا شرف الدين ابن البارزي قاضي حماة، فمن شاء فلينظر في تواليفه، فإن فيها العظائم.
هكذا ترجم له الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٢٣/ ٤٧)
وقال الحافظ ابن حجر: «ومن تصانيفه: «مفتاح الباب المقفل لفهم الكتاب المنزل» جعله قوانين كقوانين أصول الفقه وحكي عنه أنه أقام سبع سنين يجاهد نفسه حتى صار من يعطيه الدنانير الكثيرة ومن يزري به: سواء، وذكر ابن الأبار أنه أقام ببلبيس مدة وذكر عنه أنه قال: إذا أذن العصر أموت فلما جاء العصر أجاب المؤذن ومات».
«لسان الميزان» (٥/ ٤٩٧)
وأطال الغبريني في الثناء عليه وإيراد أخباره، وقال: ما من علم إلاَّ له فيه تصنيف. «الأعلام» للزركلي (٤/ ٢٥٦)

«تصوفه على طريقة الفلاسفة». [1]

فهذه هي المشكلة الحقيقية في بعض المتصوفة في نظر ابن تيمية، ولو أنهم جانبوا الفلسفة في التصوف لما تعرض لهم، ولكان حاله معهم كما نقول في اليمن «سمن على عسل».

ولهذا فهو يقسم التصوف إلى قسمين:

تصوف على أصول المسلمين.

وتصوف على أصول الفلاسفة، وهو الذي جرَّ من دخل فيه إلى الإلحاد، كما يقول. [2]

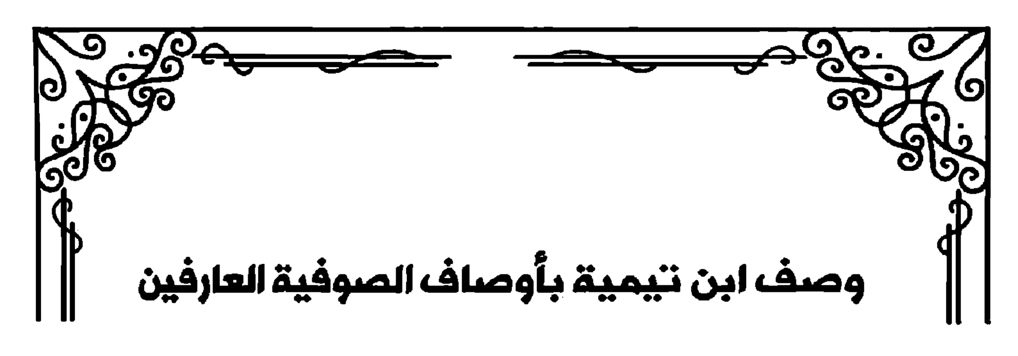
وهذا موقف سائر العلماء والناقدين من التصوف، كالذهبي والحافظ ابن حجر، وغيرهما.

* * *

وفي «شجرة النور الزكية»: «الإمام العالم الزاهد بقية السلف وقدوة الخلف كان من أعلم الناس بمذهب مالك متفنناً في كثير من العلوم مجاب الدعوة كثير الكرامات لقي جلة من المشايخ شرقاً وغرباً أخذ عنهم منهم أبو عبد الله القرطبي إمام الحرم الشريف ووقع بينه وبين العز بن عبد السلام خلاف في مسائل، أخذ عنه من لا يعد كثرة منهم عبد الحق بن ربيع ألَّف في كثير من الفنون منها: مفتاح اللب المقفل على فهم القرآن المنزل والوافي في الفرائض وله شعر رائق وأحزاب وأوراد وأتباع. توفي بحماه ببلاد الشام سنة ٦٣٧هـ [١٢٣٩م]، له فضائل جمة ومناقب كثيرة».

(١) «طبقات المفسرين» للسيوطي (ص٧٧)

(٢) انظر «الرد على الشاذلي» (ص٣٩)



وصف ابن تيمية بأوصاف الصوفية العارفين

اتفق كل من عرف ابن تيمية على زهده وتألهه، أو قل على تصوفه، ولم يخالف في ذلك أحد، بمن فيهم العلماء الذين نقموا عليه مسائله التي شذ فيها.

واتفاق العلماء على زهده وتعبده كاف لوصفه بـ «الصوفي»، فإن الحال التي كان عليها هي غاية كل المريدين والسالكين.

وقد أطلق عليه العديد من العلماء المحققين ألقاب الصوفية العارفين الكاملين في التصوف، الأمر الذي يسلط الضوء أكثر على عراقة تصوف هذا العالم الجليل.

والحق أن تصوف ابن تيمية كان جزءاً من شخصيته الفكرية والسلوكية، وهو أمر ذائع لم يخالف فيه أحد.

وقد جاء وصفه بالتصوف ـ صريحاً ـ في مرثية نقلها تلميذه ابن عبد الهادي، وهي لرجل جندي بالديار المصرية يقال له بدر الدين محمد بن عز الدين أندمن المغيثي، «رجل فاضل له محفوظات متنوعة، وفيه ديانة وصلابة في دينه» كما وصفه ابن عبد لهادي.

ومما جاء فيها قوله:

ولَـهُ مقـامٌ فـي الوصـولِ لربِـهِ	ومقامُـهُ نطقـتْ بهـا الأقتـامُ
ولـهُ فتـوحٌ مـن غيـوبِ إلهِـهِ	وتحـزنٌ وتمسـكنٌ وكلامُ

وتصـــوفٌ وتقشـــفٌ وتعفـــفٌ وقـــراءةٌ وعبـــادةٌ وصيـــامُ
وعنايـــةٌ وحمايـــةٌ ووقايـــةٌ وصيانـــةٌ وأمانـــةٌ ومقـــامُ
ولـــه كرامـــاتٌ ســـمتْ وتـعـددتْ ولـــها علـــى مـــرِ الدهـــورِ دوامُ[1]

ومن ألقاب الصوفية التي أُطلقت عليه:

القطب

وصفه بذلك الحافظ الإمام الصوفي صلاح الدين العلائي، فقال: «العالم الرباني، والحبر البحر القطب النوراني».[2]

القطب عند أهل السلوك ـ كما يقول التهانوي ـ عبارة عن رجل واحد هو موضع نظر الله تعالى من العالم في كل زمان، ويسمّى بالغوث، أيضاً.[3]

يقول العلامة القلقشندي: «القطب والغوث من ألقاب الصوفية».[4]

وقال: «القطب من ألقاب الصوفية» وأهل الصلاح، وهو عندهم عبارة عن رأس الأولياء الذي عليه مدارهم».[5]

يبدو أنني كنت متواضعاً حين وصفت ابن تيمية بـ «الصوفي»، فهو في نظر العلائي ـ وهو إمام ناقد محقق ـ فوق ما نصف وأكبر.

إنه ليس صوفياً فحسب، بل قطبا من أقطاب الصوفية.

---

(١) «العقود الدرية» (ص٥٠٠)

(٢) «الدرر الكامنة» (١/ ١٨٦)

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون» (٢/ ١٣٢٧)

(٤) «صبح الأعشى»(٥/ ٤٧٢)

(٥) «صبح الأعشى» (٦/ ٢٤)

ولـم ينفـرد العلائـي بإطـلاق هـذا اللقـب عليه، بـل أطلقـه عليه أيضـا الأمير شـمس الديـن قـرأ سـنقر الذي وصفـه بـ « شـيخ الإسـلام قطب الأنـام». [1]

الرباني

وصفه به العلائي، كما تقدم.

قـال القلقشـندي: «الربانـي من ألقـاب الصوفية وأهـل الصـلاح، وربما لقب بـه العالـم فيقـال «العالـم الربانـي» قـال الجوهـري: وهـو المتألـه والعـارف بـالله تعالى». [2]

العارف[3]

وقد مر عن الإمام الكبير ابن الزملكاني أنه وصفه ذلك.

وهو من ألقاب أئمة الصوفية الذين لهم في التصوف قدم صدق.

قال الجنيد: «العارف الذي نطق الحق عن سره وهو ساكت». [4]

وسئل من العارف؟ فقال: «من نطق عن سرك وأنت ساكت». [5]

ويقـول ابـن القيـم: «العـارف فـوق السـالك، ولا يفارقـه السـلوك، لكنـه مع السـلوك قـد ظفـر بالمعرفـة، فأخـذ منهـا اسـما أخص مـن اسـم السـالك، وهكذا الشـأن فـي سـائر المقامـات والأحـوال، فإنها لا تفـارق من ترقـى فيهـا، ولكن إذا

---

(١) «الرد الوافر» (ص٢٠٨)

(٢) «صبح الأعشى» (٦/ ١٣)

(٣) انظر «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣١٤)، «الفتاوى الكبرى» (٦/ ٥)

(٤) «كشاف اصطلاحات العلوم» (٢/ ١٥٨٥)

(٥) «الرسالة القشيرية» (ص٧٨)

ترقى في مقام أخذ اسمه، وكان أحق به مع ثبوت الأول له».[1]

وقال يحيى بن معاذ: «العارف كائن بائن».

حكاه القشيري، ولم يسم قائله، ثم قال: «يعنى كائن مع الخلق، بائن عنهم بالسر».[2]

ونقله ابن القيم، ثم قال: «وهذا يفسر على وجوه:

منها: أنه كائن مع الخلق بظاهره، بائن عنهم بسره وقلبه.

ومنها: أنه كائن بربه بائن عن نفسه.

ومنها: أنه كائن مع أبناء الآخرة، بائن عن أبناء الدنيا.

ومنها: أنه كائن مع الله بموافقته، بائن عن الناس في مخالفته.

ومنها: أنه داخل في الأشياء خارج منها، فإن من الناس من هو داخل فيها لا يقدر على الخروج منها، ومنهم من هو خارج عنها لا يقدر على الدخول فيها، والعارف داخل فيها خارج منها، ولعل هذا أحسن الوجوه».

علم الزهاد

وصفه به شمس الدين الداوودي.[3]

يقول القلقشندي: «علم الزهاد من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح».[4]

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٠٧)

(٢) «الرسالة القشيرية»(ص٢٢٣)

(٣) «طبقات المفسرين» للداوودي(١/ ٤٦)

(٤) «صبح الأعشى» (٦/ ٦١)

السالك

وبذلك وصفه الإمام الحافظ صلاح الدين العلائي.[1]

ووصفه بذلك الشيخ عبد الرحمن بن قاسم النجدي، كما في مجموع الفتاوى»، أو أنه وصف من بعض رواة كتبه، وأقره على ذلك ابن قاسم.[2]

قال في «صبح الأعشى»: «السالك من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح، وهو فاعل من السلوك، والمراد سلوك سبيل الرشاد الموصل إلى الله تعالى، والسالكي نسبة إليه للمبالغة».[3]

الناسك

وصفه بذلك بعض الشيخ عبد الرحمن بن قاسم النجدي، كما في مجموع الفتاوى»، أو أنه وصف من بعض رواة كتبه، وأقره على ذلك ابن قاسم.[4]

قال القلقشندي: «الناسك من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح، ومعناه العابد أخذا من النسك، وهو العبادة».[5]

الجامع بين الظاهر والباطن

وهذا اللقب لا يطلقه الأئمة إلا على المتبحرين في علوم الظاهر وعلوم الصوفية، فهو من أرفع الأوسمة الصوفية.

---

(١) انظر «الدرر الكامنة» (١/ ١٨٦)

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣١٤)

(٣) (٦/ ١٤)

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣١٤)

(٥) «صبح الأعشى»(٦/ ٣٢)

والخبير بحياة ابن تيمية وعلومه ليس بحاجة إلى أن يقف على شهادة له بهذه الدرجة أو بهذا الوصف، فهي حقيقة تفرض نفسها ذهنياً على القارئ أو الباحث.

وقد وصفه بذلك الإمام عماد الدين ابن شيخ الحزاميين الصوفي الكبير.[1]

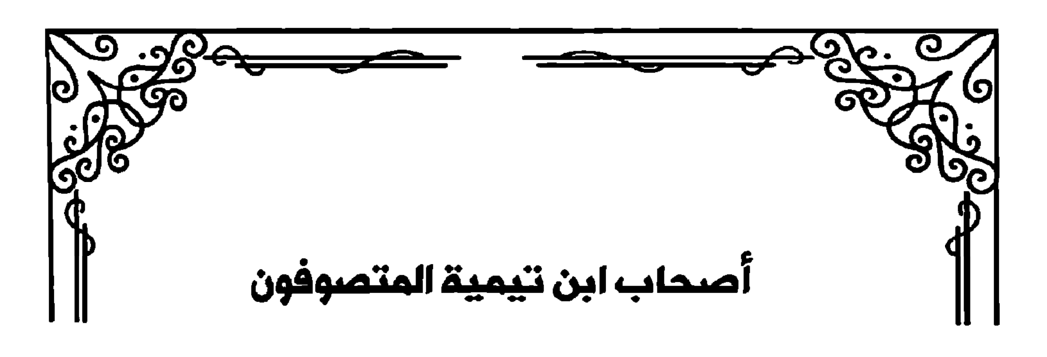
وقد سبق الحديث على هذا اللقب بإسهاب.

وهذه مجرد أمثلة، ولا نقصد الحصر، ولم أجهد نفسي في البحث عنها، لشهرتها بين أهل العلم.

والواحد منها كاف لندرك أن هذا العالم لم يكن عالما بالظاهر فحسب، بل كان أيضا عالما متبحراً في السلوك والتصوف.

* * *

(١) انظر «العقود الدرية» (ص٢٣٧)



أصحاب ابن تيمية المتصوفون

صحيح أن أصوات التحذير من ابن تيمية والحملات التي شنت ضده ولدت توجساً لدى الكثير من الطلاب والمريدين، إلا أن أصوات المزكين المعدلين الذين أقروا له بالتبحر في العلوم وانعدام النظير وشهدوا له بالتأله والزهد والعزوف عن الدنيا بقي لها صدى واسع، وحفظت مكانته الرفيعة لدى الكثير من الطالبين والراغبين والمريدين.

رغم آرائه التي انفرد بها وخالف فيها جماعة المسلمين وخرج عن الإجماع إلا أن كثيراً من العلماء الصوفيين والمريدين ظلوا شديدي الصلة به، لم يقبلوا التفريط في صحبته والتواصل معه.

على أنه يجب التنبه إلى أن أشهر تلاميذ ابن تيمية كانوا متصوفين، لبسوا خرقة التصوف، ودفن عدد منهم في مقبرة الصوفية، كالذهبي وابن كثير والمزي وابن مفلح، وغيرهم، كما شرحته في كتابي «الصوفية وموقف العلماء منها وحقيقة التهم الموجهة لها».

ولعل أشهر أصحابه المتصوفين الإمام ابن القيم، وكفى بكتابه «مدارج السالكين» دليلاً على تبحره في علوم الصوفية ومعارفهم.

وفي ترجمته يقول الداوودي: «وكان عالماً بعلم السلوك، وكلام أهل التصوف، وإشاراتهم ودقائقهم». [1]

وسأشير هنا إلى من لم أذكره في كتابي المذكور.

وقد أشار ابن تيمية نفسه إلى بعض أصحابه من الصوفية.

ابن قرباص

ومنهم: علي بن قرباص، وقد وصفه بذلك، فقال: «حدثني صاحبنا الفقيه الصوفي أبو الحسن علي بن قرباص أنه دخل على الشيخ قطب الدين ابن القسطلاني فوجده يصنف كتاباً». [2]

وقد نقلته سابقاً بتمامه.

ابن زكنون

ومنهم: الإمام العالم علي بن عروة، المشهور بابن زكنون الحنبلي أحد الأولياء الصالحين الذين كان الناس يتبركون بهم.

وكان ممن جبله الله تعالى على حب ابن تيمية. [3]

الزرعي

ومنهم: أحمد بن موسى الزرعي الشيخ الصالح، كان من كبار أصحاب ابن تيمية، انقطع بزرع مدة، ثم طار صيته، وقصده الناس للتبرك. [4]

---

(١) «طبقات المفسرين» (٢/ ٩٤)

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٤٣)

(٣) «المقصد الأرشد»(٢/ ٢٣٧)، «نيل الأمل في ذيل الدول» (٤/ ٣٤٩)

(٤) «الدرر الكامنة»(١/ ٣٨٣)

عبد الله الضرير

ومنهم: الشيخ الصالح العابد الناسك الشيخ عبد الله الضرير الزرعي، دفن في مقابر الصوفية، قريباً من الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله، وكان كثير التلاوة حسنها وصحيحها، كثير العبادة، يقرئ الناس من دهر طويل، ويقوم بهم العشر الأخير من رمضان في محراب الحنابلة بالجامع الأموي.[1]

الجزري

ومنهم: عبد الله بن موسى بن أحمد، الشيخ الصالح الجزري، كان شيخاً مباركاً، كثير الخير والعبادة، وله مطالعة وفهم ومعرفة، وعليه هيبة ووقار، وأقام بجامع دمشق سنين بمشهد أبي بكر مجاوراً متعبداً منقطعاً، وسمع الحديث من ابن البخاري، وحدث عنه، وكان يلازم الحضور عند الشيخ تقي الدين بن تيمية، ويسأله ويضبط عنه أشياء من العلم.[2]

خالد المجاور

الشيخ الزاهد خالد المجاور لدار الطعم، ودفن بداريا، صحب الشيخ تقي الدين بن تيمية، وله حال، وكشف، وكلمة نافذة.[3]

زين الدين البعلي

عبد الرحمن بن محمود بن عبيد البعلي، الفقيه الزاهد العارف، زين الدين أبو الفرج.

---

(١) «البداية والنهاية» (١٨/ ٤٧٦)

(٢) «أعوان النصر» (٢/ ٧٣٤)

(٣) «العبر» (٤/ ١٢٢)

برع وأفتى، وكان إماماً، عارفاً بالفقه وغوامضه، والأصول والحديث، والعربية والتصوف، زاهداً عابداً، ورعاً، متألهاً، ربانياً، صحب الشيخ عماد الدين الواسطي، وتخرج به في السلوك.

ويذكر له أحوال وكرامات، ويقال: إنه كان يطلع على ليلة القدر كل سنة.

وقد نالته مرة محنة بسبب حال حصل له، اطلع عليه بعض أصحابه، فأشاع ذلك عنه، وأظهر به خطه، فعقد له مجلس بدار السعادة بدمشق، حضره القضاة والفقهاء، وأحضروا خطه بأنه رأى الحق سبحانه وتعالى، وشاهد الملكوت الأعلى، ورأى الفردوس، ورفع إلى فوق العرش، وسمع الخطاب، وقيل له: قد وهبتك حال الشيخ عبد القادر، وأن الله تعالى أخذ شيئاً كالرداء من عبد القادر، فوضعه عليه، وأنه سقاه ثلاثة أشربة مختلفة الألوان، وأنه قعد بين يدي الله تعالى مع محمد وإبراهيم وموسى وعيسى والخضر عليهم السلام، وقيل له: هذا مكان ما يجاوزه ولي قط. وقيل له: إنك تبقى قطباً عشرين سنة.

وذكر أشياء أخرى، فاعترف أنه خطه، فأنكر ذلك عليه، فبادر، وجدد إسلامه، وحكم الحاكم بحقن دمه، وأمر بتأديبه، وحُبس أياماً.

ثم أُخرج، ومُنع من الفتوى وعقود الأنكحة، ثم بان له غلطه، وأن هذا لم يكن له وجود في الخارج، وإنما هي أخيلة وشواهد وأنوار قلبية، لا أمور خارجية، وشيخه الواسطي مع سائر أئمة الطريق أهل الاستقامة، وصوفية أهل الحديث يقررون ذلك، ويحذرون من الغلط فيه، كما زل في ذلك طوائف من أكابر الصوفية.

وكان رحمه الله قد تفقه على ابن تيمية ولازمه.[1]

---

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (٥/ ٥٠)

عماد الدين بن السراج

ومن علماء الصوفية المعظمين لابن تيمية الإمام العالم أبو بكر بن أحمد بن أبي الفتح بن إدريس بن سامة الدمشقي عماد الدين ابن السراج الصوفي.

وصفه ابن ناصر الدين الدمشقي بـ «الشيخ، المحدث، العالم، الفاضل، عماد الدين جمال المحدثين».[1]

ابن معن الصالحي

ومنهم: الشيخ الصالح العالم الإمام أبو بكر بن شرف بن محسن بن معن بن عمار الصالحي، فقد صاحبه في طلبة العلم والأخذ على الشيوخ، وكان يحبه كثيراً، ويكثر من ذكره، لشدة حبه وإعجابه به، وكان مع هذا صوفياً متنسكاً.[2]

قال ابن كثير: «سمع الكثير صحبة الشيخ تقي الدين ابن تيمية والمزي، وكان ممن يحب الشيخ تقي الدين، وكان معهما كالخادم لهما».

وقال: «له ميل إلى التصوف والكلام في الأحوال، والأعمال، والقلوب، وغير ذلك».[3]

وقال الصفدي: «أخبرني الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية، قال: هو رفيق الشيخ تقي الدين ابن تيمية في الاشتغال».[4]

---

(١) انظر «الرد الوافر» (ص٢٢١)

(٢) انظر «البداية والنهاية» (١٨/ ٣٠٥)، «الوافي بالوفيات» (١٠/ ١٤٨)، «الرد الوافر» (ص ١٣٥)، «الدرر الكامنة» (١٠/ ٥٢٩)

(٣) «البداية والنهاية» (١٨/ ٣٠٥)

(٤) «الوافي بالوفيات» (١٠/ ١٤٨)

وقال ابن ناصر الدين: «سمع الكثير مع الشيخ تقي الدين ابن تيمية، والشيخ جمال الدين المزي على شيوخهما، ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد الدائم، وله تعاليق ومؤلفات في الأصول وغيرها، وكان يتكلم على الناس من بعد صلاة الجمعة إلى العصر من حفظه، وله ميل إلى التصوف وأعمال القلوب، وكان يكثر ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية أقام في آخر عمره بحمص وبها». [(١)]

العلوي

ومنهم: إبراهيم بن أبي بكر العلوي، محدث اليمن، وعالمها، ومسندها، وهو من تلاميذ ابن تيمية بالإجازة.

وقد كان أحد أجل علماء الصوفية، لبس خرقة التصوف من جماعة من الكبار كطاووس الحرمين الحسن بن علي الواسطي ومحمد بن أحمد الأسدي اليمني، وله في لبس الخرقة طرق متنوعة ذكرها الشهاب أحمد الرداد في «كتاب الخرقة».[(٢)]

علي المغربي

قال ابن كثير: «أحد أصحاب الشيخ تقي الدين ابن تيمية بالجامع الأفرمي بسفح قاسيون، ودفن بالسفح رحمه الله، وكانت له عبادة، وزهادة، وتقشف، وورع، ولم يتول في هذه الدنيا وظيفة بالكلية، ولم يكن له مال، بل كان يؤتى بشيء من الفتوح يستنفقه قليلاً قليلاً، وكان يعاني التصوف». [(٣)]

---

(١) «الرد الوافر» (ص٢٢٢)

(٢) «فهرس الفهارس» (١/ ١٢٧)

(٣) «البداية والنهاية» (١٨/ ٥٠٦)

ابن قوام العارف

ومنهم: الشيخ الصالح العابد الناسك الورع الزاهد القدوة بقية السلف وقدوة الخلف - كما وصفه ابن كثير - أبو عبد الله محمد بن الشيخ الصالح عمر بن السيد القدوة الناسك الكبير العارف أبي بكر بن قوام بن علي بن قوام البالسي.[1]

وكان الشيخ العارف بالله أبو عبد الله ابن قوام يقول: «ما أسلمت معارفنا إلا على يد ابن تيمية».[2]

وابن قوام ترجم له الذهبي في «معجم شيوخه»، ووصفه بـ «الشيخ، الإمام، القدوة، السيد، العارف».[3]

وهو سليل أسرة صوفية، فقد كان جده إماماً، صوفياً، عارفاً، ولي مشيخة إحدى الزوايا الصوفية، صاحب كرامات، وكان له زاوية انقطع فيها ابن اقوام هذا.[4]

الأمير سيف الدين براق

ومنهم: الأمير سيف الدين براق أمير آخور.

دفن بمقابر الصوفية، وكان مشكور السيرة، كثير الصلاة والصدقة، محباً

---

(١) «البداية والنهاية» (١٨/ ١٨٢)

(٢) «شذرات الذهب»(٨/ ١٤٧)

(٣) «معجم الشيوخ الكبير» (٢/ ٢٦٠)

(٤) انظر «الدرر الكامنة» (٥/ ٣٨٣)

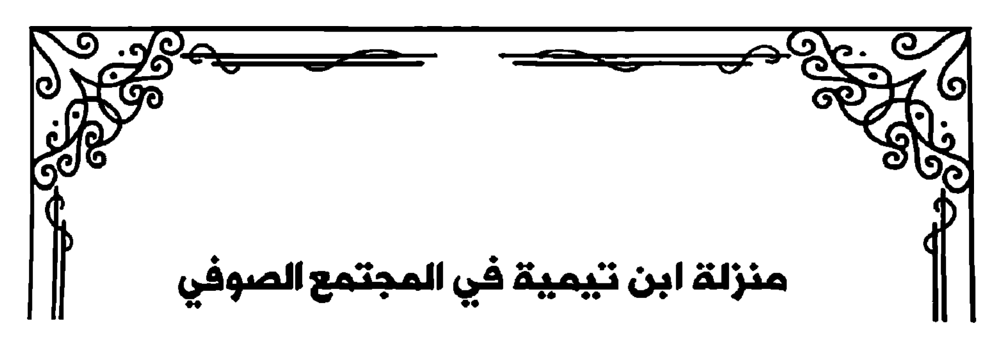
للخيـر وأهلـه، مـن أكبر أصحـاب الشـيخ تقي الديـن ابن تيميـة، كما قـال الحافظ ابـن كثير.[1]

وهذا غيض من فيض، كما يقال، والحقيقة أن أصحاب ابن تيمية ومحبيه جميعاً كانوا على اعتقاد حسن في السادة الصوفية، وإنما ذكرت هنا الشخصيات التي ذُكر في تراجمها علاقتها بالصوفية والتصوف.

* * *

---

(١) «البداية والنهاية» (١٨/ ٥٧٠)



منزلة ابن تيمية في المجتمع الصوفي

ظل التصوف ثقافة مجتمعية لدى الشعوب الإسلامية في عهد ابن تيمية وقبله وبعده، وكان الحكام والعلماء والأمراء والتجار يسارعون إلى خدمة الصوفية، ويحفظون لهم مكانتهم، ويحرصون على نيل رضاهم والظفر بدعائهم.

وبحكم الموقع والظروف فقد تجلى هذا الاهتمام والتعظيم عند الأمراء والسلاطين، وبالأخص منذ عهد نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، ومن بعدهما، فبنوا لهم الرباطات والخوانق، وأنفقوا عليهم ما لا يعلمه إلا الخالق، فعاشوا ملوكاً مكرمين، وكانت هذه الحفاوة إحدى أهم المظاهر التي تحرص عليها الدولة الإسلامية.

وكان لاهتمام الحكام والسلاطين بالتصوف دوافع مختلفة، إضافة إلى كونه يمثل روح الأمة وسر حياتها وقوتها والرافد الأقوى لتماسكها وتميزها.

ولعل من أهم الأسباب لدى الحكام وأصحاب القرار كون التصوف روح الإسلام في نظر عامة الشعب، الأمر الذي دفع الحكام إلى المزيد من العناية به، باعتبارهم مكلفين بتحقيق مطالب الشعوب وتحقيق رغباتها، وحرصاً منهم على نيل رضاها.

وبالنظر إلى الأمراء والسلاطين الذين كانوا يعظمون ويجلون الصوفية فقد

كان لابن تيمية عندهم حظوة كبيرة، وكانوا يقدرونه ويعظمونه، وتربطهم به صلات متينة، مما جعله مسموع الكلمة مهاباً لدى العام والخاص.

وفي هذا يقول الحافظ الذهبي: «وجبل الله قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له غالباً، وعلى طاعته».[1]

رأيت في كتب التاريخ وفي تراجم كثير من الأمراء والسلاطين هذا الانطباع، مثل «الملك الناصر محمد بن قلاوون» والأمير «قراسنقر الجوكندار»، و«براق أمير آخور»، و«قرمشى بن أفطوان» الحاجب، وغيرهم.

ولم يسعفني الوقت للنظر في سير أولئك الأمراء ومنزلة التصوف والصوفية لديهم، لكن من المستقر في تلك القرون أن للصوفية عند الحكام والمحكومين منزلة لا يبلغها أحد.

ومن البديهي أن أي حاكم في الدنيا لا يمكن أن يقوم بإكرام أحد يقف ضد عواطف الشعب الروحية.

فلو كان ابن تيمية خصماً للتصوف لما تلقى شيئاً من الاحترام والتقدير، ولكان إقصاؤه وقهره من أنجع السبل للتحبب إلى الشعوب.

ولهذا ـ باعتقادي ـ أن إكرام الحكام لابن تيمية يعكس علاقته الروحية بثقافة المجتمع الصوفية.

من الأمراء الذين كانوا يجلون ابن تيمية ويعظمونه، بل ويتعصبون له الأمير جنكلي بن محمد بن البابا، وقد ذكروا في ترجمته أنه كان يحب الصوفية (الفقراء)

---

(١) «شذرات الذهب» (٨/ ١٤٤)

وينفعهم، وكانت تربطه بالإمام تقي الدين السبكي علاقة حميمة، ومعروفة منزلة السبكي في التصوف ولدى الصوفية.[1]

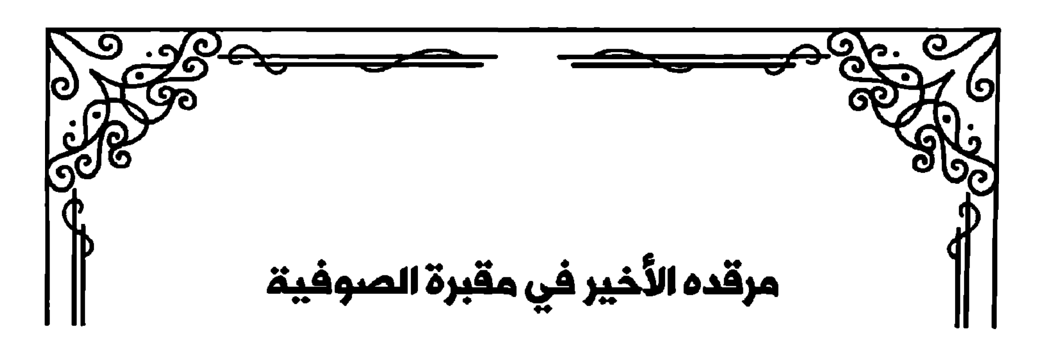
وفي المقابل فإن الذين آذوا ابن تيمية من الأمراء مثل بيبرس تعددت أسبابهم، وكان من أبرزها موقفه من صوفية ابن عربي، حيث فهم أن موقفه هذا فيه نيل من الصوفية عموماً.

وتتجلى مكانة ابن تيمية لدى المجتمع الصوفي يوم تشييع جنازته المهيبة، حيث شيعه العامة والخاصة، وتبركوا بالأعواد التي تقله، وألقوا عليها المناديل، ولم يتخلف أحد من أهل العلم، إلا نفر يسير من الشيوخ الذين بالغوا في عداوته وأذيته، تخلفوا عن شهود جنازته، واختفوا من الناس، خوفاً على أنفسهم، بحيث علموا أنهم متى خرجوا قتلوا، وأهلكهم الناس.[2]

* * *

(١) انظر الدرر الكاملة» (٢/ ٨٩)

(٢) انظر «الرد الوافر» (ص١٥٨)



مرقده الأخير في مقبرة الصوفية

كانت رحلة مثيرة مليئة بالأحدث الجسام، عمرها عالمنا العظيم بالعلم والعبادة والزهد والتصوف والجهاد ومقاومة الظالمين، إلى أن بلغ الكتاب أجله، وأسلم الروح لباريها، وفاضت نحو منزلها الأول، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾.

وافته المنية معتقلاً في سجن القلعة بمدينة دمشق، وهو مخبت، خاشع، لم تكف جوارحه عن التعبد والتذلل والتملق للرب الجليل.

لقد كان خبراً مفزعاً، وفاة العالم الاجتماعي الإنسان الذي أحبه العامة والخاصة والصغير والكبير، وشهد له بسمو الروح والتقدم في الفضائل العدو والصديق، والخصم والرفيق.

وما أن سمع الناس بهذا الخبر الجلل حتى ارتقلت الأفئدة وكادت تنخلع من مكانها، وخرج العام والخاص كلهم يرجون نظرة إلى ذلك الجسد الطاهر، أو إلى ذلك النعش الذي يحمل تلك الروح المقدسة، يرجون الحصول على ما يمكن الحصول عليه من بركة عَلَم الزهاد ـ كما وصفه به الأئمة ـ ولو بالسير بين يدي الأعواد التي تقله.

كان بجواره في سجن القلعة حين وفاته أخوه عبد الرحمن الذي قدمنا

ذكره، وغيره من تلامذته الذين صاحبوه في العسر واليسر والمنشط والمكره، وفور عروج روحه الزكية تولوا في محبسه تغسيله والصلاة عليه، وقد تولى الصلاة عليه الشيخ محمد بن أحمد تمام، الشيخ البركة، كما وصفه الصفدي، وهو أحد الصالحين المعمرين الذي جعل الله لهم في نفوس الخلق محبة وجلالة وتعظيماً.[1]

ثم نقل إلى جامع دمشق ليظفر بالصلاة عليه عامة الناس الذي طالما اعتقدوه وأحبوه وعظموه، وبعد قضاء الصلاة ازدحموا حول نعشه الطاهر، فألقوا عليه مناديلهم وعمائمهم يتبركون به، وتراص الناس تحت نعشه.

قال ابن كثير: «وحضر جمع كثير إلى الغاية إلى القلعة، فأذن لهم في الدخول عليه، وجلس جماعة عنده قبل الغسل، وقرؤوا القرآن، وتبركوا برؤيته وتقبيله، ثم انصرفوا، وحضر جماعة من النساء ففعلوا مثل ذلك ثم انصرفوا».[2]

وكان الحضور أمماً من الناس، حتى أن المؤرخين قدروا عدد النساء اللاتي حضرن جنازته بخمسة عشر ألف امرأة، وأما الرجال فقيل: كانوا مائتي ألف.

ولقد كان يوماً مظلماً وحدثاً قاسياً مؤرقاً، حول وجه دمشق الجميلة الفاتنة حزيناً كئيباً كالحاً، فتباكى الناس عليه وأكثروا من التأسف والحسرة.

فحملته أياديهم حتى وصلوا به إلى «مقبرة الصوفية»، وهنا بجوار سادة التصوف وأئمة الخواطر والكشف دفن هذا العالم الصوفي الإمام.

---

(١) انظر ترجمته في «أعوان النصر» (٤/ ٢٧٢)، «الوافي بالوفيات» (٢/ ١٠٧)، «فوات الوفيات» (٣/ ٣١٤)

(٢) «البداية والنهاية» (١٨/ ٢٩٦)

نعم، في مقبرة الصوفية، في مرقد الصوفية دفن ابن تيمية، حيث دفن أبوه الصوفي، وأمه الصوفية، وأخوه الصوفي، وخاله الصوفي، وكثير من أهل بيته الصوفية، وحيث دفن تلميذه الإمام الحافظ المزي الصوفي، وتلميذ الحافظ ابن كثير الصوفي، وغيرهم من الأئمة والعلماء المحققين الذين شكل التصوف جزءاً هاماً من شخصياتهم العلمية والروحية.

قال ابن كثير: «حمل إلى مقبرة الصوفية، فدفن إلى جانب أخيه شرف الدين عبد الله، رحمهما الله».[1]

ودفن ابن تيمية في مقابر الصوفية بحضور تلاميذه وأهله والمقربين منه شهادة متواترة تبلغ حد القطع واليقين بتصوفه.

فلو لم نجد في سيرته إلا مجرد دفنه في مقابر الصوفية لكان كافياً لوصفه بـ«ابن تيمية الصوفي»، فكيف وقد مرَّ بنا الكثير من المحطات والمسائل والمواقف والأحداث التي تثبت هذه اليقينية التي تطرق لها الشك لدى البعض في عصر التراجع العلمي والفكري والمعرفي والسلوكي.

وقد كان العلماء المتصوفون العارفون حريصين على التبرك بابن تيمية حتى وهو في قبره الشريف، فقد أوصى بعضهم بأن يدفن بجواره لنيل بركته ونفحاته في مرقده.

من هؤلاء الإمام العالم المقرئ شيخ القراء الأوحد الصالح العارف الكامل عبد الوهاب بن يوسف بن إبراهيم بن بيرم بن بهرام بن بختيار ابن السلار الذي

---

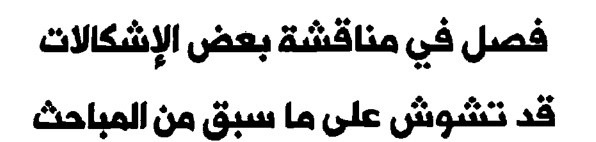
(١) «البداية والنهاية»(١٨/ ٢٩٦)

دفن بمقابر الصوفية جوار ابن تيمية، كما أوصى هو بذلك، وكان معظماً لابن تيمية معتقداً له.[1]

لقد صاحب التصوف ابن تيمية منذ ولادته وحتى مغادرته الحياة، فتقلب في أصلاب آباء متصوفين، وعاش وترعرع في أسرة صوفية، وصاحب ورافق رفقاء صوفيين، وأخذ العلم عن شيوخ الصوفية، وصحبه مريدو الصوفية والسالكون على هذا الطريق، ولا زال به التصوف حتى دُفن بمشيئة الله الحكيم الجليل في مقابر أهل الطريق، لينال من بركاتهم، وينالوا من بركاته.



(١) انظر «الرد الوافر» (ص ١٨٤)، «غاية النهاية» (١/ ٤٨٣)



سعة علوم ابن تيمية

مجانبة البدع وأهلها بين ابن تيمية والصوفية

الجهاد ومناهضة الظالمين بين ابن تيمية والصوفية

لغة ابن تيمية الحادة وعباراته القاسية

الخاتمة

* * *

مع كل الحقائق الجلية التي سبق تقريرها وتأكيدها من قلم ابن تيمية وأخباره التي نقلها عنه الثقات العدول، مع كل هذا قد يمعن البعض في اللجاج والعناد ويحاول التشويش على ما سبق ببعض القضايا التي لا يمكنها مدافعة بعض ما ذكرنا، فضلاً عن كل ما جاء في المباحث السابقة.

أدرك جيداً أننا في عصر يندر فيه المنصفون الموضوعيون الذين يبحثون عن الحقيقة غير متأثرين بالقناعات الجاهزة المعلبة، الأمر الذي يحتم علينا في كثير من الأحيان تقرير أوضح الواضحات والاستدلال لها، لكي نقطع ألسنة المعاندين، ونقيم الحجة، ونعذر أمام الله حيث استوفينا كل ما بوسعنا لنقل الحقيقة وتجليتها.

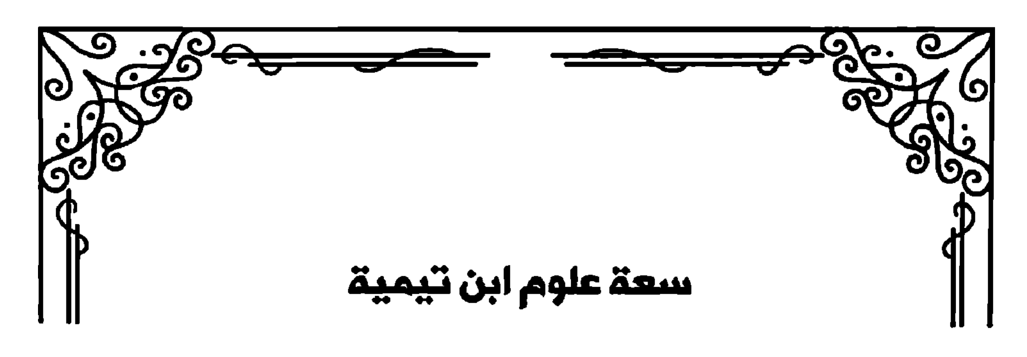
هذا من جانب.

ومن جانب آخر نعمل بحسن الظن مهما أمكن، ونقدر فيمن يخالفنا البحث عن الحق وقصده وإن ظهر منه الجهل والعماية والتعصب، فلعل الله يقذف في قلبه إيثار الحقيقة على العوائد والمألوفات.

يقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

وتلك الإشكالات المشار إليه قد يطرأ بعضها على محبي ابن تيمية المغالين فيه ـ بغير علم ـ بحيث تعكر ـ ولو من جهة نظرهم ـ على كل ما سبق تقريره.

كما قد تطرأ بعض تلك الإشكالات على الناقمين على ابن تيمية، وإن كان يغلب على ظني أن هؤلاء لو قرؤوا ما سبق بسطه فإن التصور السلبي عن هذا العالم الجليل لن يبقى له أثر.



سعة علوم ابن تيمية

ربما يعترض بعض من لا يعلمون على وصفنا بابن تيمية بـ «الصوفي» ـ مع كل ما ذكرناه ـ بكونه كان واسع العلوم، متبحراً في المعارف، مستجمعاً لأدوات الاجتهاد، بينما يعيش الصوفية حالة جهل مطبق، قد أعرضوا عن العلوم والمعارف، وركنوا إلى الظنون والأوهام والخرافة، وآثروا الجهل على العلم، وإن وجد لدى بعضهم نتف من العلم فهي حالة نادرة، وأما الرسوخ في العلم والتحقيق فلا سبيل لهم إليه.

فكيف يكون إذن صوفياً.؟!

هذا تصور سائد لدى قطاع عريض من خصوم التصوف.

وفي الحقيقة أن رمي الصوفية عموماً بالجهل نوع من الجهل أو التجاهل، فالتصوف في الأصل مبني على العلم كشرط أساسي فيه، ولا يوصف الشخص بكونه صوفياً إلا بعد جمعه للعلوم.

والموضوع ببساطة، أن التصوف هو علم تحقيق العبودية، وتحقيق العبودية لا يمكن أن يتم إلا بمعرفة الشريعة والتبحر فيها، والتصوف إنما هو ثمرة العلم.

ولهذا كان الإمام عبد الوهاب الشعراني يقول: «حقيقة الصوفي عالم عمل بعلمه على وجه الإخلاص لا غير».(1)

---

(1) «الأنوار القدسية» (١/ ٩٧، ١٩٥)، «اليواقيت والجواهر» (ص ٤٧١)

ويقول الإمام زروق: «الفقه والأصول شرط فيه (يعني في التصوف)، والمشروط لا يصح بدون شرطه».[1]

ويقول «لا تصوف إلا بفقه، إذ لا تعلم أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف، إذا لا حقيقة للعلم إلا بالعمل، ولا عمل إلا بصدق توجه، ولا هما إلا بإيمان، إذا لا يصحان دونه، فهو بمنزلة الروح، وهما بمنزلة الجسد، لا ظهور له إلا فيهما، ولا كمال لهما إلا به، وهو مقام الإحسان المعبر عنه: «بأن تعبد الله كأنك تراه».[2]

وهذا الوهم القائل إن الصوفية لا معرفة لهم بالعلم قد رد عليه ابن تيمية نفسه، فقال: « «مشايخ الصوفية الذين لهم في الأمة لسان صدق متفقون على وجوب تعلم العلم الشرعي».[3]

وأجمع شيوخ الصوفية على أنه لا يحل لأحد أن يتصدر للطريق إلا إذا تبحر في العلم.

قال الإمام أبو القاسم القشيري: «قد درج أشياخ الطريق كلهم على أن أحداً منهم لم يتصدر قط للطريق إلا بعد تبحره في علوم الشريعة».[4]

وقال الإمام عبد الوهاب الشعراني: «سمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله يقول: قد أجمع أشياخ الطريق على أنه لا يجوز لأحد التصدر لتربية المريدين إلا بعد تبحره في الشريعة وآلاتها، كما عليه السادة الشاذلية، فكان الشيخ أبو الحسن

---

(١) «عدة المريد الصادق» (ص٥١)

(٢) «عدة المريد الصادق» (ص٥٢)، «قواعد التصوف» (ص٢٢)

(٣) «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ١٧٩)

(٤) «الأنوار القدسية» (١/ ٦٣)

الشاذلي رضي الله عنه، وسيدي أبو العباس المرسي، وسيدي ياقوت العرشي، والشيخ تاج الدين بن عطاء الله، لا يدخلون أحداً في الطريق إلا بعد تبحره في علوم الشريعة، بحيث يقطع العلماء في مجالس المناظرة بالحجج الواضحة، فإن لم يتبحر كذلك لا يأخذون عليه العهد أبدا». [1]

وقال: «من هنا قالوا للمريد تفقه في دينك أولاً، ثم تعال وأبي نعيم الحافظ، الخطيب ادخل في الطريق». [2]

كان أئمة الطريق متبحرين في العلوم والمعارف يضرب المثل بتوسعهم في معرفة العلوم العقلية والنقلية، مثل الحارث المحاسبي، وأبي يزيد البسطامي، وذي النون المصري، والجنيد، ورويم، وابن خفيف، وأبي نعيم الحافظ، وأبي سعد الماليني، وأبي عبد الرحمن السلمي، وأبي القاسم القشيري، وأبي إسماعيل الأنصاري، وأبي ذر الهروي، وأبي حامد الغزالي حجة الإسلام، وعبد القادر الجيلاني، والشيخ محي الدين ابن عربي، وأبي الحسن الشاذلي، وابن عطاء الله، وأحمد زروق، والسيوطي، وزكريا الأنصاري، وعبد الوهاب الشعراني، وصولا إلى زماننا هذا.

فقد كانوا أوعية العلم وبحور المعارف والأسرار، وهي بديهية من البديهيات، لولا الجهل الذي حجب العقول عن المعرفة والاطلاع على أحوال الناس وإدراك منازل العلماء والطوائف وإسهاماتهم في خدمة العلم والقيام بالشريعة.

فالصوفية أئمة المسلمين في علوم الشريعة، كل العلوم، وقد يتوهم البعض أن الصوفية لا عناية لهم بعلم الحديث والرجال والجرح والتعديل.

---

(١) «المنن الكبرى» للشعراني (ص٥٣)

(٢) «الأنوار القدسية» (١/ ٦٦)

وهو وهم فاسد، فقد كانت للصوفية عناية فائقة بعلوم الحديث، ويكفيك أن تعرف أن جل من ألف في علوم الحديث كانوا بين متصوف، وآخر معظم لهم، كأبي سعيد الأعرابي، والدارقطني، والحاكم، والبيهقي، وأبي نعيم الحافظ، والخطيب، وابن الصلاح، وابن دقيق العيد، والسبكي، والذهبي، والدمياطي، والمزي، وابن حجر العسقلاني، والسخاوي، والسيوطي، والقاري، وغيرهم.

ومما له علاقة بموضوعنا ما ذكره الداعية صاحب رسالة «موقف ابن تيمية من الصوفية» التي نال بها درجة الدكتوراه! وهو بصدد ذكر ما أسماه «أسباب انحرافات الصوفية»[1] حيث ذكر أول سبب وهو «قلة العلم بالدين عامة، والجهل بأسماء الله وصفاته».

ثم استشهد بقول ابن تيمية: «وهؤلاء الاتحادية وأمثالهم إنما أتوا من قلة العلم والإيمان بصفات الله التي يتميز بها عن المخلوقات».[2]

وهي مغالطة مكشوفة، بل تزوير ونسبة موقف لابن تيمية لم يتبنه، ولم يشر إليه ولو إشارة، وأنت تلاحظ أن ابن تيمية يتحدث عن الاتحادية، ولم يتحدث عن الصوفية، وقد سبق التنبيه من كلامه أن الاتحادية ليسوا من الصوفية.

ثم يستشهد هذا الداعية بما نقله ابن تيمية عن فريق من الصوفية ـ كما قال ـ ذموا طلب العلم ونفروا منه.

وهذا أيضاً نوع من المغالطة حيث ينسب سلوك فريق محدود إلى المذهب كله، ومن المعروف أن هذا الفريق المشار إليه من الجهلة قد حذر منه علماء

---

(١) انظر «موقف ابن تيمية من الصوفية» (١/ ٢٤١)

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٥٨)

الصوفية، وبادروا إلى الإنكار عليه، كما شرحته باستفاضة في كتابي «الصوفية وموقف العلماء منها وحقيقة التهم الموجهة لها».

ولا تزال مدارس الصوفية وأربطتهم إلى يومنا هذا حريصة على التعليم ونشر العلم واعتباره أساساً في السلوك والتصوف.

فالادعاء بأن الصوفية لا يعنون بالعلم دعوى يكذبها الواقع والتاريخ وجميع أو جل كتب العلم التي بين أيدينا.

ثم تعرض هذا الداعية للسبب الثاني من أسباب انحراف الصوفية ـ كما قال ـ وهو «تقديم الاشتغال بالعبادة والتأله على الاشتغال العلم».

وهذا كلام من لا يعلم شيئاً من الصوفية والتصوف، فالصوفية مجمعون على أن المريد أو السالك يجب عليه أولاً أخذ العلم وجمعه والتبحر فيه، ومن ثمَّ الانقطاع للتصوف والفقر، حيث إن العلم شرط لصحة التصوف، كما رأيت في كلام الإمام المحقق العارف أحمد زروق، والشعراني، وقبلهما الإمام أبو القاسم القشيري، وغيرهم.

ولا عبرة بالجهلة من أدعياء التصوف الذين يرومون الوصول إلى مقامات التصوف دون البدء بتحصيل العلم، فهم خارجون عن طريق الصوفية، شاذون، ولا يجوز الاستناد إلى جهلهم، والتغافل عن المنهجية العامة لأصحاب الطريق، لا سيما بعد موقف علماء الصوفية الصارم من هؤلاء الأدعياء.

إن علماء الصوفية هم أعمق علماء الإسلام، وأدقهم، وأكثرهم غوصاً في العلوم ومعانيها وحقائقها، ولهذا اشتهروا بعلم الحقيقة والشريعة، وعلم الظاهر والباطن، وهو مجال لا يدانيهم فيه أحد، حتى كان الشيخ العارف إبراهيم

المسوقي القرشي يقول: «لو فتح الحق تعالى عن قلوبكم أقفال السدد لاطلعتم على ما في القرآن من العجائب، والحكم، والمعاني، والعلوم، واستغنيتم عن النظر في سواه، فإن فيه جميع ما رقم في صفحات الوجود قال تعالى ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾، ومن فهمه الله تعالى في كتابه أعطاه تأويل كل حرف منه، وما هو، وما معناه، وما سبب كل حرف، وما صفة كل حرف، وعلم المكتوب من الحروف في العلوي، والسفلي، والعرش، والكرسي، والسماء، والماء، والفلك، والهواء، والأرض، والثرى».[1]

وحول هذه الحقيقة يقول الإمام أحمد زروق: «نظر الصوفي للمعاملات أخص من نظر الفقيه، إذ الفقيه يعتبر ما يسقط به الحرج، والصوفي ينظر فيما يحصل له الكمال، وأخص أيضا من نظر الأصولي، لأن الأصولي يعتبر ما يصح به المعتقد، والصوفي ينظر فيما يتقوى به اليقين، وأخص أيضاً من نظر المفسر وصاحب فقه الحديث، لأن كلا منهما يعتبر الحكم والمعنى ليس إلا، وهو يزيد بطلب الإشارة بعد إثبات ما أثبتاه، وإلا فهو باطني خارج عن الشريعة».[2]

هذا من ناحية العمق في العلوم.

وهم أيضاً أعمق من ناحية الجمع لمختلف العلوم والمعارف، وكان هذا أحد الأسباب في كون الصوفية لم يتسموا باسم علم معين «كالفقهاء»، أو «المحدثين»، أو «المفسرين»، ونحوها.

---

(١) «الطبقات الكبرى»(١/ ١٤٤)

(٢) «قواعد التصوف» (ص٤٩)

يقول الإمام أبو نصر السَّرَّاج: «إن سأل سائل فقال: قد نسبت أصحاب الحديث إلى الحديث، ونسبت الفقهاء إلى الفقه، فلمَ قلت: «الصوفية»، ولم تنسبهم إلى حال ولا إلى علم، ولم تضف إليهم حالاً، كما أضفت الزهد إلى الزهاد.

فيقال: لأن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع، ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم، وذلك لأنهم معدن جميع العلوم، ومحل جميع الأحوال المحمودة، فلما كانوا في الحقيقة كذلك لم يكونوا مستحقين اسماً دون اسم». [1]

وهذا الباحث يذكر هذا الانحراف المنهجي عن فريق من الصوفية، وهو مع ذلك يعمم فينسب هذا الخطأ إلى الصوفية عموماً.

وهو شيء مؤسف، فقد ذكر في البحث نفسه أن من مميزات منهجية ابن تيمية في نقد الفرق وعرض الأقوال «البعد عن التعميم عند حكاية الرأي، والحكم عليه»![2]

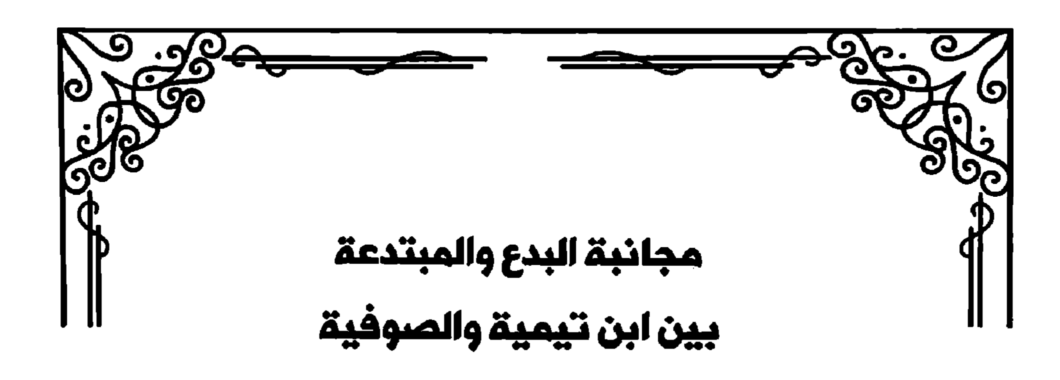
وها أنت ترى هذا الباحث يخالف هذه المنهجية التي سجلها بقلمه، ونسبها إلى ابن تيمية نفسه.!

* * *

---

(١) «اللمع في التصوف» (ص٤٠)

(٢) «موقف ابن تيمية من الصوفية» (١/ ١٤٧)



مجانبة البدع والمبتدعة بين ابن تيمية والصوفية

ربما يعترض البعض على كون ابن تيمية صوفياً بحكم أنه كان شديد المجانبة والمنابذة لأهل البدع والأفكار المنحرفة الدخيلة، وقد خاض معهم صولات وجولات يعرفها الجميع، ووصفه أهل زمانه بـ «محيي السنة» وبـ «قامع البدعة»، وبـ «ناصر الشريعة»، ولم يدع طائفة منهم إلا وسلط عليها سهامه وسنانه وسيفه ورمحه حتى جعلهم كأمس الدابر.

وهذا ـ كما يتوهم المعترض ـ لا ينسجم مع جوهر الصوفي الذي يميل إلى السكون والدعة وتجنب المصادمة مع الأفكار الأخرى، بل ربما مهد لها الطريق وتشربها وقبلها بحلوها ومرها.

ومثل هذه التصورات إنما تنشأ بسبب البعد عن المخالفين وعدم التعرف عليهم من خلال سلوكهم ومصادرهم ومواقفهم، فتتكون حينها تصورات مشوهة بعيدة عن الحقيقة.

ربما يكون بعض المتصوفة كذلك، لكنها مواقف فردية لها ظروفها وملابستها، وليست منهجاً عاماً وطريقة متبعة.

فالصوفية اتجاه فكري سلوكي ضمن إطار أهل السنة والجماعة ـ كما سبق

إثباته من كلام ابن تيمية نفسه ـ وليس لهم مصادر ولا مناهج في التربية والتعليم غير مناهج أهل السنة ومصادرهم.

ففي الفقه يتوزعون على مذاهب أهل السنة الأربعة، وفي الاعتقاد ينتشرون في مدارس أهل السنة الثلاث، الأشاعرة، والماتريدية، والحنابلة، أو أهل الحديث.

وهذا التموضع بالطبع سينتج عنه مباينة واختلاف كبير مع الطوائف الإسلامية الأخرى التي تنازع في هذه المصادر والمناهج السنية العريقة.

ولهذا كان للصوفية مواقف حادة من تلك الأفكار التي سعت لتكدير صفاء الشريعة، أو تغيير ملامحها، والانقضاض على ثوابتها ومسلماتها.

ولسنا بحاجة ـ لمعرفة هذه الحقيقة ـ إلى تتبع الكتب الخاصة بالصوفية، بل في المصادر التي يعتمد عليها المخالفون للصوفية ما يؤكد هذا النهج الصوفي بإسهاب وتوسع.

ولو أننا انتزعنا أشهر الكتب التي نعتمد عليها في مواجهة البدع والمبتدعين ـ وهو كتاب «الاعتصام» للشاطبي ـ لرأينا هذه الحقيقة كما نرى الشمس في ساعة الضحى والسماء صافية.

فقد عقد فصلاً طويلاً لشرح موقف الصوفية الرافض للبدع وأهلها، ونقل عن أئمة الصوفية ومؤسسي الطريقة هذا الموقف الصارم، فراجعه تظفر بعلم غزير.

وأكد رحمه الله على أن الوهم الذي يقول إن الصوفية يتساهلون في البدع أو مع المبتدعة إنما طرأ في عقول الجهال، فهو إذن نتاج الجهل.

فقال: «وإنما خصصنا هذا الموضع بالذكر وإن كان فيما تقدم من النقل كفاية، لأن كثيراً من الجهال يعتقدون فيهم أنهم متساهلون في الاتباع، وأن اختراع

العبادات، والتزام ما لم يأت في الشرع التزامه مما يقولون به ويعملون عليه، وحاشاهم من ذلك أن يعتقدوه أو يقولوا به، فأول شيء بنوا عليه طريقتهم اتباع السنة واجتناب ما خالفها». [1]

وقد سبق في المباحث السابقة ما هو كاف لمن طلب الحق.

وتقدم قول الإمام أبي القاسم القشيري: «شيوخ هذه الطريقة بنوا قواعدهم على أصول صحيحة في التوحيد، صانوا بها عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد». [2]

وأكد في رسالته على أن الصوفية إنما سلكوا هذا السبيل ابتعاداً عن سبل أهل البدع وطرائقهم البعيدة عن الكتاب والسنة.

يقول الإمام عبد الوهاب الشعراني: «وإنما خصصنا كغيرنا طريق الشيخ أبي القاسم الجنيد بمزيد التقويم وأن كل من سلكها نجا لأنها كما قال الجلال المحلي وغيره طريق خال من البدع، دائر على التسليم والتفويض لله تعالى والتبري من حو النفس». [3]

وهو منهج تلقاه علماء الصوفية كابرا عن كابر.

وعليك بما أشرت إليه في كتاب الاعتصام، فقد أطال النفس فيه.

يقول الشاطبي: «وقد نقلنا عن جملة ممن اشتهر منهم ينيف على الأربعين شيخاً، جميعهم يشير أو يصرح بأن الابتداع ضلال والسلوك عليه تيه، واستعماله

---

(١) «الاعتصام»(١/ ١٤٩)

(٢) «الرسالة» (ص٤١)

(٣) «اليواقيت والجواهر» للشعراني (ص٤٧٣)

رمي في عماية، وأنه مناف لطلب النجاة، وصاحبه غير محفوظ، وموكول إلى نفسه، ومطرود عن نيل الحكمة، وأن الصوفية الذين نسبت إليهم الطريقة مجمعون على تعظيم الشريعة، مقيمون على متابعة السنة، غير مخلين بشيء من آدابها، أبعد الناس عن البدع وأهلها، ولذلك لا نجد منهم من ينسب إلى فريق من الفرق الضالة، ولا من يميل إلى خلاف السنة».

وقال: «وهم كانوا أهل الحقائق والمواجد والأذواق والأحوال والأسرار التوحيدية، فهم الحجة لنا على كل من ينتسب إلى طريقهم ولا يجري على منهاجهم، بل يأتي ببدع محدثات، وأهواء متبعات، وينسبها إليهم، تأويلا عليهم، من قول محتمل، أو فعل من قضايا الأحوال، أو استمساكاً بمصلحة شهد الشرع بإلغائها، أو ما أشبه ذلك».

«فكثيراً ما ترى المتأخرين ممن يتشبه بهم، يرتكب من الأعمال ما أجمع الناس على فساده شرعاً، ويحتج بحكايات هي قضايا أحوال، إن صحت لم يكن فيها حجة، لوجوه عدة، ويترك من كلامهم وأحوالهم ما هو واضح في الحق الصريح، والاتباع الصحيح، شأن من اتبع من الأدلة الشرعية ما تشابه منها، ولما كان أهل التصوف في طريقهم بالنسبة إلى إجماعهم على أمر كسائر أهل العلوم في علومهم، أتيت من كلامهم بما يقوم منه دليل على مدعي السنة وذم البدعة في طريقتهم، حتى يكون دليلاً لنا من جهتهم على أهل البدع عموما، وعلى المدعين في طريقهم خصوصاً».[1]

وشهد ابن تيمية لأئمة التصوف شهادة عامة برفض البدع، وفضل مواقفهم

---

(١) «الاعتصام» (١/ ١٣٠)

من البدع على مواقف كثير أئمة الفقهاء، فقال: «وهؤلاء المشايخ الموجودون في هذه الكتب[1] ليس فيهم من هو معروف باعتقاد مذهب الباطنية المخالف للظاهر، بل لهم من الكلام في نقيض ذلك، بل في رد البدع الصغار وحفظ الشريعة باطنًا وظاهرًا من الكلام والقوة في ذلك والموالاة عليه والمعاداة عليه ما لا يوجد كثير منه لكثير من أئمة الفقهاء، وحذاق الشيوخ أكثر عناية بالرد على الجهمية من كثير من حذاق الفقهاء، لاسيما الكاملين في التصوف منهم». [2]

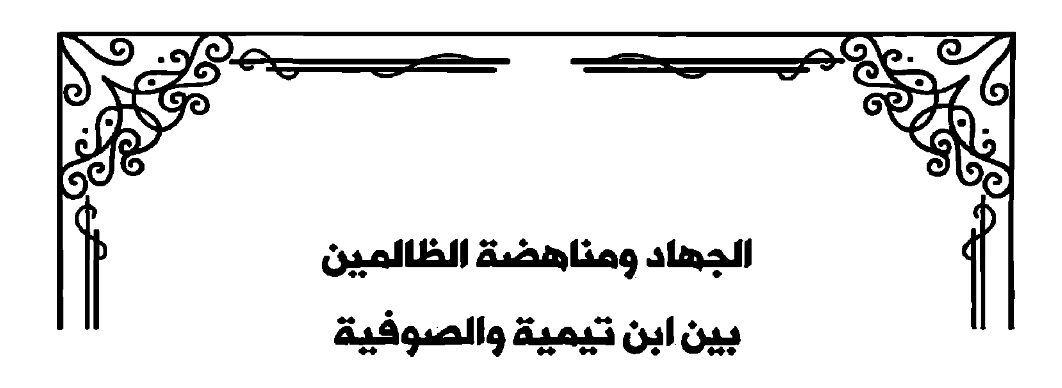
وقد بسطت الحديث عن هذا الموضوع في كتابي «الصوفية وموقف العلماء منها وحقيقة التهم الموجهة لها».

* * *

---

(١) يقصد «حلية الأولياء» لأبي نعيم، و«طبقات الصوفية» للسلمي، و«الرسالة» للقشيري، و«صفة الصفوة» لابن الجوزي.

(٢) «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ١٧٧)



الجهاد ومناهضة الظالمين بين ابن تيمية والصوفية

كيف يكون ابن تيمية صوفياً، وهو المقدام الضرغام صاحب الشجاعة المفرطة والقلب الثابت الصلب الذي لا يهاب أحداً إلا الله، بل يتضاءل أمامه الجبارون المتغطرسون.

بينما الصوفية يعانون من الضعف والعجز والخمول وإيثار السلامة وتجنب المواجهة مع أقل الناس ظلماً، فأين أولئك الضعفاء من ذلك الإمام المجاهد صانع النصر في معارك المسلمين ضد التتار.؟!

هكذا يتوهم الناقمون على الصوفية.

وهذا التصور ـ كسابقه ـ لا يستند إلى واقع تاريخي أو حقيقة علمية، وإنما هو واقع متوهم مصنَّع نسجته أيادٍ طالما سعت لنقض ما تبقى من تراثنا الفكري والأدبي والسلوكي في طريق مساعيها لتغيير وتبديل الهوية الإسلامية.

ومن لديه أدنى عناية بالتاريخ الإسلامي العريض لن تخفى عليه بصمات الصوفية، ولا إسهاماتها في صنع الانتصارات وتثبيت دعائم الدولة الإسلامية التي حكمت الشرق والغرب، فقد كان الصوفية يمثلون الروح التي تمنح العزم والهمة والاندفاع نحو البناء والجهاد ومواجهة الغزاة والدفاع عن بيضة الإسلام وحرمات المسلمين.

إن حقيقة التصوف تتمثل في بناء الإنسان الكامل الصلب الشجاع الذي لا يكاد يرى للخلق فعلا أو تأثيرا، ولهذا عرفه حجة الإسلام الغزالي بقوله: «التصوف عبارة عن تجرد القلب لله تعالى، واستحقار ما سوى الله». [1]

وكيف لمن تلقى هذه التربية أن يجد في نفسه مكاناً للخوف من المخلوقين أو إيثار السلامة والبعد عن ركوب الأهوال.

بل قالوا في تعريف التصوف: «التصوف مصابرة المنون، دون تحقيق الظنون». [2]

كان أبو حمزة الصوفي فارسا غازياً، وكان له مُهْر يحب الغزو عليه، شارك في الجهاد إلى بلاد الروم. [3]

وكذلك كان الإمام أبو القاسم الجنيد، ولم يكن ناسكاً معتزلاً للحياة في زاويته، بل كان مجاهدا يسير مع جيوش الإسلام ويلتحق بمعاركهم.

وكان إسماعيل بن أحمد (أخو إبراهيم الخواص) أحد أعيان الصوفية، كثير الغزو والجهاد في سبيل الله، قال الخطيب البغدادي: «كان مذكوراً بالفضل والخير، وكثرة الغزو والحج». [4]

وذكر في ترجمة العارف الصوفي أبي تراب النخشبي أن شيخه «المذبوح» سمى المذبوح لأنه غزا في البحر، فأخذه العدو، فأرادوا ذبحه، فدعا بدعاء، ثم رمى نفسه في البحر، فجعل يمشي على الماء حتى خرج.

---

(١) «إحياء علوم الدين»(٢/ ٢٥٠)

(٢) «حلية الأولياء» (١/ ٢٤٤)

(٣) انظر «تاريخ بغداد» (٢/ ٢٧٤)

(٤) «تاريخ بغداد» (٧/ ٢٦٦)

وقيل: أرادوا ذبحه، فكانوا كلما وضعوا الشفرة على حلقه انقلبت، فضجروا وتركوه.[1]

وكان الإمام تقي الدين الحصني فارساً غازياً شجاعاً بطلا، وكان يتقدم صفوف المقاتلين.[2]

إن أبرز حركات النضال والجهاد والفتوح الإسلامية كانت صوفية الروح والتوجه، ويأتي في مقدمتها فتح بيت المقدس الذي تمَّ على يد القائد الصوفي البطل السلطان صلاح الدين الأيوبي، ذلك القائد الذي مهد لهذا الفتح العظيم بدعم التصوف وإعادة نشره في المجتمع الإسلامي الذي أصابه ـ في بعض حقب التاريخ ـ الخواء الروحي، فقام رضي الله عنه ببناء الأربطة والزوايا الصوفية، وأعاد للمجتمع الإسلامي روحه، وعندما اكتمل البناء الروحي وثب بجيشه الفاتح العظيم نحو أقدس البقاع بعد مكة والمدينة لتطهيرها من شرك المشركين، وكان الصوفية في مقدمة الصفوف يجالدون وينابذون ويكرون ولا يفرون.

قال ابن خلكان، فقال: «وكان فتحه عظيماً، شهده من أهل العلم خلق، ومن أرباب الخرق والزهد عالم».[3]

وأرباب الخرق، هم الصوفية.

وقد وصف أحد الشعراء السلطان صلاح الدين بقوله:

ملك لَهُ فِي الْحَرْب بحر تفقه ... وله غداةَ السّلمِ زهدُ تصوفِ[4]

---

(١) انظر «طبقات الأولياء» (ص٣٥٥)

(٢) انظر «كرامات الأولياء» للنبهاني(١/ ٦٢٢)

(٣) «وفيات الأعيان» (٧/ ١٧٩)

(٤) انظر «الروضتين» (٣/ ٣٦٦)

ومن ملوك الإسلام الأمجاد الأبطال الذين كان لهم ولع بالصوفية والتصوف، الملك المظفر صاحب إربل، وهو الذي عمل المولد النبوي، وكان يحضره أعيان العلماء والصوفية. (١)

وكذلك صاحب حلب غياث الدين غازي، كان معظما لابن عربي، وهو أحد الأبطال المغاوير، والفاتحين المشاهير، وهو الذي هزم جحافل الصليبيين وصدهم عن حلب.

ولما احتل الصليبيون دمياط، سار إليهم جيش المسلمين من المنصورة، وكان في عسكر المسلمين الإمام عز الدين بن عبد السلام، وكانت النصرة أولاً للفرنج، وقويت الريح على المسلمين، فصاح عز الدين بأعلى صوته مشيرا بيده إلى الريح: «يا ريح خذيهم»، عدة مرار، فعادت الريح على مراكب الفرنج فكسرتها، وكان الفتح، وغرق أكثر الفرنج، وصرخ من المسلمين صارخ: «الحمد لله الذي أرانا في أمة محمد ﷺ رجلا سخر له الريح»، وأسر في تلك المعركة الفرنسيس ملك الفرنج، وحبس مقيدا بدار ابن لقمان. (٢)

ولما داهم التتار البلاد وضاقت بالسلطان وعساكره الأرض استشاروا الشيخ عز الدين رحمه الله فقال: «اخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر».

وما زال السلطان يشرح للإمام ابن عبد السلام مخاوفه، والعز يثبته ويشجعه ويحثه على المقاومة والقتال ويرشده إلى حلول لتجاوز المعوقات. (٣)

---

(١) انظر «البداية والنهاية» (١٧/ ٢٠٥)

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى» (٨/ ٢١٦)، «حسن المحاضرة»(٢/ ٣٥)

(٣) «طبقات الشافعية الكبرى» (٨/ ٢١٥)

وقد كان ابن تيمية أحد الشهود العدول على الأدوار البطولية للصوفية في الجهاد والذود عن حياض المسلمين، ففي رسالته إلى أتباع الطريقة «العدوية» بعد أن وصفهم بالانتساب إلى السنة والبعد عن البدع، قال: «ولهذا كثر فيكم من أهل الصلاح والدين وأهل القتال المجاهدين ما لا يوجد مثله في طوائف المبتدعين، وما زال في عساكر المسلمين المنصورة وجنود الله المؤيدة منكم من يؤيد الله به الدين ويعز به المؤمنين».[1]

وتمضى الأيام ولا يكاد يعرف التاريخ نصرا للمسلمين ولا فتحا أعز الله به الدين إلا وتحقق على يد أمثال هؤلاء من الأبطال المتصوفين، حتى تصل بنا الأيام إلى فتح قسطنطينية الذي تحقق على يد السلطان التركي الخالد محمد الفاتح، ذلك السلطان العالم الصالح المتصوف، وقد مضى في فتحه هذا بصحبة شيوخ التصوف، مستهدياً بهم، مستنيرا بإشاراتهم، حتى تمَّ الفتح الذي بشر به الرسول ﷺ، حين قال: «لتفتحنَّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش».[2]

واستمرت الدولة التركية منذ نشأتها على الطريقة الصوفية، تبث هذه الروح في جيوشها ومقاتليها الذين فتحوا العالم وخضع لهم الشرق والغرب، وكانوا ـ كغيرهم ـ ممن سبقهم من الملوك والسلاطين المسلمين يرون أن التصوف روح الأمة الذي لا يمكن لها أن تحقق نصراً أو تحرزا مجداً إلا به.

كما نشأت بالمغرب دول إسلامية شكَّل التصوف روحها القتالية، فغيرت مجرى التاريخ، وضرب بها المثل في جهادها وقوتها ومنعتها، وكان لها في

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٧٦)

(٢) أخرجه أحمد (رقم ١٨٩٥٧)

الحروب الصليبية ونشر الإسلام وفتوح المغرب وإفريقيا صولات وجولات، كدولة «المرابطين»، ودولة «الموحدين».

ثم لم تزل الحركات الصوفية في المغرب تقوم بالدور الجهادي، ومقارعة الغزاة، وتطهير البلاد الإسلامية، والتصدي لزحوف الصليبيين، حتى جاءت الحركة السنوسية الصوفية في ليبيا، فتولت على عاتقها مهمة الجهاد وتحرير الأرض من الاستعمار، وكان مؤسس هذه الطريقة الإمام محمد بن علي السنوسي، عالم، متكلم، صوفي على الطريقة الشاذلية، ومن خريجي هذه المدرسة السنوسية المجاهد الكبير عمر المختار الذي دوَّخ الإيطاليين، وأصبح رمزا للمجاهدين والمناضلين الأحرار.

وفي الجزائر هبَّت رياح المقاومة في وجه الفرنسيين تحت قيادة الأمير عبد القادر الجزائري، شيخ شيوخ الصوفية في زمانه، وتفجرت بعده في وجه الفرنسيين أيضا ثورات طاحنة على أيدي قادة عظماء من الصوفية، مثل الشيخ الشهيد محمد المقراني، والشيخ بوعمامة، وغيرهما، وكانت الصوفية من الطرق الرفاعية والقادرية والشاذلية حاضرة في جهاد المستعمر في جميع مراحل الكفاح المسلح.

وفي السودان تفجرت الثورة المهدية في وجه الاستعمار الانجليزي، وهي نسبة إلى الشيخ محمد بن أحمد المهدي، وكانت ثورته صوفية في روحها، صوفية في عناوينها وشعاراتها، فألحق بالانجليز هزائم قاسية، بشجاعة فائقة ونادرة.

قال ابن البيطار: «وكان أمره معهم عجيباً، يأتون إليه بالعساكر الكثيرة، والمدافع والآلات الشهيرة التي لا يطيق أحد مقابلتها، فيقابلهم بجيوشه السودانيين، وليس معهم إلا السيف والرمح والسكاكين، فيهجمون على تلك العساكر في موضعهم

ومحط جيشهم، ولا يبالون بمدافعهم وآلاتهم، حتى يخالطوهم، ويقتلوا أكثرهم من قرب، طعناً بالرماح، وضرباً بالسيوف والسكاكين، ويشتتون شملهم». [1]

وفي مصر كان التصوف روح الثورة العرابية، وكان أحمد عرابي القائد الشهير صوفيا، من أسرة عريقة التصوف، وتمَّ تأسيس مجلس القيادة الأعلى الذي شكله العالمان الصوفيان الشيخ حسن العدوي، صاحب كتاب «نفحات الشاذلية»، والشيخ محمد عليش، وهما من مشاهير الفقهاء.

وفي حملة نابليون على مصر، قتل نابليون عدداً من شيوخ الصوفية، لما كان للصوفية من دور كبير في مقاومة الاحتلال الفرنسي، وممن قاد الثورة ضده، الشيخ محمد السادات، شيخ السادة الوفائية، قائد ثورة القاهرة الأولى سنة ١٧٩٨م، والشيخ عمر مكرم، نقيب الأشراف، الذي قاد ثورة القاهرة الثانية عام ١٨٠٠م.

ومن جملة القادة الثائرين الصوفية في وجه الاستعمار الفرنسي، الشيخ علي البكر الصديقي، شيخ السجادة البكرية.

وفي فلسطين غير خاف جهاد شيخ المجاهدين والمقاومين الشيخ عز الدين القسام رمز المقاومة الفلسطينية الأول، وقد كان صوفيا، وكان والده من أعيان بلده، ومن المشتغلين بالتصوف.

وهذه سلسلة طويلة، وبإمكانك مراجعة كتاب «البطولة والفداء عند الصوفية» لأسعد الخطيب، لتقف على المزيد من جهاد الصوفية وبطولاتهم ووقوفهم في وجه المستعمرين في الشام، والمغرب، وفي اليمن، وفي الصومال، وفي بلاد أفريقيا، وفي تركيا، وفي الهند، وغيرها.

---

(١) «حلية البشر» (١/ ٨٠١)

وقد نقل العلامة أبو الحسن الندوي في كتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» صورا مذهلة من مقاومة العلماء الصوفيين للإنجليز وفي الفداء والتضحية، ولولا خشية الإطالة لسقت الكثير منها.

وأما مواجهة الحكام الظلمة فمواقف الصوفية كثيرة ذائعة، فقد كان السلاطين والملوك يهابونهم ويفرقون من مجرد ذكر أسمائهم.

فاقرأ في ترجمة العز بن عبد السلام، أو ابن عجيل، أو النووي، أو اليونيني، أو العلاء البخاري أو الشيخ زكريا الأنصاري، ومن قبلهم ومن بعدهم تجد ما يدهش من الشجاعة والهيبة والصدع بالحق في وجه الملوك الجبارين البطاشين.

وممن عاصر ابن تيمية من العلماء المتصوفين الإمام الزاهد نور الدين أبو الحسن البصري، وهو ممن قام على ابن تيمية ورد عليه.

كان آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، وقد واجه مرة الملك الناصر محمد بن قلاوون بكلام غليظ فأمر السلطان بقطع لسانه، حتى شفع فيه.

وقد كان عالماً، صالحاً، نظاراً، ذكياً، متصوفاً، هكذا في «شذرات الذهب». [1]

وكتب التراجم والتاريخ زاخرة بمئات الأمثلة.

* * *

---

(١) «شذرات الذهب» (٨/ ١١٥)



عبارات ابن تيمية القاسية

اعتبار ابن تيمية صوفياً قد يشكل على البعض لأنه رحمه الله كان صاحب عبارة قاسية وشديدة عند النقد، وهذا لا ينسجم مع طبيعة التصوف الذي يربي أتباعه على الخشوع ولين الجانب وإحسان الظن بالآخرين، وتجنب الكلمات النابية.

والحق أن ابن تيمية كان كذلك، فهو من أكثر العلماء استعمالاً للكلمات القاسية، ويبالغ كثيراً في الحكم والتقييم على الأشخاص، ويكثر في كلامه ألفاظ التكفير والزندقة والحكم بالقتل ووصف بعضهم بالخبث، وغيرها.

لكن يجب أن نعلم أن الصوفي ليس معصوماً، ووقوعه في خطأ، أو مخالفته لبعض الآداب لا تؤثر على صوفيته ما لم تكن خلقاً يقابح به كل من لم يرق له.

لا سيما إذا كان العالم متأولاً في استخدام العبارات الجارحة، فإنه يكون معذوراً، ولا تؤثر على عدالته، وإن كان يجب علينا رفضها بلا تردد.

وقد أثر عن جماعة من العلماء الصوفيين الذين لا يختلف المتصوفة في رسوخهم في علوم الطريقة، بل لا يشكون في اعتبارهم من الأولياء والعارفين الأقطاب.

حتى إن الإمام الصوفي الشهير أو إسماعيل الأنصاري كان يلعن إمام أهل السنة والجماعة أبا الحسن الأشعري.

ومن أئمة الصوفية الموصوفين بقسوة العبارة، الإمام الحارث المحاسبي، كما ستراه في ترجمته من «طبقات الشافعية الكبرى» للتاج السبكي.

وكان العلاء البخاري عالم الصوفية في زمانه، وهو حاد العبارة، حتى أنه نص على تكفير ابن تيمية وابن عربي معاً، كما تقدم.

ومنهم الإمام تقي الدين الحصني، فقد كان رحمه الله إماماً من أئمة الصوفية، ومع ذلك كان شديد العبارة، لاذعاً، يتخير أقسى الألفاظ وأكثرها إيلاماً.

وقد رد على ابن تيمية مراراً فناله من طعناته الكثير، ومما قاله فيه: «مبتدع حران، لبس على أتباع الدجال ومن شابههم من شين الأفهام والأذهان، وزخرف لهم من القول غروراً، كما صنع إمامه الشيطان، فصدهم بتمويهه عن سبل أهل الإيمان، وأغواهم عن الصراط السوي، إلى بنيات الطريق ومدرجة الشيطان، فهم بتزويقه في ظلمة الخطأ والإفك يعمهون، وعلى منوال بدعته يهرعون، صم بكم عمي فهم لا يعقلون».

وقال: «ولم يزل أهل التوحيد المعظمين للأنبياء من العلماء وغيرهم يزورون الأنبياء في مشارق الأرض ومغاربها، ويرون ذلك مما يترجون فيه الفضل والمغفرة، والتقرب إلى الله عزل وجل بزياراتهم، حتى جاء هذا الزنديق، يهدم عليهم ذلك، لدسيسة في اعتقاده». [1]

رحم الله ابن تيمية، وغفر للتقي الحصني، وظننا أن الله يعلم أن هذا الغضب الذي عبر عنه الحصني ووقع فيما هو قريب منه ابن تيمية لم يصدر منهما إلا غيرة على الدين، وغضباً لله.

---

(١) «الفتاوى السهمية» بذيل «دفع شبه من شبه وتمرد» (ص ٥٥٩، ٥٦٧)

وفي ردود الإمام تقي الدين السبكي على ابن تيمية عبارات في غاية القسوة والشدة.

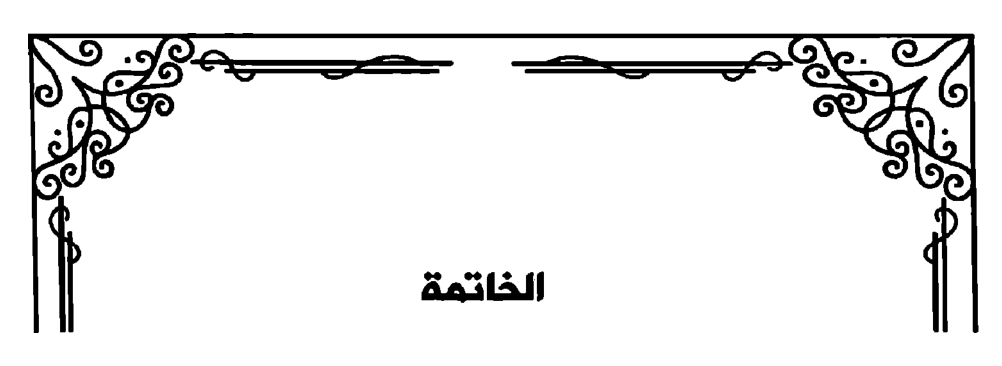
وهي ظاهرة منتشرة في ردود العلماء المتقدمين والمتأخرين، ولهم في ذلك أعذارهم، وكلهم مجتهدون متأولون، يتقلبون بين الأجر والأجرين.

فقسوة العبارة أو لينها ليستا معياراً للصوفي، والصوفية بشر يعتريهم ما يعتري سائر الناس من الخطأ وزلل اللسان، وليسوا أهل عصمة، وقد ذُكر في ترجمة الفخر الصوفي الخبري أنه «كان بذيء اللسان، كثير الوقيعة في الناس» ومع هذا لم ينزع منه العلماء لقب «الصوفي».

وقد سبق أن ذكرنا عدداً من هذه الأمثلة في سياق حديثنا عن نقد ابن تيمية لبعض شيوخ الطريق، ولكننا أفردناه هنا للتأكيد على رد الإشكال المشار إليه.

ولا يسعنا نحن الذين ألقت بنا الأيام في آخر الزمان إلا أن نتذكر علماءنا السابقين بالدعاء لهم بالرحمة والرضوان، ونرجوا أن يكونوا يوم لقاء الحكم العدل كما قال في كتابه العظيم ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.





الخاتمة

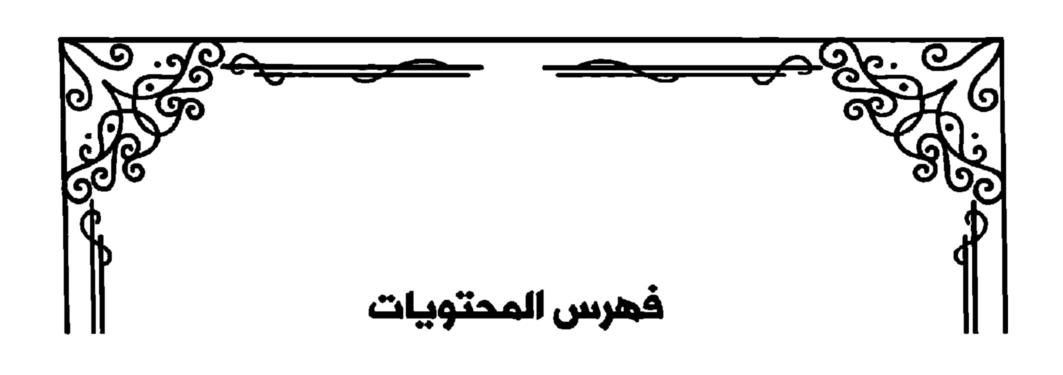
وقد أتينا على ما قصدنا، وأوضحنا ما أردنا بما لا يدع مجالاً للشك في صلة عالمنا الجليل بالتصوف، واعتداده به كعلم من علوم الشريعة، واعتداده بهذه الطائفة العلية كجزء من أهل السنة والجماعة، وهو المنهج العام المتكامل الذي عاش رحمه الله للدفاع عنه.

وليس من شيء بقي كي أقوله إلا أن أحث كل من يقف على كتابي هذا أن يقرأه بقلب واع، طالباً الحقيقة، متحرراً من قيود التبعة العمياء، وأسر العوائد والمألوفات، فالحق أحق أن يتبع.

واعلم أن للرجوع إلى الحق متعة ونعيماً يفوقان نشوة الانتصار لحظوظ النفس، فالتصور الخاطئ غشاء وغطاء يحجب نور الحقيقة ليعيش الإنسان في ظلمة الأوهام والتصورات المغلوطة، والرجوع إلى الحق تبديد لظلام الجهل وإزاحة لغشاوة القلب.

وعلى كل حال هو توفيق من الكريم الرحمن، نسأله هو ربنا الجليل الحليم أن يأخذ بنواصينا إليه وأن يشرح صدورنا للحق، وأن يهدينا سبل السلام.

والختم بالحمد لله كما بدأنا وبالصلاة والسلام على خير رسول أرسله بأعظم كتاب أنزله وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين.



فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *